صفاء النجار
رواية
مقامات الغضب
الدار المصرية اللبنانية

رواية

مقامات الغضب

مقامات الغضب: رواية / صفاء النجار. – ط1.–
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2024.
248 ص؛ 20 سم. –
تدمك: 0 – 460 – 795 – 977 – 978
1– القصص العربية.
أ – العنوان. 813
رقم الإيداع: 2971 / 2024

مقامات الغضب: رواية / صفاء النجار. – ط1.–
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2024.
248 ص؛ 20 سم. –
تدمك: 0 – 460 – 795 – 977 – 978
1– القصص العربية.
أ – العنوان. 813
رقم الإيداع: 2971 / 2024

©

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: 2024م.

تصميم الغلاف الفنان: أحمد فرج

تعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف
وليس بالضرورة أن تعبّر عن آراء الدار

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،
بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

وليس بالضرورة أن تعبّر عن آراء الدار

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،
بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًّا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

صفاء النجار

رواية

مقامات الغضب

الدار المصرية اللبنانية

العصب

الدار المصرية اللبنانية

إلى محمد الباز..

أراك بقلبي فتبتسم عيناي

مقام المغامرة

أروى

مثل كثيرين أفعل كل يوم أشياء عديدة، لكني في الحقيقة لا أفعل شيئا.. أبدد طاقتي في كل الأفعال؛ أصحو، أذهب للعمل، أحب، أكره، لكن لا أثر، لا نتيجة. كل ما أفعله صاخب، مشتعل، منفجر؛ بوم.. بوم، ثم لا شيء.. هدم.. هدم.. معول يسقط على كتلة، بناية، علاقة، رابطة، فتطير أجزاء الكل دون اعتبار لأي قانون أو قاعدة، ينهار المتماسك، يتفتت الصلب. تتطاير شظايا، أجزاء مشوهة، منبعجة،
لا يمكن تجميعها تلقائيا، قد يتمكن الضغط، أو التحوير من تجميع المتشظي، حيث تتوالد المخلوقات الخربة، الرعب المجسد لعدم الانسجام، عدم التوازن..

أنا واحدة من الكائنات التي تتشظى طوال يومها، وفي الصباح التالي تعيد تركيب أجزائها.

أقرب ما أكون للعروسة «تشاكي»، «أنا تشاكي.. هل تريد أن تلعب؟».

لا. ليس اسمي «تشاكي»، اسمي أروى.. أسماني أبي أروى، كيدا في أمي التي كانت ترغب في تسميتي «منة»، لكنه سجل اسمي في الشهادة أروى، وفرض اسمي عليها.

لا يعرف أبي معنى اسمي، فهو يختار الأشياء اعتباطا، لا يعرف عالم المعاني أو الدلالات، لكني أعرف، المعرفة الآن متاحة الى حد التخمة،

مثل كثيرين أفعل كل يوم أشياء عديدة، لكني في الحقيقة لا أفعل شيئا.. أبدد طاقتي في كل الأفعال؛ أصحو، أذهب للعمل، أحب، أكره، لكن لا أثر، لا نتيجة. كل ما أفعله صاخب، مشتعل، منفجر؛ بوم.. بوم، ثم لا شيء.. هدم.. هدم.. معول يسقط على كتلة، بناية، علاقة، رابطة، فتطير أجزاء الكل دون اعتبار لأي قانون أو قاعدة، ينهار المتماسك، يتفتت الصلب. تتطاير شظايا، أجزاء مشوهة، منبعجة،
لا يمكن تجميعها تلقائيا، قد يتمكن الضغط، أو التحوير من تجميع المتشظي، حيث تتوالد المخلوقات الخربة، الرعب المجسد لعدم الانسجام، عدم التوازن..

أنا واحدة من الكائنات التي تتشظى طوال يومها، وفي الصباح التالي تعيد تركيب أجزائها.

أقرب ما أكون للعروسة «تشاكي»، «أنا تشاكي.. هل تريد أن تلعب؟».

لا. ليس اسمي «تشاكي»، اسمي أروى.. أسماني أبي أروى، كيدا في أمي التي كانت ترغب في تسميتي «منة»، لكنه سجل اسمي في الشهادة أروى، وفرض اسمي عليها.

لا يعرف أبي معنى اسمي، فهو يختار الأشياء اعتباطا، لا يعرف عالم المعاني أو الدلالات، لكني أعرف، المعرفة الآن متاحة إلى حد التخمة، ضغطة على الموبايل تقدم لك معرفة العالم، ضغطة تختزل كل الجهود وتقدمها لك كي تتباهى أكثر وأكثر بما لم تتعب فيه..

اسمي أروى، أنا: النعومة والخفة والرشاقة.

اسمي أروى: العطوفة والحنونة، الطيبة القلب والمتسامحة في أغلب الأوقات.

اسمي أروى: المحبة للتسلية والمرح. الذكية جدا والتي تعرف متى تتكلم ومتى تصمت، ويسهل عليها إقناع الناس بما تريد.

إذا رأيتني، ستجذبك براءة شابة جميلة تعاني منذ أصبحت في الصف الخامس من تفتيش الراهبات وإصرارهن على مسح رموشها الطويلة للتأكد من أنها لا تضع ماسكارا، أهدابها الطويلة تلقي ظلالا على خد بارز الوجنتين، تجعلك تدرك أن سحر نظرتها يتأكد بهذه الإغماضة والكثافة التي تحمي سرا، لا تريد لأحد أن يطلع عليه.

تحترف اللعب بالكوتشينة، تعلمتها من جدتها «هانم»، جدتها لأبيها.

الجدة.. قوية، واسعة الحيلة، لكنها سهلة الخديعة، متقلبة المزاج تنتقل بين الضحك والصراخ في لحظة، هي امراة بلا قوانين غير قانون مزاجها، تتغير القواعد وفقا لحدته، تعكره، روقانه، فيمكن للصغيرة أن تهمس لها وهي تشير لورقة كوتشينة: تيتة، البنت الجميلة الحلوة دي هي اللي تكوش. تفقد الجدة العجوز موروثها، وتهز رأسها ضاحكة: البنت اللي بتكوش.

تبتسم البنت وهي تضع قواعد وتهدمها، يوما وراء يوم يشتد عودها وتمارس ألعابا أكثر دربة وخبرة، وتخترع ألعابا جديدة، لم يسمح بها أحد، وهي التي ستتحكم في قواعدها قربا وبعدا، بداية ونهاية. مع ماما، بابا، جدو، كل مدرس ومدرسة وكل زميل، وعندما تتخرج ستجد السيرك الأكبر منصوبا.. المسألة هي اللعب.. ليس المرح أو التهريج أو المزاح. لكنه اللعب فحسب.. كأنه يتيح لها / لك، الهروب من المسئولية، الخروج عن القواعد، ليس القواعد فلكل لعبة قوانينها التي يجب أن يعرفها اللاعبون قبل أن يبدأوا اللعبة، لكن ماذا عن تغيير القوانين، ماذا عن الألعاب الارتجالية، عن مهارة اختراع ألعاب جديدة تحوير، القواعد المتفق عليها، طمسها، تشويشها؟

يبدأ الأمر بتحريف صغير في القاعدة بتغيير لون، موضع البداية: إحنا بنكوش بالبنت.

ليس عليها إلا أن تكرر العبارة بثقة وضغط على كل مخارج الحروف اللاهثة والشفهية.. وهي تصوب عينيها لمن يلعب معها، ثم تغلق الكادر برموشها كأنها تأتمنه على سر خاص بينهما.

ترفض ماما هذه الألعاب، تصر على أن أحترم القواعد والأصول رغم أنني لم أعد طفلة، وهي نفسها ذاقت المر من قواعدها وأصولها.

ها أنا أعيد تركيب وجهي وألطع عليه ابتسامة تناسب الرضا الذي يغمر ماما حتى لا أعلق في دروس التنمية البشرية التي تحرص على حضورها؛ كيف تحافظين على رشاقتك؟ تساؤل يليق بالسيدات الفارغات، لذا لا بد من تطعيمه بشيء من: كيف تكسبين الثقة بالنفس، كيف تتحكمين في غضبك؟ كيف تطورين علاقاتك؟ الجيم وصالات اليوجا، حلقة من الحلقات المفرغة التي تتوه فيها النساء، لا بد من التفخيم وإضافة دبلومة التغذية الخلوية، دبلومة المهارات الاتصالية، حتى تعبير التنمية البشرية، أصبح «أكلشيه» مستهلكا، باليا، يشبه الشعارات السياسية التي لم يتحقق منها شيء.

كل دروس التنمية الذاتية لم تستطع أن تغير علاقتي بماما، دائما هناك اعتراض منها على شيء، ودائما هناك طلب مني لشيء، أي منا لم يتغير رغم تجاوزي لمرحلة المراهقة.. الخلافات المتكررة، تستنزف طاقتي، أهرب لسريري، أهرب لشاشتي الصغيرة، الفرق الموسيقية الجديدة، العالم يتجه شرقا لليابان، لكوريا، الشجار

ليس عليها إلا أن تكرر العبارة بثقة وضغط على كل مخارج الحروف اللاهثة والشفهية.. وهي تصوب عينيها لمن يلعب معها، ثم تغلق الكادر برموشها كأنها تأتمنه على سر خاص بينهما.

ترفض ماما هذه الألعاب، تصر على أن أحترم القواعد والأصول رغم أنني لم أعد طفلة، وهي نفسها ذاقت المر من قواعدها وأصولها.

ها أنا أعيد تركيب وجهي وألطع عليه ابتسامة تناسب الرضا الذي يغمر ماما حتى لا أعلق في دروس التنمية البشرية التي تحرص على حضورها؛ كيف تحافظين على رشاقتك؟ تساؤل يليق بالسيدات الفارغات، لذا لا بد من تطعيمه بشيء من: كيف تكسبين الثقة بالنفس، كيف تتحكمين في غضبك؟ كيف تطورين علاقاتك؟ الجيم وصالات اليوجا، حلقة من الحلقات المفرغة التي تتوه فيها النساء، لا بد من التفخيم وإضافة دبلومة التغذية الخلوية، دبلومة المهارات الاتصالية، حتى تعبير التنمية البشرية، أصبح «أكلشيه» مستهلكا، باليا، يشبه الشعارات السياسية التي لم يتحقق منها شيء.

كل دروس التنمية الذاتية لم تستطع أن تغير علاقتي بماما، دائما هناك اعتراض منها على شيء، ودائما هناك طلب مني لشيء، أي منا لم يتغير رغم تجاوزي لمرحلة المراهقة.. الخلافات المتكررة، تستنزف طاقتي، أهرب لسريري، أهرب لشاشتي الصغيرة، الفرق الموسيقية الجديدة، العالم يتجه شرقا لليابان، لكوريا، الشجار

لا ينتهي بيني وبين ماما حتى أني أسميها «السيدة التي تقيم في الغرفة المجاورة»، أحاول أن أبتعد بعالمي عنها، بالصراخ، بالمراوغة.. لكن أعود وأحتاج إليها؛ علاقتنا باليومية، بالقطاعي. تتهمني بالسطحية، بالتسرع، هذه حقيقة، لكني لا أراها صفة سلبية، من يريد العمق؟ من يريد هذا الحكمة في زمن اللا عقل؟

عرضوا عليّ أن أعمل مذيعة رفضت، أخشى مواجهة الكاميرا.. درست الإعلام في الجامعة الأمريكية، لا توجد لديّ موهبة محددة، أعمل منتجا فنيا في قناة تلفزيونية، دخلت الإعلام لأنها مهنة ودراسة سهلة، أعرف أنني لم أحقق طموح أمي عندما أدخلتني «الباك» كي أكمل تعليمي في فرنسا لكني لم أكن أريد السفر في تلك السن،

لا أعرف ماذا أفعل وحدي، لا أستطيع أن أعيش في نزل للشباب أو مع عائلة فرنسية، لي صديقات يدرسن الاقتصاد في سويسرا، أو السياسة أو القانون في القسم الفرنسي في جامعة القاهرة، لكني أردت شيئا سهلا، لا أريد تعقيدات، حتى العمل بالإعلام لا يحتاج إلى دراسة. لكنها شهادة أرضي بها ماما. أو عمل الحد الأدنى مما هو واجب، ما فائدة أي شيء؟ إذا كانت الحياة تعود لتبدأ من جديد، من نقطة الصفر، ما الجدوى إذا كنا عرضة دائما للخسارة ولا شيء مجاني؟

اقترحت ماما كلية ألسن ولغات قسم لغة فرنسية كي أستفيد من دراستي، لكنني رفضت، الترجمة تحتاج لإعادة بناء التراكيب وضبط اللغة، الترجمة تحتاج لصبر، وأنا لديّ غضب.. يملأني غضب هائل ضد نفسي، ضد ماما، ضد بابا، ضد جدي، ضد فادي.. غضب من استخدام الآخرين لي، غضب من استغلالي للآخرين.

ما الذي يقضي على الغضب؟ يفرغه من طاقته، يحوله لشيء أبله بلا معنى؟ لا شيء يعادي الغضب كالملل والتكرار، الغضب دائما طازج، في كل مرة تفور الدماء، تتسع الشرايين وتعمل مضخات القلب بأقصى قوتها وتدفعك الهرمونات لحافة الهاوية، ويتحول العالم لحفرة، هوة، صراخ من السقوط المفاجئ، الذي لم يحدث بعد، أو ربما يحدث فقط في خيالك، لعبة المحاكاة.. أحبها في أفلام الرعب، لكني لا أحب لعبة القطارات حيث تتحرك القضبان بسرعة تفوق السرعة العادية آلاف المرات.. تسبب قطار «إنديانا جونز» أو قطار الموت في «ديزني باريس» في خصام دام يومين بيني وبين أمي. شاركتني اللعبة لكني كنت وحدي تماما في الصعود الخاطف والانحدار السحيق، أربع دقائق قضيتها في الصراع، في المباغتات، عدم الاتزان المطلق، ما إن توقف القطار، حتى أفرغت ما في معدتي على بوابة الخروج وعلى الممر، أخذت أجري، وأمي تجري خلفي، تحاول أن تلمسني أن توقفني وأنا أنفر منها، أهرب لا أعرف أين أسير، أتخبط ولكن على الأرض.. مجرد الجري على أرض صلبة كان يريحني، استمررت في الحركة والصراخ.. صراخ لم يقطعه البكاء أو تهدئة الدموع، احتجت لساعة حتى أستطيع الوقوف واستعادة توازني.

ظلت ماما تهرول خلفي، تحافظ على مسافة بيني وبينها، وعندما نظرت لها كان وجهها محتقنا من الدموع وكان صوتي محتقنا من الصراخ.. الصراخ طاقة، طاقة انشطار.. والغضب طاقة.

ليس ذنبي أن وعيي تشكل من الغضب الممزوج بوجع وألم أرصده من خلف زجاج سيارتنا «الفيميه» وأنا في طريقي يوميا من البيت للمدرسة.. في الصباح تكون الحياة هادئة والمرضى لم يصلوا بعد لمستشفى قصر العيني القديم، في طريق العودة بعد الظهيرة، يكون المرضى الذين لم يحصلوا على الدواء المناسب قد أجهدهم الوقوف فتنحني ظهورهم أكثر ويظهر على وجوه ذويهم إحباط غاضب، وعلى وجوههم غضب متألم، يمرون من أمامنا بلا مبالاة، بتجاهل لكل الإشارات، والكلاكسات، يرمون بأجسادهم على «كبوت» السيارة، يصرخ وليد السائق: أنت يابني، ابعد، أنت يابا، وسع طريق.

يشيحون بأيديهم وشفاههم الملتوية وقد يبصقون على السيارة ويواصلون طريقهم، مستنزفين من كل طاقة.

الطاقة لا تفنى ولا تستحدث من العدم.. لو أن هناك اختراعا يتمكن من تحويل كل البشر إلى مفاعلات للطاقة، السعرات المحترقة من الأجساد

ما إن توقف القطار، حتى افرغت ما في معدتي على بوابه الخروج وعلى الممر، اخذت اجري، وامي تجري خلفي، تحاول ان تلمسني ان توقفني وانا أنفر منها، أهرب لا أعرف أين أسير، أتخبط ولكن على الأرض.. مجرد الجري على أرض صلبة كان يريحني، استمررت في الحركة والصراخ.. صراخ لم يقطعه البكاء أو تهدئة الدموع، احتجت لساعة حتى أستطيع الوقوف واستعادة توازني.

ظلت ماما تهرول خلفي، تحافظ على مسافة بيني وبينها، وعندما نظرت لها كان وجهها محتقنا من الدموع وكان صوتي محتقنا من الصراخ.. الصراخ طاقة، طاقة انشطار.. والغضب طاقة.

ليس ذنبي أن وعيي تشكل من الغضب الممزوج بوجع وألم أرصده من خلف زجاج سيارتنا «الفيميه» وأنا في طريقي يوميا من البيت للمدرسة.. في الصباح تكون الحياة هادئة والمرضى لم يصلوا بعد لمستشفى قصر العيني القديم، في طريق العودة بعد الظهيرة، يكون المرضى الذين لم يحصلوا على الدواء المناسب قد أجهدهم الوقوف فتنحني ظهورهم أكثر ويظهر على وجوه ذويهم إحباط غاضب، وعلى وجوههم غضب متألم، يمرون من أمامنا بلا مبالاة، بتجاهل لكل الإشارات، والكلاكسات، يرمون بأجسادهم على «كبوت» السيارة، يصرخ وليد السائق: أنت يابني، ابعد، أنت يابا، وسع طريق.

يشيحون بأيديهم وشفاههم الملتوية وقد يبصقون على السيارة ويواصلون طريقهم، مستنزفين من كل طاقة.

الطاقة لا تفنى ولا تستحدث من العدم.. لو أن هناك اختراعا يتمكن من تحويل كل البشر إلى مفاعلات للطاقة، السعرات المحترقة من الأجساد السمينة، الأجساد المترهلة، كل الشحوم.. تتحول إلى طاقة، الكلام، الصراخ، الاحتجاجات، تتحول لطاقة.

الفضاء يكاد ينفجر من الكلام، فيس بوك المقهى العالمي الكبير، يتحول الصراخ إلى غضب دائم مكتوم.. وهذا البيت مصدر كبير للغضب، نوافذه الزجاجية التي تجعل الشمس تسكن في غرفتي، أشعتها تهاجم وجهي، فأنهض من السرير غاضبة لأغلق الستائر الـ«بلاك أوت»، وأحاول العودة للنوم، ومع تقلبي في السرير وهروب النوم مني ومطاردتي له.. يزداد تدفق الغضب، الحمم البركانية تتناثر وتسيل وتحفر أخاديدها في رأسي، النوم الغاضب يقذفني في أحلام فلاشية، غير مترابطة، تتداخل الأصوات التي تستطيع أن تخترق أدوارا عدة وتتسلق أشجارا عتيدة، أصوات المتظاهرين في كل الجمع، طلقات الرصاص، انفجار مبنى مديرية الأمن، الجلبة الصباحية لركن سيارات أساتذة وطلبة طب الأسنان أمام المتحف المواجه لفيلتنا، الصوت النشاز للمرأة التي تركن السيارات وتفرض إتاوة يومية للركنة، لقد بلغت من الوقاحة أن جاءت تستأذن جدي في أن تركن السيارات بجوار سور الفيلا، كيف تمالك جدي نفسه من الغضب؟! وهي تخاطبه: «يا باشا أنا مأجرة الجراش من الحي وأنا هنفعك، بالنص يا باشا».

كل الثورات والاحتجاجات تعود بنا للدائرة ذاتها، ويصبح أكبر إنجازات ثورة يناير أنها أتت بالإخوان إلى الحكم وإنجازها الأعظم أنها جعلت بعض التكاتك تجرؤ على دخول «المنيل»، كل ذلك لكن ماما لا تريد الاعتراف بالواقع، وتتجاهل كم المنغصات والإزعاج الذي يحاصرنا؛ رنات الموبايل، رسائل الفيس، الواتس، التكات التي
لا تصمت، الاهتزازات التي لا تتوقف. يبدو أن لا شيء يدعو للراحة كل ما داخلي وما حولي غاضب، مضطرب.. الملاحظات الدائمة: «فيه آنسة تضع مونيكيير أسود؟! عمري ما شفت شعر بصبغة زرقاء! هو عقل أدفع فلوس في البناطيل المقطعة دي! فرقة BTS بنات ولا صبيان؟».

كل ما أريده أن تعاملني كإنسان بالغ عاقل راشد ولست طفلة، لقد كبرت وهذه الحماية والمتابعة الدقيقة تخنقني، طوال الوقت شكوى من تصرفاتي، وإحساس بالخيبة والإحباط وأنني أقل من مستوى توقعاتها، طوال الوقت نصائح، ألا يوجد غير الكلام فيما يصح؟ المذاكرة، المدرسة، حتى الشتيمة التي لا تسمح بها نحن نعتبرها أداة إقناع، وأحيانا أحل بصراخي مشكلة مع نفسي. تحاول السيطرة على وقتي تنظيمه وفق ساعتها البيولوجية واهتماماتها، أين ماما التي كانت تدللني وتستمع لحكاياتي وخرافاتي وتضحك عليها؟ الآن صار كل شيء جادا وعقيما.

وجدي لا يكف عن النصائح الاستراتيجية على شاشات التلفزيون أو في الحياة «أنا ضد ترقية أمين الشرطة لضابط شرطة بعد حصوله على كلية الحقوق من التعليم المفتوح، هل سنضحك على أنفسنا أغلب هؤلاء الأمناء يحصلون على الشهادة بالغش من مذكرة يشتريها من مكتبة خارج الجامعة قبل دخوله الامتحان، أنا مع ترقية الأمين الذي حصل على الثانوية العامة وأن يدرس القانون في الجامعة، وأن يصبح ضابطا لأنه أكثر وعيا وكان متفوقا في دراسته».

بعد سنوات من يناير يمكن لجدي أن يردد شعاره على شاشة التلفزيون «ارفع رأسك فوق أنت ضابط شرطة»، يمكنه أيضا أن يشير بأصابع الاتهام للثوار الغر السذج، إشاراته تحقر من يقين تمسكنا به لأيام، تبدد ثقة أننا حقا نستطيع، لا أحد يتخلى عن دوره، كل يتمسك بمكانه على المسرح، ويزاحم الآخرين كي يكون في المنتصف حيث دائرة الضوء، الوجوه تلمع تبتسم وخلف الكواليس الكل غاضب، الغضب يغسل زيف وجهنا. في الغضب تكتسي وجوهنا تعبيرات حيوانية بدائية تعود بنا لصراحة وعري الغابة.

لماذا غضب جدي عندما اكتشف أنني المنتج التنفيذي لبرنامج تسجيلي عن «التفريعة الثانية للقناة» وتمت إذاعته على قناة دوتشي فيلا؟

- أنت ساهمت واشتريت شهادات استثمار في المشروع!

- نعم يا جدي، اشتريتها لأنها ستكسب، ولكن الديون والقروض.. تضخمت.

هذا عمل عظيم والدولة تحتاج لمشروع يلتف الناس حوله

الحقوق من التعليم المفتوح، هل سنضحك على أنفسنا أغلب هؤلاء الأمناء يحصلون على الشهادة بالغش من مذكرة يشتريها من مكتبة خارج الجامعة قبل دخوله الامتحان، أنا مع ترقية الأمين الذي حصل على الثانوية العامة وأن يدرس القانون في الجامعة، وأن يصبح ضابطا لأنه أكثر وعيا وكان متفوقا في دراسته».

بعد سنوات من يناير يمكن لجدي أن يردد شعاره على شاشة التلفزيون «ارفع رأسك فوق أنت ضابط شرطة»، يمكنه أيضا أن يشير بأصابع الاتهام للثوار الغر السذج، إشاراته تحقر من يقين تمسكنا به لأيام، تبدد ثقة أننا حقا نستطيع، لا أحد يتخلى عن دوره، كل يتمسك بمكانه على المسرح، ويزاحم الآخرين كي يكون في المنتصف حيث دائرة الضوء، الوجوه تلمع تبتسم وخلف الكواليس الكل غاضب، الغضب يغسل زيف وجهنا. في الغضب تكتسي وجوهنا تعبيرات حيوانية بدائية تعود بنا لصراحة وعري الغابة.

لماذا غضب جدي عندما اكتشف أنني المنتج التنفيذي لبرنامج تسجيلي عن «التفريعة الثانية للقناة» وتمت إذاعته على قناة دوتشي فيلا؟

- أنت ساهمت واشتريت شهادات استثمار في المشروع!

- نعم يا جدي، اشتريتها لأنها ستكسب، ولكن الديون والقروض.. تضخمت.

- هذا عمل عظيم والدولة تحتاج لمشروع يلتف الناس حوله.

- يا جدي، محافظ البنك المركزي نفسه قال: إن مشروع قناة السويس وإنشاء محطات كهرباء جديدة تكلفت مليارات.

- يا أروى، ليس كل ما يُعرف يُقال، وأنتِ وأصدقاؤك لا تعلمون شيئًا.

الموضوع أبسط مما يتصور جدي، كل ما في الأمر كانت لديّ مواد فيلمية وتسجيلات، وكل متحدث تكلم بما يعرف وعن اقتناع، الجزئيات كلها صحيحة، المهم الرؤية الكلية، قدمت ما يريد جمهور «دوتشي فيلا» أن يشاهده ويسمعه.

- لا بد أن يكون عندك ولاء للبلد أكثر. واحد من تلاميذي سيتكلم معك بخصوص شغلك الأخير.

- أمن الدولة؟

- اسمه الأمن الوطني.

- جدي، لن أخبرهم بشيء.

- لا يحتاجون لمعلومات منك، المتطوعون كثيرون.

لم يتم حبس أو توجيه اتهام لأي من فريق البرنامج. كان وجودي بينهم كافيا لحماية الجميع، شريطة تعلم الدرس وعدم تكرار الخطأ: «نحن نثق في حسن نيتك. لكن بعض العناصر تحاول استغلال أبنائنا».

أيها الضابط.. نحن من صنع آلهة من الأحلام والأمنيات.. نفخنا فيها من أرواحنا، من براءتنا، من الشغف بالحياة، من الرغبة في التغيير، لسنا تافهين، لسنا مرفهين، لسنا العيال اليويو، الكلبوبة، في يناير نزلنا الميدان، نتجمع عند السفارة الإيطالية في كافيه «كاكاو» قبل موعد الدرس، ونخترق الشوارع اللولبية لجاردن سيتي، لم ننتبه أن براندات ملابسنا، أو أن الهيدفون وموبايلات الآي فون ستكون محط انتباه، لكن بمجرد دخول الميدان يتم الالتقاط والفرز، مبهورين بجرأة لم نعتد عليها.. تقول ماما إن جسدي يستقيم وأصير أشبه ما أكون بجندي مداومة بمجرد اقترابي من سور مدرستي «الميرديديو».

يتولى وليد السائق الذي يصر على مرافقتنا مهمة تسهيل دخولنا: أروى، فادي، جيسكا، جيروم، فاتيما. سبق أن دخلت الميدان مع ماما بعد أن علمت باقتحام المتحف المصري، وقفنا متراصين في سلاسل حول المتحف، كنا في حماية الجيش. ظننت أننا بعيدون عن نفوذ جدي، كنت أتوهم، فصفة حفيدة اللواء يسري صالح، يمكنها أن تظللني مهما ادعيت غير ذلك.

الغريب.. كيف تحملت ماما كل أذى بابا ولم تلجأ لجدي أبدا؟

ألا يكفي هذا؟ عليّ أن أستيقظ الآن، أمدد عضلات ذراعيّ وساقيّ ليكتسي جسمي بملامح الهمة والنشاط بما يسمح لي أن أتدلل على جدي كيفما أشاء وربما يوافق على قيادتي لسيارته الجديدة اليوم.

أنزل على مهل، الساعة العاشرة.. جدي في مكتبه، ماما في الجيم، تركت لي رسالة: «سيأتي مسيو ماهر وفريقه، كل حاجة مضبوطة» ماذا تقصد؟ عادي، ماما تنثر تعليماتها في كل مكان.

تجهز دادة سهاد الحمام وبعده فنجان نسكافيه بلاك.

- أضيف عليه لبن؟ يا حبيبتي أنت صغيرة على البلاك.

يتولى وليد السائق الذي يصر على مرافقتنا مهمة تسهيل دخولنا: أروى، فادي، جيسكا، جيروم، فاتيما. سبق أن دخلت الميدان مع ماما بعد أن علمت باقتحام المتحف المصري، وقفنا متراصين في سلاسل حول المتحف، كنا في حماية الجيش. ظننت أننا بعيدون عن نفوذ جدي، كنت أتوهم، فصفة حفيدة اللواء يسري صالح، يمكنها أن تظللني مهما ادعيت غير ذلك.

الغريب.. كيف تحملت ماما كل أذى بابا ولم تلجأ لجدي أبدا؟

ألا يكفي هذا؟ عليّ أن أستيقظ الآن، أمدد عضلات ذراعيّ وساقيّ ليكتسي جسمي بملامح الهمة والنشاط بما يسمح لي أن أتدلل على جدي كيفما أشاء وربما يوافق على قيادتي لسيارته الجديدة اليوم.

أنزل على مهل، الساعة العاشرة.. جدي في مكتبه، ماما في الجيم، تركت لي رسالة: «سيأتي مسيو ماهر وفريقه، كل حاجة مضبوطة» ماذا تقصد؟ عادي، ماما تنثر تعليماتها في كل مكان.

تجهز دادة سهاد الحمام وبعده فنجان نسكافيه بلاك.

- أضيف عليه لبن؟ يا حبيبتي أنت صغيرة على البلاك.

- يا دادة أنا كبيرة.. كبيرة جدا، أنا عجوز بنزق شابة.

- المهم لا تتأخري.

- يعني سأتأخر عن الديوان يا دادة؟!

- لا. ستتأخرين على فرحك!

فرحي! ياالله، اليوم الخميس.. يوم زفافي.

أي وجه عليّ أن أرتدي؛ المتوترة، المرهقة، أم أظهر لهم وجهي الحقيقي؟ اللا مبالية التي استيقظت في الصباح وقد نسيت يوم زفافها، كيف نسيت؟ وأنا المشغولة بتفاصيل المفروشات والفستان والشقة، ستة شهور منذ أعلنا الخطوبة، وأنا لا أفعل أكثر من كتابة قائمة المشتروات التي أحتاجها، أدخل على صفحات ومواقع تجهيز العرائس، آخذ رأي جدي، يشجع المنتجات الأمريكية، الأوربية، يمتعض عندما أخبره عن المنتجات التركية، يقول:

- كيف نشتري من دولة تدعم الإرهاب وتريد هدم الدولة المصرية؟

- يا جدي، هذه خلافات عارضة، إنجلترا احتلتنا، فرنسا احلتنا، هل يوجد شعب لم يمر علينا؟

طبعا موقفه لم يجعلني أقترح أن نقضي شهر العسل في اسطنبول رغم أنها شعبية جدا.

عند اختيار قاعة الأفراح، اخترنا قصر محمد علي، القصر الذي تطل عليه فيلا جدي، منذ يومين والشركة المنظمة لحفل الزفاف تستعد بتجهيز الجانب الشمالي من حديقة القصر.

أعرف أن ماما غير راضية عن هذا الزواج لكنها قامت بدورها كاملا، تحملت بمساعدة جدي تكاليف الزواج، ألمح القلق في عينيها، وأنا مصرة على موقفي كرغبة في تجربة، في مغامرة لكن هذا النسيان يخيفني من نفسي.

سلوى

اليوم زفاف أروى، انتظرت هذا اليوم طويلا، حلمت به، تمنيت كثيرا أن يكون حظها أحسن من حظي.

الكل سيحضر حفل الزفاف الليلة، وهو سيعود لترديد الموال نفسه: أريد أن نعيش معا، لقد تغيرت...

لا يوجد لديّ سوى معيار واحد للتأكد أنه تغير، أن يرد الأموال التي أخذها مني غصبا، نصيبي من ميراث أمي.. أن يرد كل ما اغتصبه مني ولا يعرفه أبي أو أحد من عائلتي.

خمسة عشر عاما مرت منذ انفصالنا، تزوج وطلق خمس مرات وما زال يغيب، ثم يعود وهو يردد: لقد تغيرت.

تهمس «عمتي هند»: سامر توسع جدا، وبقى شريك لشركة كبيرة «أوفر سيز»، لديها بواخر تنظم رحلات لليونان وجزر المتوسط. ما زال حريصا على التواصل معها، وهي لا تمنع نفسها عن شركته وسفرياته، بل تتصل بي وتدعوني لرحلات نصف العام، يحاول أن يجذب أروى برحلاته، طريقته في إيقاع الساذجين في حبائله، وكأني لم أفقد سنوات عمري في شراكه، ثم يردد ببلاهة: لقد تغيرت.

كيف أصدق أنه تغير وأنا نفسي لم أتغير.. ما زلت امرأة ملغزة حتى لنفسي، يحمل الآخرون نحوي مشاعر مختلطة، أنا مصدر هذا اللبس، فأنا طيبة

اليوم زفاف أروى، انتظرت هذا اليوم طويلا، حلمت به، تمنيت كثيرا أن يكون حظها أحسن من حظي.

الكل سيحضر حفل الزفاف الليلة، وهو سيعود لترديد الموال نفسه: أريد أن نعيش معا، لقد تغيرت...

لا يوجد لديّ سوى معيار واحد للتأكد أنه تغير، أن يرد الأموال التي أخذها مني غصبا، نصيبي من ميراث أمي.. أن يرد كل ما اغتصبه مني ولا يعرفه أبي أو أحد من عائلتي.

خمسة عشر عاما مرت منذ انفصالنا، تزوج وطلق خمس مرات وما زال يغيب، ثم يعود وهو يردد: لقد تغيرت.

تهمس «عمتي هند»: سامر توسع جدا، وبقى شريك لشركة كبيرة «أوفر سيز»، لديها بواخر تنظم رحلات لليونان وجزر المتوسط. ما زال حريصا على التواصل معها، وهي لا تمنع نفسها عن شركته وسفرياته، بل تتصل بي وتدعوني لرحلات نصف العام، يحاول أن يجذب أروى برحلاته، طريقته في إيقاع الساذجين في حبائله، وكأني لم أفقد سنوات عمري في شراكه، ثم يردد ببلاهة: لقد تغيرت.

كيف أصدق أنه تغير وأنا نفسي لم أتغير.. ما زلت امرأة ملغزة حتى لنفسي، يحمل الآخرون نحوي مشاعر مختلطة، أنا مصدر هذا اللبس، فأنا طيبة جدا، متسامحة، أنا -كما يصفونني- بلسم ونسمة، ومع هذا تخليت عن أبسط قواعد الفطرة؛ أن أكون أما، وتركت أبنائي للآخرين.

ما هي الفطرة؟ الفطرة أن تحتضن الأم أبناءها، تربيهم تسهر عليهم، ترعاهم، تحيط بهم.. هل هذه فطرة أم عادات؟ في الجاهلية كان العرب يرسلون أطفالهم الرضع إلى البادية، تتولى رعايتهم مرضعات، كي ينشأوا في مناخ صحي سليم ويعودون لأمهاتهم بعد فطامهم، النبي محمد حدث له ذلك، ولم تتهم السيدة آمنة بنقص الأمومة بل إنه عليه السلام كان يدعو لها.

الجميع كان متفقا على ذلك، ولم تكن المرضعة تنازع الأم أمومتها. ما حدث معي أن هناك من حاولت ونجحت في أخذ ابني مني، وأنا انهارت مقاومتي من كثرة الشد والجذب، قد يكون هذا ضعفا، جبنا، أنانية، عدم قدرة على المواجهة، أنا نفسي رغم أني الوحيدة التي عايشت كل الأحداث وكنت دوما في المركز، أحتار في نفسي، أنا في حالة اضطراب داخلي شديد، ليست لديّ رؤية ثابتة، أرض صلبة، تصور محدد عن العالم، ربما كانت مرونتي هي السبب، لو أن عائلة زوجي كانت أكثر إنسانية، لو أن زوجي كان أقل أنانية، لو أن حماتي كانت أقل سيطرة، لو أن حماي كان أكثر نخوة، ربما لم يكن لتكون هناك أزمة أو دراما كالتي وصلت لها حالتي.

موسومة أنا بالمرض، بالنقص، أنا امرأة غير سوية، والمرأة حين تخير بين أمومتها وبين أي شيء آخر فإنها -في حالة كونها سوية- تختار الأمومة بلا تردد. وأنا اخترت أنا أترك ابني، لم يكن هناك خيار، أنا أجبرت، لم يكن لديّ إرادة حرة، معرفة، وكان مفهومي أن أتخلى عن ابني لمن يستطيع أن يرعاه أفضل.. لكن الأمومة غريزة لا تحتاج لتعلم، وماذا إن تم تعديل هذه الغريزة، تضليلها تشويهها؟ ماذا إن فقدت بوصلتها؟ ما بيني وبين شريف أمومة بيولوجية فحسب، وحدي أشعر وأتألم بها، لكنه لم يشهد ذلك، بل شهد غيابي عنه. ما كان ظاهرا لأهلي، لأبي، أنني أفضل زوجي، لكن.. عدم تفهمهم وضغطهم المستمر للانتباه لحالي جعلني أفر وأبتعد عنهم.

وفي النهاية تحققت كل توقعاتهم وعدت للبيت الذي قاومت أن أعود إليه.

أشعر برغبة في العطس. باقات الزهور التي تملأ «استقبال» الفيلا وكروت التهنئة وعلب الهدايا المغلفة برذاذ لامع تستثير أعراض الحساسية لديّ، كل الزهور والكروت مجاملة لأبي، لا يحتاج أحد أن يجاملني أو يتودد إليّ، أتأكد من قائمة المدعوين؛ وزراء ورجال أعمال، قضاة ومحامون، الأفراح الملتقى الرسمي لإنهاء الصفقات وتمرير التعاقدات الاقتصادية والسياسية.

أرتب الكروت، تتعثر أصابعي في الكارت الذي كنت أبحث عنه.. اسمه مكتوب بإنجليزية بخط منمق، د. نبيل الخادم، تمنيت ألا ينسى الموعد أو يرسل دليلا لتذكره، وقد فعل فزادني الأمر اضطرابا وإرهاقا.. تعبت من السباحة في المياه العميقة لعواطفي الغامرة، بعد كل تجربة نفترض أننا غدا سنصبح طبيعيين، لكن هذا الغد لا يأتي.. وأظل أهبط، أهبط.. حتى صرت أخاف هبوط السلالم، تتحسس قدماي السلالم الرخامية الملساء الزلقة، أخشى النزول، الهبوط، أنزلق إلى ما لا أعرف، لا أنزل سلما وأنا أرتدي حذاء بكعب، اشتد بي الخوف وأنا أحمل أروى كي أذهب بها إلى الوحدة الصحية لتطعيمها وأخذ عينة من دمها لإجراء فحص اليود، أضم رضيعتي وأتخيل انزلاقي كل لحظة وماذا سأفعل إذا حدث ذلك، كل ما يعنيني هو التشبث بشيء فقعدت وارتكزت، وأروى في حضني نائمة لم يفزعها شيء.

ظللت في مقعدي فترة حتى استجمعت نفسي واستطعت النهوض، كان الوقت باكرا، كانت وقعة أنيقة، كأنها زحلقة مرجيحة دون شقلبة أو خبطات، تلقت عضلات فخذي الخلفية كل الاحتكاك وقامت مقعدتي بدور السنادة.

ليس كل السقوط بتلك السهولة، تسع درجات من السلمة الأولى بعد البسطة إلى البسطة الثانية حيث استقرت قدماي.

في السلمة الأولى: كنت أميرة، سقط عرشها، هل سقطت لأني تحركت بطريقة خاطئة؟ أم لأني لم أتحرك؟ وقفت، تحولت لصنم، لحجر، فسهل على الجاذبية أن تأخذه معها لأسفل، كأنى كنت أستكثر أن تمر أيامى بيسر، بسلام فكنت أرتاب وأنتظر قادما سيئا، قد يكون الإنسان هو أول من يحسد نفسه.

أرتب الكروت، تتعثر أصابعي في الكارت الذي كنت أبحث عنه.. اسمه مكتوب بإنجليزية بخط منمق، د. نبيل الخادم، تمنيت ألا ينسى الموعد أو يرسل دليلا لتذكره، وقد فعل فزادني الأمر اضطرابا وإرهاقا.. تعبت من السباحة في المياه العميقة لعواطفي الغامرة، بعد كل تجربة نفترض أننا غدا سنصبح طبيعيين، لكن هذا الغد لا يأتي.. وأظل أهبط، أهبط.. حتى صرت أخاف هبوط السلالم، تتحسس قدماي السلالم الرخامية الملساء الزلقة، أخشى النزول، الهبوط، أنزلق إلى ما لا أعرف، لا أنزل سلما وأنا أرتدي حذاء بكعب، اشتد بي الخوف وأنا أحمل أروى كي أذهب بها إلى الوحدة الصحية لتطعيمها وأخذ عينة من دمها لإجراء فحص اليود، أضم رضيعتي وأتخيل انزلاقي كل لحظة وماذا سأفعل إذا حدث ذلك، كل ما يعنيني هو التشبث بشيء فقعدت وارتكزت، وأروى في حضني نائمة لم يفزعها شيء.

ظللت في مقعدي فترة حتى استجمعت نفسي واستطعت النهوض، كان الوقت باكرا، كانت وقعة أنيقة، كأنها زحلقة مرجيحة دون شقلبة أو خبطات، تلقت عضلات فخذي الخلفية كل الاحتكاك وقامت مقعدتي بدور السنادة.

ليس كل السقوط بتلك السهولة، تسع درجات من السلمة الأولى بعد البسطة إلى البسطة الثانية حيث استقرت قدماي.

في السلمة الأولى: كنت أميرة، سقط عرشها، هل سقطت لأني تحركت بطريقة خاطئة؟ أم لأني لم أتحرك؟ وقفت، تحولت لصنم، لحجر، فسهل على الجاذبية أن تأخذه معها لأسفل، كأني كنت أستكثر أن تمر أيامي بيسر، بسلام فكنت أرتاب وأنتظر قادما سيئا، قد يكون الإنسان هو أول من يحسد نفسه.

في الثانية: كنت امرأة مغدورة، فقدت اتزانها من المفاجأة التي لم تتوقعها وإنما تنتظرها.

في الثالثة: سقطت في الجب.

في الرابعة: صدمة.

في الخامسة: هوة.

في السادسة: بدأت أفهم اللعبة وأتحكم في سقوطي بزيادة احتكاكي برخام السلم والضغط عليه.

في السابعة: سقطت الأقنعة، وتبدت أن الحكمة ما هي إلا لعب ولهو فعدت فتاة، صغيرة تركب الزحاليق، وتسقط في الرمل.

في الثامنة: عدت لمنبت جذوري وأدركت أني سأستقر فارتكزت وتمرست بقدمي على البسطة التالية.

في التاسعة: سقطت خصومتي مع ما حدث، سقط حزني وندمي، وأكملت سقوطي بثقة أن الأمر لن يحدث ثانية، فهبط على البسطة، جذبتني السلالم الرخامية الرمادية، كأنها نومتني، لم يكن سقوطا قاسيا صلدا كصخرة، لكنه كان انزلاقا تردد صداه المكتوم في داخلي فحسب، وعبرت عنه بصرخة سريعة، ربما تعود عليها سكان العمارة من الصاعدات؛ كلما رأت إحداهن قطة من القطط الأربع التي تتناثر على سلالم العمارة، كان يمكن أن أستسلم لها إلا أن ما أنقذني من دوامة الغواية والسقوط كان كتلة من اللحم البشري تنبض بالحياة هي صغيرتي أروى.

متى بدأ السقوط؟ السؤال الأدق: متى بدأ التواطؤ؟

أخبرني سامر، أنه كان متزوجا، قالها كجملة اعتراضية لا محل لها في نفسه، ولا وقع لها أو تأثير عليه، كأنما يخبرني أنه اشترى قميصا أو بنطلونا ولم يعجبه. بدا الأمر وكأنه لا شيء، حتى أنني تساءلت: لماذا أخبرني؟

لم أسأل متى تزوج؟ لماذا انفصل عن زوجته؟ هل لديه أطفال؟ لا شيء، من هناك بدأ تخديري، من تلك اللحظة وقعت في التنويم المغناطيسي، في دائرة اللا وعي، دون إرادتي وقعت في الفخ، وقعت في حبه ولم يكن لديّ استعداد أن يرحل، ماذا لو كانت هذه العبارة فخا، امتحانا كي يعرف مدى تمسكي به، ماذا لو أني سمعت صياغة العبارة بطريقة خطأ، ماذا لو أنه كان يقول: هل تقبلينني لو كنت متزوجا قبل ذلك؟ لو أنني رفضت الفكرة سيقول «إنني لا أحبه»، وأريد الارتباط به لأن ظروفه مناسبة وليس لشخصه أيا كان، سأجيبه بما يحب، الرجال يحبون أن تكون المرأة لطيفة متفهمة، تأخذهم على علاتهم، لقد استفدت من تجاربي السابقة.

قررت أن أحب هذا الرجل المدعو سامر، أخذت تفاصيله تنغرس في روحي كأشجار خيزران عتيقة، كأشجار كافور تشعبت جذورها وتماسكت في باطن تربة غرينية، طوله الفاره كأشجار النخيل الملكي السامقة الواصلة لقرص الشمس، شعره الحليق المكتمل، وجهه المنحوت كملك فرعوني، لونه الأبيض في ضربة مناقضة لمفهوم الرجولة الضاربة للسمرة.

حين يتحدث -وهو لم يكن بليغا- توجد تهتهة خفيفة أو لجلجة في كلماته، لكن ما أن يفتح فمه وأرى أسنانه حتى تصم حواسي بريقها، دائما يرتدي بنطلون «جباردين» فاتحا وعليه قميص، النسخة الأكثر شبها لممثلي المفضل «كيفن كوستنر».

حفرته في قلبي، وبطلبه الصريح الزواج مني أزاح من قلبي كل من دخلوه، وفي الليلة التي أعلنت موافقتي، غسلت قلبي من آلامه وأفراحه وأحزانه وأفرغته من كل شيء كي يستقبله.

لم يقل لي إنه يحبني، قال إنه يريد أن يتزوجني. وهذا ما كنت أحتاجه، كانت أذني ومسام جلدي ممتلئة بكلمات الحب وكانت غددي الدمعية الغدد

تمسكي به، ماذا لو أني سمعت صياغة العبارة بطريقة خطأ، ماذا لو أنه كان يقول: هل تقبلينني لو كنت متزوجا قبل ذلك؟ لو أنني رفضت الفكرة سيقول «إنني لا أحبه»، وأريد الارتباط به لأن ظروفه مناسبة وليس لشخصه أيا كان، سأجيبه بما يحب، الرجال يحبون أن تكون المرأة لطيفة متفهمة، تأخذهم على علاتهم، لقد استفدت من تجاربي السابقة.

قررت أن أحب هذا الرجل المدعو سامر، أخذت تفاصيله تنغرس في روحي كأشجار خيزران عتيقة، كأشجار كافور تشعبت جذورها وتماسكت في باطن تربة غرينية، طوله الفاره كأشجار النخيل الملكي السامقة الواصلة لقرص الشمس، شعره الحليق المكتمل، وجهه المنحوت كملك فرعوني، لونه الأبيض في ضربة مناقضة لمفهوم الرجولة الضاربة للسمرة.

حين يتحدث -وهو لم يكن بليغا- توجد تهتهة خفيفة أو لجلجة في كلماته، لكن ما أن يفتح فمه وأرى أسنانه حتى تصم حواسي بريقها، دائما يرتدي بنطلون «جباردين» فاتحا وعليه قميص، النسخة الأكثر شبها لممثلي المفضل «كيفن كوستنر».

حفرته في قلبي، وبطلبه الصريح الزواج مني أزاح من قلبي كل من دخلوه، وفي الليلة التي أعلنت موافقتي، غسلت قلبي من آلامه وأفراحه وأحزانه وأفرغته من كل شيء كي يستقبله.

لم يقل لي إنه يحبني، قال إنه يريد أن يتزوجني. وهذا ما كنت أحتاجه، كانت أذني ومسام جلدي ممتلئة بكلمات الحب وكانت غددي الدمعية الغدد الأكثر استخداما في جسدي؛ هي التي تلتهب وأنا أمحو هذه الكلمات من ذاكرتي بعدما يفر قائلها ولا يعود، ولا يرد على اتصالاتي.

لم تتجاوز علاقتنا إطار التعارف، كل ما كنت أحتاجه.. القبول. لديّ هنات لكن حبيبك يبلع لك الزلط، لا مجال للاستحسان والدعم والمدح والتشجيع، كل ما كان يقدمه مباغت، سريع، لحظي.

بمجرد أن أغلق الباب علينا ودخلنا شقتنا صرت ممتنة له، كأنه إله أنقذني.

كيف استطاع أن يتم الخطوبة!! وأن تنتقل الدبلة من يدي اليمنى إلى اليسرى؟ كان لديّ استعداد أن أفعل أي شيء من أجله كمنبوذ اهتم به إنسان، كاليتيم الذي يمسح أحدهم على شعره، تكوّن لديّ إحساس بأنه شخص مختلف، وأنه قد رآني؛ رأى طيبتي وحناني، وعرف أنني بنت أو ست جدعة، كنت على استعداد أن أفعل أي شيء من أجله.. كنت أنظر له بطرف عيني ونحن في السيارة أدعو الله أن تتم الليلة وألا يحدث شيء.. أي شيء.. كل ما يمكن أن يحدث من كوارث تصورتها.

طوال وقت الفرح، كنت مسحورة، وكل صور زفافي أبدو فيها شاردة ذاهلة، خائفة أن تغرق المركب، أن تنكسر ساقه ونحن نرقص.. أن يصطدم سائق سيارة الزفة بشخص، بدأت المخاوف مع ذهابي لكوافير مدام جوسيانا في المعادي القريب من فيلتهم، أعجبني لونها الأبيض بإطار أزرق غامق يغطي النوافذ، الشرفات، أحببت الحديقة الصغيرة التي تحيط بها، عدا الجهة التي تشغلها واجهة سوبر ماركت مترو، شعرت براحة كبيرة انحلت اللعنة، وعرف الفرح طريقه لقلبي، لم يستمر اطمئناني أكثر من مدة ابتسامتي، فجأة انقبض وجهي وبدأ جفن عيني اليمنى يختلج، لكن سامر تغلب على كل أوهامي، ووجدتني معه في البيت، وتمنيت أن أقضي شيخوختي في ظل شجرة البونسيانا التي تمتد فروعها لشرفة الغرفة التي اخترتها لنومنا.

وجاء شريف، نسخة منه؛ مطالبه التي لا تنتهي، سخطه الدائم، طموحه، سيطرته، جوعه الأبدي.

وجاءت أروى نسخة مني؛ جمالها، هدوؤها، التعبيرات نفسها التي كانت تقال عني: رومية، تعالي يا قطة، كل يوم تزداد ملامحها اقترابا مني ويكبر التصاقها بي.

أتصل بأروى: مسيو رومان حدد ميعاد بروفة الفستان النهائية، النهاردة الساعة 4.

لا أعرف هل أحزن أم أتباهى برأيه عندما رآني للمرة الأولى..

- مدام، حضرتك تستحقين جسدًا أجمل.

- ماذا تقول؟!

- تقسيمة جسمك حلوة، لكن الامتلاء يعطيك سنًا أكبر من سنك، أنا أعرف دكتور تخسيس ممتازًا.

لمسات رومان، العفوية والمتواطئة، تثير سخريتي أكثر من زهوي.

يا رومان.. أنت لا تعرف ما الذي يفعله الشعور الدائم بالعجز، أو السيطرة على النفس، الخوف والقلق من العيون المترصدة، لا آكل إلا قليلا أمامهم، وبعيدا عن العيون ألتهم كل ما يقع تحت يدي، أقوم من النوم، مسحورة ألتهم كل ما يقع تحت يدي من أكل وأذهب للنوم؛ مضغوطة عصبيا، مجهدة، ينساب الكورتيزون من كل خلاياي.. يفتح بوابات الشهية التي لا تسد. بالطعام أدلل نفسي، أحتضنها كوليدي، أعوض نفسي عن غياب طفلي. زاد وزني خلال عامين ثلاثين كيلو.. حتى لم أعد أعرفني.. لا يزداد وزنك وتصبح بدينا دفعة واحدة، رويدا رويدا، تتجمع الدهون قطرة، قطرة.. تمتلئ خلية دهنية، واحدة خلف الأخرى، تتمدد تنتفخ، لا تكف عن طلب المزيد، خلايا شرهة خائفة، واجفة مرتجفة، تخاف الفقر، العوز، الحرمان، لا ترتاح، لا تستقر، تتحور، تفتقد خلاياي كل الأحضان التي لم أحصل عليها، تسترجع كل الصرخات الموجهة لوجهي، كل الصفعات،

لا أعرف هل أحزن أم أتباهى برأيه عندما رآني للمرة الأولى..

- مدام، حضرتك تستحقين جسدًا أجمل.

- ماذا تقول؟!

- تقسيمة جسمك حلوة، لكن الامتلاء يعطيك سنًا أكبر من سنك، أنا أعرف دكتور تخسيس ممتازًا.

لمسات رومان، العفوية والمتواطئة، تثير سخريتي أكثر من زهوي.

يا رومان.. أنت لا تعرف ما الذي يفعله الشعور الدائم بالعجز، أو السيطرة على النفس، الخوف والقلق من العيون المترصدة، لا آكل إلا قليلا أمامهم، وبعيدا عن العيون ألتهم كل ما يقع تحت يدي، أقوم من النوم، مسحورة ألتهم كل ما يقع تحت يدي من أكل وأذهب للنوم؛ مضغوطة عصبيا، مجهدة، ينساب الكورتيزون من كل خلاياي.. يفتح بوابات الشهية التي لا تسد. بالطعام أدلل نفسي، أحتضنها كوليدي، أعوض نفسي عن غياب طفلي. زاد وزني خلال عامين ثلاثين كيلو.. حتى لم أعد أعرفني.. لا يزداد وزنك وتصبح بدينا دفعة واحدة، رويدا رويدا، تتجمع الدهون قطرة، قطرة.. تمتلئ خلية دهنية، واحدة خلف الأخرى، تتمدد تنتفخ، لا تكف عن طلب المزيد، خلايا شرهة خائفة، واجفة مرتجفة، تخاف الفقر، العوز، الحرمان، لا ترتاح، لا تستقر، تتحور، تفتقد خلاياي كل الأحضان التي لم أحصل عليها، تسترجع كل الصرخات الموجهة لوجهي، كل الصفعات، فتتلوى وتعوي ولا يسكتها سوى المزيد من الدهن السائل، أردد: ستكون هذه اللقمة الأخيرة، لكن ما هو سائل يتصلب ويذهب للمخازن الدفينة ويبقى الفراغ، والسنوات العجاف، ولا تأتي سنوات الرخاء أبدا.

يشعر البدين أنه يشغل أكثر من الحيز المسموح به، أنه يستولي على مساحات الآخرين، فيشعر بالخجل منهم، هو متهم بالشره، أنه يأكل ما لا يأكله الآخرون، النظرة المخجلة، «خد الساندوتش ده»، ينظر الآخرون له على أنه لا يشبع، وأنه يستطيع أن يبتلع العالم في بطنه، يستطيع أن يبتلع بقاياهم وحتى فضلاتهم، وأن يبتلع سخافتهم، سماجتهم، إهانتهم، حتى بصاقهم، والأدهى أنهم يعتقدون أن معدة البدين تهضم كل هذا وتمتصه أمعاؤه، ويتوقعون فضلات من خفة الدم، والنكت، واللطافة والحنان والتسامح والتفاهم دون أصوات التجشؤ ورائحة الفثاء.

بالصدفة رأيت الدكتور «إبراهيم الفقي» على قناة «إيه آر تي» يسخر من البدناء، وأن ثنيات أجسادهم يمكنها أن تخبئ أي شيء، حتى الفيل، أغلقت القناة بسرعة قبل أن ينتبه أحد لهذا القول، ولكن وبينما أستحم، غابت الصابونة عن نظري فارتعبت، تعودت أن أستخدم الشور جل، لكني اشتريت صابونة لمجرد أن أختبر إن كانت ستختفي أم لا، ربما كان مبالغا وربما لم أصل لهذه الحالة، لكن الأكيد أن ثنيات جلدي تستوعب جزءا من الصابونة وأن الرعب قد ملأني، وأني ظللت أبكي حتى غطت ملوحة دموعي على الماء الساقط من الدش.

أخذت أبتعد عن المرايات، ألتحف ما أجده من ملابس، يحدث التغيير من عيد لعيد، في بدايات الصيف وبدايات الشتاء، أشعر بالتمرد للحظات عندما ألمس ترهلات الجلد الزائد عن حدود الجيبة الجديدة في البروفة بمحل الملابس، لن ألوم الجسد وخلاياه، سألوم السوستة وصناعة الملابس و.. الدورة الشهرية التي تنفخ أجسادنا، وستسعفني البائعة بمقاس 46، 50، 56، ولا يعود هناك تراجع أو استسلام.

لن أوافق على زواج أروى، لا أريد أن أخسر صداقة يولند وكسر خاطر طنط بولين، لكن ابنتي عنيدة، تمتلئ عيناها معظم الوقت بالسخط والغضب، لا أستطيع أن أرصد متى تحولت النظرات الوديعة إلى هذه النظرات الجافة القاسية.

أنا المسئولة عن كل ما يحدث لي ولابنتي، سواء بالرعاية أو بالإهمال، كل ما أفعله يأتي بنتيجة غير مرضية.

لم أتوقع حين اخترت مدام يولند كي تحسن من مستوى أروى في اللغة الفرنسية، أن تتطور الأمور لتصل لأن يتقدم فادي ابنها لخطبة أروى، سأخسر صديقتي ولن أكسب حماة لابنتي.

تعرفت عليها في المركز الثقافي الفرنسي، وطلبت منها أن تساعد أروى في تأسيس لغتها الفرنسية، وتعدها لدخول مدرسة الميرديديو التي تبعد دقائق قليلة عن فيلا والدي، فوافقت أن تجلس معها ساعتين مرة كل أسبوع.

تمتلك يولند وجها طيبا وقلبا حنونا، ورغم انضباطها الشديد تتعامل بحكمة كبيرة في أصعب المواقف، مما جعلها قريبة من أروى، ومنذ رأتها أصبحت مسئولة عنها، ولم تكن تتضايق من أسئلتها الكثيرة، وتقليدها لها ولحركاتها، بل كانت تعتبر هذه القدرة ميزة سهلت عليها نطق الحروف والكلمات بلكنة فرنسية صحيحة، اعتبرتها ابنتها، عوضت لها عدم إنجابها بنتا.

أحيانا كنت أخاف من تقارب يولند وأروى أو ربما أغير لكنها كانت أمينة معها، رغم أن الديانة المسيحية كانت تحيط بها في المدرسة وأقرب صديقاتها، حتى أنني أحيانا ما كانت تفلت مني عبارة: نحن مسيحيون، ديننا يجعل الإيمان بالمسيح جزءا من الإسلام، أنتم من لستم مسلمين.

بتعدد مرات ذهابي مع أروى لبيت يولند في شارع محمد بسيوني في وسط البلد، بدأت تدعوني للصعود معها وانتظارها في صالون بيتها بدلا من انتظارها في السيارة. ذات يوم وأنا أنتظر في الصالة الكبيرة أوزع نظراتي بين الأيقونات وواجهة المتحف المصري الظاهرة من الشرفة الطولية، سمعت صوتا كأنه هديل حمام:

صديقتي ولن أكسب حماة لابنتي.

تعرفت عليها في المركز الثقافي الفرنسي، وطلبت منها أن تساعد أروى في تأسيس لغتها الفرنسية، وتعدها لدخول مدرسة الميرديديو التي تبعد دقائق قليلة عن فيلا والدي، فوافقت أن تجلس معها ساعتين مرة كل أسبوع.

تمتلك يولند وجها طيبا وقلبا حنونا، ورغم انضباطها الشديد تتعامل بحكمة كبيرة في أصعب المواقف، مما جعلها قريبة من أروى، ومنذ رأتها أصبحت مسئولة عنها، ولم تكن تتضايق من أسئلتها الكثيرة، وتقليدها لها ولحركاتها، بل كانت تعتبر هذه القدرة ميزة سهلت عليها نطق الحروف والكلمات بلكنة فرنسية صحيحة، اعتبرتها ابنتها، عوضت لها عدم إنجابها بنتا.

أحيانا كنت أخاف من تقارب يولند وأروى أو ربما أغير لكنها كانت أمينة معها، رغم أن الديانة المسيحية كانت تحيط بها في المدرسة وأقرب صديقاتها، حتى أنني أحيانا ما كانت تفلت مني عبارة: نحن مسيحيون، ديننا يجعل الإيمان بالمسيح جزءا من الإسلام، أنتم من لستم مسلمين.

بتعدد مرات ذهابي مع أروى لبيت يولند في شارع محمد بسيوني في وسط البلد، بدأت تدعوني للصعود معها وانتظارها في صالون بيتها بدلا من انتظارها في السيارة. ذات يوم وأنا أنتظر في الصالة الكبيرة أوزع نظراتي بين الأيقونات وواجهة المتحف المصري الظاهرة من الشرفة الطولية، سمعت صوتا كأنه هديل حمام:

- صباح الخير.

سحرني صوتها وغمرتني رقتها.

قمت للترحيب بها، فهمت أنها والدة يولند، سلمت عليها، ووجدتني أحضنها وهي أيضا حضنتني وربتت على ظهري كأننا نعرف بعضنا البعض منذ دهر، قلت لها:

- حضرتك لن تصدقي، كأني أعرفك من سنين.

- أنا أيضًا درست في مدرسة الميرديديو وكنت مكرسة.

توثقت العلاقة بين العائلتين، مع الشراكة التي بنتها عمتي هند مع الدكتور أسعد والد فادي، بفتح مركز للتركيبات والوصفات التجميلية، وتطور المشروع خلال عشر سنوات ليتحول المعمل إلى مصنع لإنتاج المنتجات التجميلية الطبيعية.

لن أوافق على هذا الزواج.. أردد بصوت عال، سأقف في وجه أروى خوفا عليها.. أنا أمها، وسأساند يولند الأم، ترسل لي: «سأصير مطرودة من ملكوت السماء، من تنجب خرافا ضالة كأنها الحية تغوي آدم فيسقط ويسقط معه فردوسي ونعيمي»، ومن فعل بي هذا؟ وحيدي الذي ادخرته لأبديتي.. فكيف لم يحفظ لي أيامي؟ وأنزل قلبي في الغم وأقام روحي في الحزن؟ كنت أنتظر النعمة أو البركة فطاردتني اللعنة، نذرته وهو في بطني راهبا، وطافت روحي حول كل القديسين، من منهم أغضبته؟ أي نذر لم أوف؟ لأدخل التيه مع شيبتي، يا الله، أي خسارة، صحيح أن «اَلابْنُ لاَ يَحْمِلُ مِنْ إِثْمِ الأَبِ، وَالأَبُ لاَ يَحْمِلُ مِنْ إِثْمِ الابْنِ. بِرُّ الْبَارِّ عَلَيْهِ يَكُونُ، وَشَرُّ الشِّرِّيرِ عَلَيْهِ يَكُونُ»، لكن الشر حين يخرج من أحشائنا نشك في هذه الأحشاء وفي أنفسنا.

بحق صداقتنا، بحق أمانتي مع ابنتك، لا توافقي على هذا الزواج، هذه خطيئة وشر، خطيئة حملتها في أحشائي وأرضعتها سنواتي وتعبي، كل الصلوات والهمسات والتراتيل، كل الأشياء كانت من أجله، فجاءني الحزن من حيث انتظرت الفرح، صعب أن تدفن أم ابنا.. وأنا أدفن ابني مرتين.

تمسكت برأيي، وتمركزت حول كل أفكاري وحقي كأم.. لكنها حين دخلت غرفتي وقبلت خدي وهمست: ماما علشان خاطري توافقي.

استسلمت لها، بمجرد أن لمست شفاهما خدي وطوقت يداها عنقي حتى أعادتني لأمومتي.. تماما كما جعلت الحياة تسري في عروقي.. حين لمست صدري. في يومي الثالث بعد ولادتها والأول لرجوعي البيت، بدأ سامر في سخافاته وشجاره الذي لا ينتهي، بينما يتداخل صوته هائجًا في خارج الغرفة، بدأ الخوف والرعب بآلية التعود يرتادني، في هذه اللحظة كانت أروى ترضع، حلمة ثديي في فمها، لمست أروى ثديي بيدها الصغيرة، ارتجفت، ذهب الرعب، أمسكت يدها الصغيرة، مسدتها، أخذت أحركها، أهدهد بها على ثديي، لم أعد وحدي؛ ذهب الخوف، أصبحت لا أسمع سوى هدير جهاز التكييف، كل شيء لا يعنيني، ولا يفسره عقلي فيبعث فيّ الخوف أو الحزن، صرت في الجنة، هدهدتها الصغيرة تواسيني، هي معي، يد على درب السلام تقودني، أخذت دموعي تنسال.. أبكي امتنانا لليد الصغيرة، أدعو لها بالستر والبقاء، كشحاذ، مطرود منبوذ، آواه أحدهم إلى ظل ظليل، دموع فرح، امتنان، بهجة، دموع جعلتني أطفو، أطير، دموع سحرية شافية سقطت على الضفدع القبيح حولته إلى أمير وسيم، جبيرة ضمت كسوري، بلسم طيّب جراحي، أدندن أمام المرآة وأنا أسرح شعري.. «مالي وأنا مالي وأنا مالي عايشة في أحلى أماني ويّا حبيبي الغالي»، وعيناي ترمقان الصغيرة بمحبة وامتنان، وافتنان.

كلما رفعتها كي أرضعها تدعو روحي للطبيب، الذي ساعدني ومنحني نصف أمومتي بل أمومتي كلها. عندما استطعت أن أرضع أروى بينما عجزت عن إرضاع شريف.

تمسكت برأيي، وتمرمرت حول كل أفكاري وحتى كلام.. لكنها حين لمست طرفي وثبت خدي وتمسكت. لماذا تمسكن خاطري تواقعي.

استسلمت لها، بمجرد أن لمست شفاهما خدي وطوقت يداها عنقي حتى أعادتني لأمومتي.. تماما كما جعلت الحياة تسري في عروقي.. حين لمست صدري. في يومي الثالث بعد ولادتها والأول لرجوعي البيت، بدأ سامر في سخافاته وشجاره الذي لا ينتهي، بينما يتداخل صوته هائجًا في خارج الغرفة، بدأ الخوف والرعب بآلية التعود يرتادني، في هذه اللحظة كانت أروى ترضع، حلمة ثديي في فمها، لمست أروى ثديي بيدها الصغيرة، ارتجفت، ذهب الرعب، أمسكت يدها الصغيرة، مسدتها، أخذت أحركها، أهدهد بها على ثديي، لم أعد وحدي؛ ذهب الخوف، أصبحت لا أسمع سوى هدير جهاز التكييف، كل شيء لا يعنيني، ولا يفسره عقلي فيبعث فيّ الخوف أو الحزن، صرت في الجنة، هدهدتها الصغيرة تواسيني، هي معي، يد على درب السلام تقودني، أخذت دموعي تتسال.. أبكي امتنانا لليد الصغيرة، أدعو لها بالستر والبقاء، كشحاذ، مطرود منبوذ، آواه أحدهم إلى ظل ظليل، دموع فرح، امتنان، بهجة، دموع جعلتني أطفو، أطير، دموع سحرية شافية سقطت على الضفدع القبيح حولته إلى أمير وسيم، جبيرة ضمت كسوري، بلسم طيّب جراحي، أدندن أمام المرآة وأنا أسرح شعري.. «مالي وأنا مالي وأنا مالي عايشة في أحلى أماني ويّا حبيبي الغالي»، وعيناي ترمقان الصغيرة بمحبة وامتنان، وافتنان.

كلما رفعتها كي أرضعها تدعو روحي للطبيب، الذي ساعدني ومنحني نصف أمومتي بل أمومتي كلها. عندما استطعت أن أرضع أروى بينما عجزت عن إرضاع شريف.

وأمام إصرارها على الزواج من فادي لم أستطع إلا أن أمنحها موافقتي المترددة، بمثل هذه الظروف، وللمرة الأخيرة نصحتها وأظهرت لها العواقب، لكنها لم تستمع لي، وقد تعلمت من الحياة أن لا أحد يتغير وأن كل شخص في هذه العائلة سيأخذ نصيبه من اللعنة كاملا، دون زيادة أو نقصان لعنة التمرد أو الخضوع، الغريب أن أبي رفض الموضوع في البداية، ثم أصبح متحمسا لهذه الزيجة، رغم تعقيداتها!

لماذا يبارك هذا الزواج، ويهتم بمحاولة إقناع بولين جدة فادي؟ ما السر الذي يخفيه خلف اهتمامه بإتمام الفرح؟

هذه العائلة كل من فيها عانى إما من تمرده وعصيانه وثورته وغضبه وإما من خضوعه وخنوعه واستسلامه، عائلة أفرادها لا يعرفون الاعتدال، على طرفي النقيض يقفون، وكل يدفع الثمن ولا فائدة من النصائح سوى مزيد من التوتر والعناد، هذه العائلة تخاف من الفشل، تهرب منه، لكنه الفخ الذي يقع فيه كل أفرادها.

يسري صالح

- بابا، تليفونك فصل شحن.

تنبهني سلوى، الحقيقة أنني هذه الأيام لم أعد أهتم بالتليفون أو شحنه، لا شيء أنتظره، وكل ما حدث وما سيحدث نتيجة، والأسباب تم زرعها منذ سنوات، في السر أو العلن، لا شيء أنتظره، وما أنتظره لا يتصل قبل أن يأتي.

تقنعني بالخروج، الذهاب إلى المكتب، النادي، أو حتى التمشية..

- أتمنى أن تزور أروى وتطمئن عليها.

منذ انتقلت أروى لشقتها، وأنا أشعر بقلق عليها، حتى اتصالاتها صارت محسوبة، كلماتها باردة، تائهة، خفت حدة الغضب، لكنها فقدت روح التلقائية والعفوية، كأنها تفكر فيما تقول قبل أن تنطق به، يدور الكلام في ذهنها قبل أن يمر بحنجرتها.. هذا الشعور يتنامى حتى أنني صرت أتفادى الحديث معها، لعل رسالتي تصل إليها، فأروى ليست حفيدتي فحسب.. هي ابنتي التي أتاح لي الوقت أنا أتابع نموها وتربيتها، في حين ضاعت مني هذه الفرصة مع أمها سلوى.

أ[illegible]

- بابا، تليفونك فصل شحن.

تنبهني سلوى، الحقيقة أنني هذه الأيام لم أعد أهتم بالتليفون أو شحنه، لا شيء أنتظره، وكل ما حدث وما سيحدث نتيجة، والأسباب تم زرعها منذ سنوات، في السر أو العلن، لا شيء أنتظره، وما أنتظره لا يتصل قبل أن يأتي.

تقنعني بالخروج، الذهاب إلى المكتب، النادي، أو حتى التمشية..

- أتمنى أن تزور أروى وتطمئن عليها.

منذ انتقلت أروى لشقتها، وأنا أشعر بقلق عليها، حتى اتصالاتها صارت محسوبة، كلماتها باردة، تائهة، خفت حدة الغضب، لكنها فقدت روح التلقائية والعفوية، كأنها تفكر فيما تقول قبل أن تنطق به، يدور الكلام في ذهنها قبل أن يمر بحنجرتها.. هذا الشعور يتنامى حتى أنني صرت أتفادى الحديث معها، لعل رسالتي تصل إليها، فأروى ليست حفيدتي فحسب.. هي ابنتي التي أتاح لي الوقت أنا أتابع نموها وتربيتها، في حين ضاعت مني هذه الفرصة مع أمها سلوى.

أستطيع أن أدعي أنني أحفظها عن ظهر قلب وأستطيع التنبؤ بتصرفاتها وتخيل كل ردود أفعالها، وماذا ستفعل عندما تقع في ورطة، ودائما أنا على استعداد لحمايتها والتغاضي عن أخطائها المتكررة.. تعود بالسيارة الجديدة وهي تبكي وتقول: «جدو! الفانوس والإكصدام.. الله يرحمهم».

- ماذا حدث؟

- يا جدو، سواقين بهائم.

- بهائم! أم أنت الغشيمة؟

تتدخل سلوى: ما هذه الألفاظ؟ عيب.

- يا سلوى البنت لم تقل شيئا، بهائم وصف وليست شتيمة.

- يا بابا، لا يصح الكلام بهذه الطريقة، ثم إنها ما زالت تتعلم القيادة، لماذا تقود سيارة جديدة؟ بالتأكيد خطؤها..

تنظر لي أروى وتختفي خلف كتفي.

- أنا حكيت لجدو كل حاجة..

أهدئ من روع سلوى، وخوفها الزائد على ابنتها، وأحاول أن أتقمص روح الشقية التي تتعثر في تمردها وصخبها وغضبها من العالم، دائما ما كان تعليمها باهظ التكلفة.. وكنت مستعدا بأبوة مفسدة أن أدفع لها تكلفته.. ولكنني الآن أتوجس مما لا أستطيع حمايتها منه، نفسها.

أتابع من مدخل الفيلا حركة الشارع، المارة والسيارات، هي هي نفس الحركة والاندفاعة لم يغيرها قيام ثورة، وثورة ثانية لإصلاح توابع الثورة الأولى، لا تبطئ السيارات حركاتها أو تحاول تقليل استهلاكها للوقود، وكأن تعويم الجنيه الذي حدث أول هذا الشهر أثّر فقط على أصحاب الأرصدة البنكية بالعملة المحلية، كل المجادلات والمساجلات على الشاشة وتأثير تعويم الجنيه على الشاشات، في حوار المذيعين والضيوف. بينما تزداد الحركة سرعة وكثافة السيارات تتسارع والأرصفة الجانبية تتآكل لصالح المجرى الرئيسي وكي يستوعب الشارع مزيدا من السيارات، لم تعد التمشية في المنيل آمنة بعد خطة التطوير التي أكلت الجزيرة الوسطى لشارع المنيل والتهمت نصف متر من كل رصيف.

الحي الهادئ يفقد الكثير من روحه وسكينته، ومع تمركز المستشفيات به، أسأل أيهما يغلب الشفاء أم المرض؟ الحياة أم الموت؟

عندما أخبرت نجاة قبل زواجنا أن فيلتنا قريبة من قصر العيني، فرحت واعتبرت أننا في محيط بركة وحياة، وأن المكان به طاقة شافية قادرة على تجديد حياة من يعيش به، وأن هذه الجزيرة محمية بأرواح من يتلقون العلاج بها، المحاولة من الإنسان والشفاء من الله.

ظللت أؤمن بمقولة نجاة حتى بدأ الإخوان في الاعتصام في ميدان النهضة على بعد أربعمائة متر من الأرض الشافية، وتحولت الجزيرة التي تربط كباريها بين القاهرة والجيزة إلى موقع استراتيجي، معبر يحاول الإخوان القادمون من الجيزة المرور من خلاله للوصول إلى التحرير لضرب المؤيدين لثورة 30 يونيو، وفي ليلة جمعة تمكن الإخوان من عبور كوبري الجامعة والصعود لمئذنة مسجد صلاح الدين وإطلاق الأعيرة النارية على الشباب الذين تصدوا لهم لمنعهم من المرور بشارع السرايا كي يكملوا طريقهم لشارع قصر العيني والاعتداء على المعتصمين في التحرير.

تلك أطول ليلة مرت بي منذ تركت الخدمة.. تصاعد صوت الأعيرة النارية ومعها انفجر مخ شاب على الرصيف الذي أسير عليه الآن.

وبعض فض الاعتصام تحولت الجزيرة الهادئة كل جمعة إلى ثكنة، بدءا من إغلاق كوبري الجامعة قبل الثانية ظهرا ويكون على الراغب في العبور للجزيرة التوجه إلى كوبري عباس، حيث تتمركز وحدات من الجيش مع نهاية الكوبري في تقاطع شارع عبد العزيز آل سعود مع شارع القلعة، وبعد أمتار قليلة يتجمع شباب ورجال الحي وبينهم رجال من الأمن الوطني في انتظار ظهور أي تجمع للإخوان

الحي الهادئ يفقد الكثير من روحه وسكينته، ومع تمركز المستشفيات به، أسأل أيهما يغلب الشفاء أم المرض؟ الحياة أم الموت؟

عندما أخبرت نجاة قبل زواجنا أن فيلتنا قريبة من قصر العيني، فرحت واعتبرت أننا في محيط بركة وحياة، وأن المكان به طاقة شافية قادرة على تجديد حياة من يعيش به، وأن هذه الجزيرة محمية بأرواح من يتلقون العلاج بها، المحاولة من الإنسان والشفاء من الله.

ظللت أؤمن بمقولة نجاة حتى بدأ الإخوان في الاعتصام في ميدان النهضة على بعد أربعمائة متر من الأرض الشافية، وتحولت الجزيرة التي تربط كباريها بين القاهرة والجيزة إلى موقع استراتيجي، معبر يحاول الإخوان القادمون من الجيزة المرور من خلاله للوصول إلى التحرير لضرب المؤيدين لثورة 30 يونيو، وفي ليلة جمعة تمكن الإخوان من عبور كوبري الجامعة والصعود لمئذنة مسجد صلاح الدين وإطلاق الأعيرة النارية على الشباب الذين تصدوا لهم لمنعهم من المرور بشارع السرايا كي يكملوا طريقهم لشارع قصر العيني والاعتداء على المعتصمين في التحرير.

تلك أطول ليلة مرت بي منذ تركت الخدمة.. تصاعد صوت الأعيرة النارية ومعها انفجر مخ شاب على الرصيف الذي أسير عليه الآن.

وبعض فض الاعتصام تحولت الجزيرة الهادئة كل جمعة إلى ثكنة، بدءا من إغلاق كوبري الجامعة قبل الثانية ظهرا ويكون على الراغب في العبور للجزيرة التوجه إلى كوبري عباس، حيث تتمركز وحدات من الجيش مع نهاية الكوبري في تقاطع شارع عبد العزيز آل سعود مع شارع القلعة، وبعد أمتار قليلة يتجمع شباب ورجال الحي وبينهم رجال من الأمن الوطني في انتظار ظهور أي تجمع للإخوان.

اقترحت شقيقتي هند أن نعود للمنيا؛ السرايا هناك حصينة وعشرات من الرجال العاملين في أراضينا يحيطون بها، رفضت سلوى وأروى الاقتراح.

وأنا لم أستطع ترك الفيلا، وتضييع السر الذي استأمنني عليه مدير الجهاز، حتى وإن كان محبوسا في السجن الاحتياطي..

شجعني اقتراب الغروب على العودة للتمشية اليومية.. أخذت طريقي المعتاد إلى كوبري الجامعة مررت على بائع الجرايد، عرض عليّ أن أجلس وأختار ما أريد، أقبل بائع الذرة المشوية، حاملا بضاعته وقد بدأ في فرش مكانه ورص كيزان الذرة على الشواية.

سألته: لماذا تأخرت؟ الشمس قاربت على الغروب.

- ابنتي دخلت كلية الطب.

أتذكرها وهي تساعده، فتبيع للزبائن وهو يقلب الذرة ويطمئن على تسويتها، يكمل:

- حصلت على مجموع كبير، لا أستطيع كسر خاطرها، وأخاف أن أقعد بالنهار أحد من زملائها يعرفني.

ليس عليّ أن أستنكر موقف الفتاة، فهناك مواجهات وحقائق تحتاج لشجاعة كبيرة، شجاعة لا نستطيع أن ندفع ثمنها، أو تحمل كلفتها.

هلت الست لواحظ صاحبة كشك المشروبات تحمل في يدها علبة عصير، أضعها بجواري على الكرسي المعدني.

- يا باشا، لا يريدون تجديد التراخيص للكشك.

- أيام وتمر يا حاجة لواحظ.

- البركة فيك، أنت كبيرنا، الناس في الحي لا تنسى وقفتك جنبهم لأجل الشهداء، أنت جبت لهم حقهم.

رد بائع الكتب: لا يوجد ما يعوض الدم.

أجابت: يعني يبقى موت وخراب ديار!

تابعت حديثهما صامتا، وأنا أهز رأسي، فقد تولى مكتبي رفع القضية لصالح الشهداء عند النائب العام ضد بعض أعضاء حزب العدالة، واستكملنا قضية التعويضات، عمل قانوني، إجراء مهني، وربما ثأر شخصي من الإخوان حوله أهالي المنطقة إلى عمل وطني جعلهم يقتربون مني ويحرصون على مشاركتي في مناسباتهم، ولم أستطع أن أرفض دعواتهم وإن حاولت دائما المحافظة على مسافة
لا تجعلني أتورط معهم.

أقسمت الحاجة لواحظ أن أشرب العصير، شعرت برغبة في عدم القيام، كنت متمهلا، وداخلي يدور في مسارات بطيئة، حركة السيارات المارة أمامي متسارعة، محمومة، تريد أن تنجز شيئا، أن تنهي أمرًا، تريد أن تعود للاستقرار والثبات، للسكون على كنبة، كرسي، سرير أن تتحول من طاقة حركية إلى طاقة وضعية، كامنة في ذاتها، يعود الإحساس بالأمان ما أن تغلق عليك باب شقتك، ربما في مدخل العمارة، تتنفس بعضًا من الراحة.

أن تكون حارسا حاميا لجزء من وطنك يعني أن تؤوي كل الغرباء وتساعدهم وتفتح لكل طالبي الدخول والواقفين على بابك.. يعني أن عليك أن تدفع تكلفة عالية وكلفة مضاعفة من وقتك وجهدك ومشاعر وخصوصية وحميمية العلاقة بينك وبين أقرب الناس إليك وفي لحظة ما عند مفترق طرق، عند اتخاذ قرار تأييد أو رفض، سيبتعد عنك الغرباء.. ويتهمونك بما ليسوا فيك وسيفسرون كل ما قمت به من محبة واحتواء تفسيرا ليس خاطئا فحسب ولكن مؤامرتيا، وسيستغلون كل ثغرات حياتك، كل نوافذك، جلدك الذي عريته أمامهم، ولن تستطيع أن تكسب ابنة خنت ثقتها وتخليت عنها في أدق

تابعت حديثهما صامتا، وانا اهز راسي، فقد تولى مكتبي رفع القضية لصالح الشهداء عند النائب العام ضد بعض اعضاء حزب العدالة، واستكملنا قضية التعويضات، عمل قانوني، إجراء مهني، وربما ثأر شخصي من الإخوان حوله أهالي المنطقة إلى عمل وطني جعلهم يقتربون مني ويحرصون على مشاركتي في مناسباتهم، ولم أستطع أن أرفض دعواتهم وإن حاولت دائما المحافظة على مسافة
لا تجعلني أتورط معهم.

أقسمت الحاجة لواحظ أن أشرب العصير، شعرت برغبة في عدم القيام، كنت متمهلا، وداخلي يدور في مسارات بطيئة، حركة السيارات المارة أمامي متسارعة، محمومة، تريد أن تنجز شيئا، أن تنهي أمرًا، تريد أن تعود للاستقرار والثبات، للسكون على كنبة، كرسي، سرير أن تتحول من طاقة حركية إلى طاقة وضعية، كامنة في ذاتها، يعود الإحساس بالأمان ما أن تغلق عليك باب شقتك، ربما في مدخل العمارة، تتنفس بعضًا من الراحة.

أن تكون حارسا حاميا لجزء من وطنك يعني أن تؤوي كل الغرباء وتساعدهم وتفتح لكل طالبي الدخول والواقفين على بابك.. يعني أن عليك أن تدفع تكلفة عالية وكلفة مضاعفة من وقتك وجهدك ومشاعر وخصوصية وحميمية العلاقة بينك وبين أقرب الناس إليك وفي لحظة ما عند مفترق طرق، عند اتخاذ قرار تأييد أو رفض، سيبتعد عنك الغرباء.. ويتهمونك بما ليسوا فيك وسيفسرون كل ما قمت به من محبة واحتواء تفسيرا ليس خاطئا فحسب ولكن مؤامرتيا، وسيستغلون كل ثغرات حياتك، كل نوافذك، جلدك الذي عريته أمامهم، ولن تستطيع أن تكسب ابنة خنت ثقتها وتخليت عنها في أدق لحظات حياتها بالتجاهل، بالتعامي.. لم تؤازرها كما ينبغي، وحتى هذه اللحظة لا تستطيع أن تقدم لها نصيحة نافعة.. لم يكن استغلال زوجها لمرتبها حدثا. شيء ما تغير في شخصية الرجال، تلك النخوة، إهمال الرجل دوره في الإنفاق على بيته كان مرتبطا بفئات متدنية، فئات لا تحكمها منظومة قيمية، بشر كانوا بعيدين عنا، لا مجال لتعامل محترم معهم، لكن هذه الموجة بدأت تسري في كل المجتمع، هو يريد زوجة عاملة يحصل على مرتبها، التعبير المهذب تساهم بمرتبها في البيت في الوقت نفسه لا يتحمل أي عبء من أعبائها، تربية الأطفال، الذهاب بهم للنادي، ما جعل سلوى تصمت أن زوجها لم يكن يضيع وقته في النادي أو على المقهى بل كان في العمل طوال الوقت، لكنها لم تكن تعرف عن أرباحه وحساباته في البنك. دائما يدعي الخسارة.

والده أيضا رجل غريب.. يسير سريعا كأنه قطار، رغم سنوات عمره السبعين، دائما في عجلة من أمره، يريد أن يلحق شيئا.. حدث تعارفنا قبل حدوث النسب بسنوات، جاء ليحصل على الإيجار الشهري الذي يجمعه مكتبي من المستأجرين لعمارته، في العادة يتسلم المبلغ من السكرتارية، وينصرف دون أن أراه، لكنه ذلك اليوم طلب مقابلتي، عرض عليّ أن يقوم مكتبي بإجراءات الحصول على ترخيص لتعلية إحدى عماراته دورين، وأن يتولى المكتب متابعة الإنشاءات، لم يكن وقتها للشركة علاقة بالإنشاءات الهندسية، وكنت أجهز للسفر للحج، فطلبت منه تأجيل الأمر لحين عودتي، وسألته على سبيل التباسط، إذا سبق له الحج أو العمرة؟ فهز رأسه وأجاب بما أدهشني: لا، قلبي جامد من هذه الناحية.

بعد الحج، وبناء على عقد تأسيس المكتب، وجدت أنه يحق لنا تقديم أنواع متعددة من الاستشارات ما عدا استشارات مالية دقيقة خاصة بالبورصة وليست الاستشارات القانونية فحسب، فعينت مهندسا استشاريا وأصبحنا نقدم المشورة القانونية والهندسية لعملاء المكتب ونرشدهم للمكاتب الهندسية المناسبة لتنفيذ مشروعاتهم، تطور الأمر مع المهندس «كريم» وأصبح هناك مكتب هندسي تراخيصه باسمه ولكن إدارته وملكيته لي، تفرعت أنشطة المكتب القانوني وأصبح مؤسسة استشارية، بيت خبرة يقدم الاستشارات القانونية والهندسية والمالية.

يخرج كلب من حديقة إلهامي باشا التي تتوسط الميدان، يليه اثنان، ثلاثة، تتسكع جميعها في أول الشارع، تصنع مستعمرة جديدة تجمعات ثلاثية، رباعية، كلاب بلدية، لم تكن تظهر في الأوقات العادية.

سقطت لافتة الحديقة التي تحمل اسم إلهامي باشا زوج الأميرة شويكار ولم يقم أحد بإعادة تعليقها، وتحولت الحديقة الجميلة إلى مأوى للكلاب الضالة والمتسكعين والمشردين الذين يتخذون الحديقة مأوى فيتجمعون حول سورها قبل الغروب.

تتآلف الكلاب مع من لا مأوى لهم فلا يثير نباح الكلاب سوى متشرد جديد، لا يعرف قواعد المناطق الخاصة ولم ينشر رائحته على منطقة يتخذها محمية، في أسفل شجرة أو شجيرة، أو بجوار السور الذي انبعجت قوائمه الحديدية في أكثر من موضع، على الوافد الجديد أن يدفع ثمن جهله، وهو ليس ثمنا غاليا، الكلاب لديها ألفة لكل غريب، هي فقط تخبره بنفوذها ووجوب أن تترك بصمتها عليه؛ زيادة في تمزيق جلبابه المهترئ، العفن، عضة تخترق طبقات العفن والطفيليات حتى تصل إلى جلده ثم تصطدم بعظامه فترتد وقد أدركت أنه رفيق.

المشردون القدامى يستوطنون أسفل الأشجار الضخمة العتيقة، حيث ندفن قططنا وكلابنا، ما من طفل من أطفال العمارات المحيطة بالحديقة إلا وله قطة أو كلب مدفون في علبة كارتون؛ مشهد جنائزي لا أنسى تفاصيله، المشهد الجنائزي يتكون عادة من الطفل الباكي، الحزين وبواب العمارة أو السائق، أو سايس الجراج وهو يحمل جاروفا بيد وباليد الأخرى صندوقا كرتونيا ملفوفا بورق كوريشة بنفسجي غامق أو أحمر. في الغالب لا يدخل الطفل الحديقة، يكتفي بتوجيه التعليمات لمن يحفر بأن يحفر أكثر وأكثر، حتى يقنعه الرجل الذي يسخر في سره من الأطفال الذين يذهبون بقططهم وكلابهم للبيطري أكثر مما يذهب هو بأطفاله للطبيب، والتي تأكل قططها «دراي فوود» وتقضي حاجتها في رمل معطر. وقد يصدف أن ينزل أحد الأولاد من أتوبيس المدرسة فيعبر الشارع ذا الاتجاه الواحد ويقف على سور الحديقة، يتذكر لولو أو ريكي، ما يسمح له والداه بتربيته من قطط أو

والمتسكعين والمشردين الذين يتخذون الحديقة مأوى فيتجمعون حول سورها قبل الغروب.

تتآلف الكلاب مع من لا مأوى لهم فلا يثير نباح الكلاب سوى متشرد جديد، لا يعرف قواعد المناطق الخاصة ولم ينشر رائحته على منطقة يتخذها محمية، في أسفل شجرة أو شجيرة، أو بجوار السور الذي انبعجت قوائمه الحديدية في أكثر من موضع، على الوافد الجديد أن يدفع ثمن جهله، وهو ليس ثمنا غاليا، الكلاب لديها ألفة لكل غريب، هي فقط تخبره بنفوذها ووجوب أن تترك بصمتها عليه؛ زيادة في تمزيق جلبابه المهترئ، العفن، عضة تخترق طبقات العفن والطفيليات حتى تصل إلى جلده ثم تصطدم بعظامه فترتد وقد أدركت أنه رفيق.

المشردون القدامى يستوطنون أسفل الأشجار الضخمة العتيقة، حيث ندفن قططنا وكلابنا، ما من طفل من أطفال العمارات المحيطة بالحديقة إلا وله قطة أو كلب مدفون في علبة كارتون؛ مشهد جنائزي لا أنسى تفاصيله، المشهد الجنائزي يتكون عادة من الطفل الباكي، الحزين وبواب العمارة أو السائق، أو سايس الجراج وهو يحمل جاروفا بيد وباليد الأخرى صندوقا كرتونيا ملفوفا بورق كوريشة بنفسجي غامق أو أحمر. في الغالب لا يدخل الطفل الحديقة، يكتفي بتوجيه التعليمات لمن يحفر بأن يحفر أكثر وأكثر، حتى يقنعه الرجل الذي يسخر في سره من الأطفال الذين يذهبون بقططهم وكلابهم للبيطري أكثر مما يذهب هو بأطفاله للطبيب، والتي تأكل قططها «دراي فوود» وتقضي حاجتها في رمل معطر. وقد يصدف أن ينزل أحد الأولاد من أتوبيس المدرسة فيعبر الشارع ذا الاتجاه الواحد ويقف على سور الحديقة، يتذكر لولو أو ريكي، ما يسمح له والداه بتربيته من قطط أو عصافير أو كلاب.

لا أحد من سكان الحي يتنزه في الحديقة، من يدخلها نعرف أنه غريب، هم في الغالب أهالي أو مصاحبون لمرضى يترددون على العيادة الخارجية للكلية طب الأسنان أو مركز السموم، المصاحبون لمرضى قصر العيني لديهم حديقة القصر القديم كي يلتقطوا أنفاسهم ولديهم حديقة أم كلثوم التي تجاور كلية السياحة والفنادق ونادي مستشاري مجلس الدولة، حيث تنتشر بعض أكشاك لبيع المياه المعدنية والغازية والعصائر وأنواع البسكويت التي تناسب جيوب المطحونين. يجلسون على النجيل، يضربون أخماسا في أسداس، يرزحون تحت وطأة الفقر والمرض.

المرضى الفقراء تصطحبهم أعداد كبيرة من أقاربهم، كلٌ يجامل بما يملك، وليس لديهم سوى الوقت. أو ربما هذه اللمة توحي بتقاسم الألم فتخف وطأته، المرض والوفاة والميلاد حدث مهم لديهم، يأخذون له إجازة واستعدادات، هذه الطقوس أهم من تفاصيل الحياة نفسها.. يتجمعون في مجموعات صغيرة تعرف غربتها من جلبابها الفلاحي أو من العبايات السوداء لنسائها يتجمعون بطول شارع السرايا الذي يمتد من نهاية كوبري الجامعة ومسجد صلاح الدين وشارع عبد العزيز آل سعود ويمتد مارا بشارع المنيل ثم شارع متحف المنيل ثم سور قصر محمد علي أو السرايا التي حمل اسمها حتى يصل لكوبري السرايا الذي يصل المنيل بالقاهرة وعلى استقامته يوجد كوبري السيدة الذي يعبر خط المترو الواصل بين حلوان والمرج.

يجتمعون أمام الكشكين الموجودين بجوار محطة الاتوبيس لطلب مكالمة تليفونية. من مزايا هذين الكشكين توفر خط المحافظات، وعندما ظهرت خطوط التليفون ذات العملة لم تستطع أن تسحب البساط من الكشكين، فقد كانت مالكة الكشكين وهي الحاجة لواحظ تجلس في أحدهما وتجلس ابنتها المطلقة في الكشك الثاني، تطلبان الأرقام المطلوبة من الورقة التي تمدها اليد الجافة المشققة، تكفيهم مؤنة تجميع الخط والرد بـ«ألو» حتى يرد الشخص المطلوب، في الغالب تكون المكالمة للتبليغ بأن المريض اتحجز أو أنه يحتاج نقل دم، ويحتاجون أن يأتي المزيد من الأقارب للتبرع بالدم، ومع اختفاء التليفون الأرضي وبداية ظهور المحمول احتفظت لواحظ وكشكاها بمميزاتهما وأصبحت تسعيرة المحمول بالدقيقة، وبعد أن صار المحمول في كل يد، ولم تعد هناك حاجة لعبارة «ممكن أستخدم الموبايل» انتقلت التجارة في كروت الشحن وتحويل الأرصدة والشحن عن طريق فوري، لم يستغرق الأمر سنوات طويلة حتى أصبحت كل أذن يلتصق بها موبايل، والأصابع تتحرك على الشاشة الـ«تاتش».

كل هذه السنوات لم يتغير شيء في هذه التجمعات المشتركة الصغيرة. في أصواتها العالية وحركت خطواتها العشوائية، المرتبكة في أملها وحيرتها ويأسها، تختفي مع غروب الشمس وانتهاء موعد الزيارة، لكنها تترك آثارها؛ تجمعات من القمامة الرخيصة؛ أكياس الشيبسي وعلب البسكويت أو علب الفويل البيضاء وبقايا طعام موائد الرحمن القريبة من الميدان، أكوام من الأرز والخضراوات المطبوخة، ما كل هذا الاستهلاك الفارغ؟ اختلف معنى الفقر، لم يعد نقص رغيف فقرا، أو الصدقة حبة فاكهة، هناك من يحتاج للتعليم والأدوية، والأهم الإحساس بالنظافة والجمال.

في المساء يعود لشارع السرايا انتماؤه ويعود برصيفيه الواسعين الموازيين لأسوار قصر محمد علي، ساحة ممتدة كجزء من المسيرة اليومية لمن يهون التمشية واللف حول قوس الجزيرة أو من يريدون قطع كوبري الجامعة ذهابا وإيابا.

أحيانا ما تبدو فكرة الراحة والثروة والرفاهية جرحا مضاعفا لجروح الآخرين، فحين أحافظ على انضباطي الدائم ومواعيد تدريب الاسكواش أو الجري في «تراك» النادي، تبدو الأفعال الطبيعية وكأنها إساءة، وجرح لكل المرضى الذين يقعدهم مرضهم عن ممارسة أبسط متطلبات الحياة.

كنت في العاشرة عندما تم وضع حجر الأساس لكوبري الجامعة ليربط بين الجزيرة والجيزة على امتداد شارع النهضة وحرم جامعة القاهرة، وكان الوصول للجيزة قبل كوبري الجامعة يستدعي التحرك جنوبا بطول شارع المنيل ثم الاتجاه غربا لعبور كوبري عباس والمرور بشارع القلعة، ولم يكن الأمر يخلو من فائدة المرور بالجوكي وشراء الأيس كريم بالنكهات الجديدة كالبندق والفواكه المسكرة، الجوكي مفخرة المنيل والمنافس الوحيد لكساتا جروبي والترواه بيتي كوشو.

ويأسها، تختفي مع غروب الشمس وانتهاء موعد الزيارة، لكنها تترك آثارها؛ تجمعات من القمامة الرخيصة؛ أكياس الشيبسي وعلب البسكويت أو علب الفويل البيضاء وبقايا طعام موائد الرحمن القريبة من الميدان، أكوام من الأرز والخضراوات المطبوخة، ما كل هذا الاستهلاك الفارغ؟ اختلف معنى الفقر، لم يعد نقص رغيف فقرا، أو الصدقة حبة فاكهة، هناك من يحتاج للتعليم والأدوية، والأهم الإحساس بالنظافة والجمال.

في المساء يعود لشارع السرايا انتماؤه ويعود برصيفيه الواسعين الموازيين لأسوار قصر محمد علي، ساحة ممتدة كجزء من المسيرة اليومية لمن يهون التمشية واللف حول قوس الجزيرة أو من يريدون قطع كوبري الجامعة ذهابا وإيابا.

أحيانا ما تبدو فكرة الراحة والثروة والرفاهية جرحا مضاعفا لجروح الآخرين، فحين أحافظ على انضباطي الدائم ومواعيد تدريب الاسكواش أو الجري في «تراك» النادي، تبدو الأفعال الطبيعية وكأنها إساءة، وجرح لكل المرضى الذين يقعدهم مرضهم عن ممارسة أبسط متطلبات الحياة.

كنت في العاشرة عندما تم وضع حجر الأساس لكوبري الجامعة ليربط بين الجزيرة والجيزة على امتداد شارع النهضة وحرم جامعة القاهرة، وكان الوصول للجيزة قبل كوبري الجامعة يستدعي التحرك جنوبا بطول شارع المنيل ثم الاتجاه غربا لعبور كوبري عباس والمرور بشارع القلعة، ولم يكن الأمر يخلو من فائدة المرور بالجوكي وشراء الأيس كريم بالنكهات الجديدة كالبندق والفواكه المسكرة، الجوكي مفخرة المنيل والمنافس الوحيد لكساتا جروبي والترواه بيتي كوشو.

عندما عادت سلوى ومعها أروى تجدد الخروج للجوكي بعد تناول الغداء يومي الأحد والجمعة؛ يومي إجازة أروى من مدرسة الميريديو.

ظل كوبري الجامعة منطقة خاصة للمشاة من هواة التمشية أو الجري، فلا ترى على رصيفه سوى بعض من طلبة كليات الطب، تعرفهم من البالطو الأبيض الذي يحملونه بمباهاة على أذرعهم أو أكتافهم، ظل الكوبري خاصا، هادئا، يسمح لعاشقين صغيرين بالوقوف وتأمل النيل وأن يكون شاهدا على أحلام يتحقق بعضها، ويتوه أغلبها.. حتى حدثت ثورة يناير وتحولت الكباري في الصيف إلى بلكونات أو شرفات كبيرة على النيل، بدأت الظاهرة على كوبري أكتوبر، عريس وعروسة يقفان للتصوير على الكوبري وتركن السيارات المصاحبة لهما وتشارك السيارات المارة بالكلاكسات وبعض السيدات بالزغاريد، مجاملة وحبا في المشاركة والفرح.

ثم بدأت عربات متحركة تبيع حمص الشام وبعدها ساندويتشات، ومياه معدنية وعصائر، وعربات للتين الشوكي والفيشار والذرة المشوي وبدأ أصحاب العربات في رص كراسي للزبائن، وصارت الحارة الثالثة أو المجاورة للرصيف مكان لركنة السيارات في الاتجاهين، وأصبحت عائلات تجلس على النيل وتتمتع بنسمات مقابل جنيهات قليلة، فسحة أسبوعية أو يومية، لم يقتصر الأمر على أصحاب السيارات، عائلات متوسطة الحال تأتي من المناطق المكتظة. من بعيد أراقب هذه التجمعات، الخروج من أماكن مغلقة للهواء المفتوح سيحدث أمرا ما، تغييرا لم أكن أتوقعه، أو أتنبأ به، لم يكن لديّ معلومات واضحة، ومن ثم لم أستطع بلورة فكرة محددة، كنت في حاجة للمزيد من المعلومات، ولم أستطع الاستغناء عن جمع المعلومات.. بعد خروجي للمعاش، وفتحي لمكتب المحاماة، استخدمت من يجمع لي المعلومات عن كل ما يبدو مبهما أو غامضا، في السنوات الأخيرة قبل الثورة، صار تدفق المعلومات ومظاهر التغيير كثيرة، مربكة، وكثرة المعلومات مثل قلتها تسبب حالة من الإرباك وتشعرنا بالتعب والإعياء، مع زيادة التوتر. لاحظت وجود بطءٍ في اتخاذ القرارات، ولو اتُخذ القرار أجده قرارًا سيئًا في كثير من الأحيان.

خفت حركة السير وبدأ الشباب يجمعون طائراتهم الورقية التي تطير عاليا، تحلق بأشكال نجمية وسداسية، ولها أذرع طويلة من أوراق ترفرف في الهواء.

على رصيف المشاة ظهرت رسومات جرافيتي جديدة، لم أر رسومات جرافيتي على الأرض منذ أيام يناير.. نزلت ميدان التحرير، في إحدى الدوائر القريبة من ركنة السيارات المواجهة لجامعة الدول العربية رأيت صورة الرئيس مبارك في دائرة واسعة وشباب يدهسون وجهه، مررت حول الدائرة.

لم تكن مخاطرة كبيرة فقد تركت الجهاز قبل عامين في حركة يناير 2009، ولم أكن وجها إعلاميا، أو وجها يعرفه من قضوا أياما في مكاتبنا، فالتعذيب والمداهمات والتحقيق مع المشتبه فيهم يقوم بها الضباط الصغار الذين لا سند لهم ويسهل التضحية بهم عند كشف أي تجاوز زائد. أما أبناء العائلات وخريجو اللغات فلهم المكاتب العلوية والتخطيط دون التنفيذ وتلقي الدورات التدريبية.

أردت أن أعرف ماذا يحدث، أن أشاهد بنفسي، ورأيت وجوها محتقنة، ووجوها لاهية كأنها في نزهة، ليست هذه وجوها خرجت من المقبرة، هل يخرج ميت من القبر؟ الحماسة الزائدة وإيقاع الهتاف والتأكيد على عدد منها ودفعها كلها في معنى واحد يدل أن هناك من يقف وراءها وأن الأمور ليست بالعفوية التي تبدو عليها.. أين التقارير؟ أين ذهبت التقارير؟ هذه الهتافات جديدة من أين جاءت؟

لمحت أروى مع أصدقائها.. أهلا جدو.. وكماكرة محترفة وجهت لي طعنة وذكرتني بجلد لن أستطيع أن أنزعه عن نفسي:

- جدو اللواء يسري صالح مساعد الوزير لقطاع شؤون الضباط سابقا.

أعادت لي وجهي الحقيقي، ضابط الشرطة، ولم أكن أعلم أن الأحداث المتلاحقة ستجعلني أعود لجلدي الذي لم أنزعه أبدأ عن نفسي.

لم تكن مخاطرة كبيرة فقد تركت الجهاز قبل عامين في حركة يناير 2009، ولم أكن وجها إعلاميا، أو وجها يعرفه من قضوا أياما في مكاتبنا، فالتعذيب والمداهمات والتحقيق مع المشتبه فيهم يقوم بها الضباط الصغار الذين لا سند لهم ويسهل التضحية بهم عند كشف أي تجاوز زائد. أما أبناء العائلات وخريجو اللغات فلهم المكاتب العلوية والتخطيط دون التنفيذ وتلقي الدورات التدريبية.

أردت أن أعرف ماذا يحدث، أن أشاهد بنفسي، ورأيت وجوها محتقنة، ووجوها لاهية كأنها في نزهة، ليست هذه وجوها خرجت من المقبرة، هل يخرج ميت من القبر؟ الحماسة الزائدة وإيقاع الهتاف والتأكيد على عدد منها ودفعها كلها في معنى واحد يدل أن هناك من يقف وراءها وأن الأمور ليست بالعفوية التي تبدو عليها.. أين التقارير؟ أين ذهبت التقارير؟ هذه الهتافات جديدة من أين جاءت؟

لمحت أروى مع أصدقائها.. أهلا جدو.. وكماكرة محترفة وجهت لي طعنة وذكرتني بجلد لن أستطيع أن أنزعه عن نفسي:

- جدو اللواء يسري صالح مساعد الوزير لقطاع شؤون الضباط سابقا.

أعادت لي وجهي الحقيقي، ضابط الشرطة، ولم أكن أعلم أن الأحداث المتلاحقة ستجعلني أعود لجلدي الذي لم أنزعه أبدأ عن نفسي.

مقام الحيرة

أروى

مع وجود الكاميرا، لم يعد للحقيقة وجه واحد، صار للحقيقة ألف وجه.. مع وجود الموبايل في يدك، أنت في قلب العمل طوال الوقت، لم يعد هناك حدود للزمان أو المكان.. وهذا شيء مهلك، أن تظل في الدائرة نفسها دون حدود أو فواصل، الزمن منساب في أبدية لا تنتهي، وتجد نفسك متورطا كل لحظة في تفاصيل وعلاقات ملتبسة، من اجتماع إلى اجتماع ومن الكنترول رووم إلى الاستوديو إلى المونتاج، دوائر متشابكة، وساعات من البث، هدير لا ينقطع، ودوامة لا تعرف أبعادها.

أتماهى مع هذا الصخب وأحرص أن أظل مشغولة طوال الوقت، الانشغال لا يجعلك تفكر أو تتأمل حالك، ورغم الجهد لا أريد أن أكف عن الدوران، فأتكاسل عندما يحين وقت العودة لشقتي وأخلق أعذارا لا تنتهي، اقترحت على مستر راضي أن نسجل في يوم المرأة تقريرا عن الدول التي تكفل حقوقا متساوية للرجال والنساء، بموجب القوانين المعتمدة. وأن نقارن بين حال المرأة في هذه البلدان مع حالها في مصر.

اعترض راضي: أية قوانين، وأية مساواة يا أروى؟ أنت الجواز غيرك.

لم يغيرني الزواج، لكنها الموجات المتسارعة من الشك واليقين، تحول الغضب المشتعل إلى لا مبالاة زاحفة في صمت نحو المجهول، أبتعد عن المناطق الساخنة في النقاش، شيء ما يؤرقني، شعور بزيف.

مع وجود الكاميرا، لم يعد للحقيقة وجه واحد، صار للحقيقة ألف وجه.. مع وجود الموبايل في يدك، أنت في قلب العمل طوال الوقت، لم يعد هناك حدود للزمان أو المكان.. وهذا شيء مهلك، أن تظل في الدائرة نفسها دون حدود أو فواصل، الزمن منساب في أبدية لا تنتهي، وتجد نفسك متورطا كل لحظة في تفاصيل وعلاقات ملتبسة، من اجتماع إلى اجتماع ومن الكنترول رووم إلى الاستوديو إلى المونتاج، دوائر متشابكة، وساعات من البث، هدير لا ينقطع، ودوامة لا تعرف أبعادها.

أتماهى مع هذا الصخب وأحرص أن أظل مشغولة طوال الوقت، الانشغال لا يجعلك تفكر أو تتأمل حالك، ورغم الجهد لا أريد أن أكف عن الدوران، فأتكاسل عندما يحين وقت العودة لشقتي وأخلق أعذارا لا تنتهي، اقترحت على مستر راضي أن نسجل في يوم المرأة تقريرا عن الدول التي تكفل حقوقا متساوية للرجال والنساء، بموجب القوانين المعتمدة. وأن نقارن بين حال المرأة في هذه البلدان مع حالها في مصر.

اعترض راضي: أية قوانين، وأية مساواة يا أروى؟ أنت الجواز غيرك.

لم يغيرني الزواج، لكنها الموجات المتسارعة من الشك واليقين، تحول الغضب المشتعل إلى لا مبالاة زاحفة في صمت نحو المجهول، أبتعد عن المناطق الساخنة في النقاش، شيء ما يؤرقني، شعور بزيف.

أقترح:

- ما رأيك أن نقدم تقريرًا شاملًا بعنوان كشف حساب خمسة أعوام على 30 يونيو، 30 يونيو في الميزان.

- أروى، 30 يونيو هي الميزان، نريد أن نظهر الإنجازات، وأن نعطي للناس الأمل.

لم أجادله، أو أحاول الدفاع عن فكرتي.. قبل انتهاء الاجتماع، التفت لي:

- إذا كان ولا بد قدمي تقريرًا عن المرأة في العام، واستخدمي المواد الفيلمية الواردة من الأمم المتحدة، لكن من غير مقارنة.

في هذه اللحظة فكرت:

- سنجهز التقرير ونسوّقه من خلال الموقع وسأقوم بالسفر وأداء دور المراسل والمصور خفضا للنفقات.

اعترض نادر مخرج البرنامج الذي يساعدني في إدارة مكتب الخدمات الإعلامية على هذا الاقتراح:

- القنوات في الخارج لا يهمها المرأة المصرية ولا غيرها، التنمية والمرأة موضوعات خسرانة. إلا إذا...

واستغرق في الضحك:

- «ليسبيان» أو «متحولين».

ضغط على أحد الملفات على سطح اللاب.. ظهرت على الشاشة صور أطفال ينطلقون في مسيرات تجوب شوارع حول منصة رابعة العدوية ويحملون المصاحف والورود والأكفان فيما أطلقوا عليه مشروع شهيد.

لم أفهم قصده لكني أكدت:

- أذعنا هذه المادة كشاهد على استغلال جماعة الإخوان النساء والأطفال في التظاهرات، وتصديرهم المشهد للاحتماء بهم، بجانب التعذيب النفسي لأطفال عمرهم أقل من عشر سنين «مشروع شهيد».

ابتسم، وهز كتفيه: هذه اللقطات مع وضع إنسرتات مشاهد ولقاءات مسجلة لمتعاطفين مع الجماعة، سيكون لها تأثير آخر، هذه هي المواد التي يرغبون في شرائها ودفع ثمنها. المواد الأرشيفية متاحة وكل واحد يقدمها حسب رأيه، وأنصار كل فريق سيقبلون ما يقوله إعلامه ويرفض ما يقوله الآخر.

- كل فريق؟

ابتسم:

- ممكن كل صورة نعيد تقديمها ثانيا، ثالثا، ورابعا، صور واحدة، لكن التعليق على الصورة يغير المعاني، الصورة ليست ألف كلمة، الصورة، ألف خدعة.

نطقت ببطء: المهم أنت مؤمن بإيه؟

رفع الصوت على إحدى شاشات: «اسمع مديرة قسم الشرق الأوسط في منظمة «هيومن رايتس ووتش» بتقول إيه: «بعد أربعة أعوام على أحداث رابعة، كانت الاستجابة الوحيدة من السلطات هي محاولة كفّ يد العدالة عن المسئولين عن هذه الجرائم. ردّ حلفاء مصر على جرائم رابعة وعدم

ابتسم، وهز كتفيه: هذه اللقطات مع وضع إنسرتات مشاهد ولقاءات مسجلة لمتعاطفين مع الجماعة، سيكون لها تأثير آخر، هذه هي المواد التي يرغبون في شرائها ودفع ثمنها. المواد الأرشيفية متاحة وكل واحد يقدمها حسب رأيه، وأنصار كل فريق سيقبلون ما يقوله إعلامه ويرفض ما يقوله الآخر.

- كل فريق؟

ابتسم:

- ممكن كل صورة نعيد تقديمها ثانيا، ثالثا، ورابعا، صور واحدة، لكن التعليق على الصورة يغير المعاني، الصورة ليست ألف كلمة، الصورة، ألف خدعة.

نطقت ببطء: المهم أنت مؤمن بإيه؟

رفع الصوت على إحدى شاشات: «اسمع مديرة قسم الشرق الأوسط في منظمة «هيومن رايتس ووتش» بتقول إيه: «بعد أربعة أعوام على أحداث رابعة، كانت الاستجابة الوحيدة من السلطات هي محاولة كفّ يد العدالة عن المسئولين عن هذه الجرائم. ردّ حلفاء مصر على جرائم رابعة وعدم إنصاف الضحايا هو الصمت المطبق».

قلت له: سنرد على هذه الادعاءات، نظهر لهم الحقيقة، نركز في تغطيتنا على قصة مأمور كرداسة العميد محمد جبر، ومصير أطفاله، ومأمور قسم بولاق.

- أنت مصدقة نفسك؟

- ماذا تقصد؟

- نحن ننقل ما يحدث فقط، من يشتري المادة المصورة يعرضها كما يريد.

لم يعد هناك شيء واضح أو مفهوم، ألغاز وحساب، صور ووجوه تتغير بين يوم وآخر، استقطابات متزايدة، أبيض أو أسود، مع أو ضد، لقد رأيت غلظة الإخوان، قسوتهم، نفاقهم.. لقد عشت هذه الأيام، ذقت الخوف والرعب من الهاوية التي كنا منحدرين لها.. انتشرت «جُمع» الخوف؛ في الجمعة التالية لفض رابعة تغلق المحال في المنيل، ويسرع الأهالي للتجمع، تنطلق أصوات طلقات الرصاص، هل تحتمل نوافذ الفيلا رصاصة.. طلب جدي أن نغلق الدور العلوي، وأن نتجمع في الدور الأرضي والبدروم.. في الدور الأرضي غرفة الطعام، وغرفة دادة سهاد، الصالونات، غرفة مكتب جدي وبها باب مغلق يفتح على سلالم تؤدي إلى غرفة بالبدروم، ويأتي لجدي زوار من البوابة الخلفية للحديقة، الحديقة الخلفية لها سور حديدي يفصلها عن مجرى النيل، لكن جدي حذر من استخدام هذه البوابة وأمر بتعليتها بأسلاك شائكة بدلا من نبات البلاب الذي كان الصياد يزيحه برفق.. ويصعد من قاربه ليناول الطباخ السمك الطازج، مع إرسال التحيات لسيادة اللواء وإعادة نبات اللبلاب لموضعه.

مع تزايد المظاهرات وانتشار قوائم الاغتيال، ومن أجل مزيد من التأمين طلب من الحارس كهربة السلك.. لم يكن هذا الطلب مستهجنا، لأن أحدا لم يتوقع ما سيحدث وما سيبقى من أثر يتجدد كل صيف، فتتجدد في أغسطس رائحة شواء جسد بشري، وعندما ينحسر ماء النيل تظهر السلالم الرخامية البيضاء وقد اسودت من بقايا رجل محترق من الكهرباء، مصلوب على السور الخلفي، وعلى الدرجات ارتمت جثة زوجته وهي ممسكة قدميه بيديها تحاول إنقاذه، وطفل في مركب صغير يهتز ويصرخ، لم يكن معه أوراق في قاربه، ولم يبلغ أحد عن اختفائه، أخذوا الطفل لقسم مصر القديمة، وتولت الشئون الاجتماعية مسئوليته، وما زال المركب مربوطا في السلك الشائك وإن تم إلغاء توصيله بالتيار الكهربي.

يضيف نادر: صفحات الفيس بوك وقنوات اليوتيوب الآن تكسب كثيرا، فكري في الموضوع، وأيضًا علاقات جدك ستسهل لنا إجراءات كثيرة، كفاية موافقات الداخلية.

- حاضر.

- ممكن ندير صفحة أو قناة الدكتور علي قنديل، الشيخ الجديد، هل حددتم موعد البرنامج؟

- سيعرض الشهر القادم، إما الثالثة عصر الجمعة أو الثامنة مساء الخميس.

- أنا صورت له البرومو، داعية جديد، وسيجذب آلاف المشاهدين، إن لم يكن للقناة فعلى صفحة القناة على الفيس.

قبل عامين كنت سأسخر من رأيه وأخبره في وجهه أنه رجل تقليدي، وأن كل الوجوه استهلكت واستنفدت، وأن كل الدعاة المعتدلين والمتشددين احترقوا، لكن الحقيقة الصادمة أن ما يقوله صواب، وأن الدين هو المنتج الأكثر مبيعا في العالم.

عام من الزمن فترة كافية لتطور أداء الشيخ علي، والتحول من مجرد ضيف يطرح رأيه ووجهة نظره في الشروح والتفاسير القديمة، إلى ضيف ثابت يدافع عن قداسة الشريعة، وها هو ينفرد ببرنامج جديد، سنضعه على الخريطة أول يونيو، ويصبح محل نقاش في القناة

الشئون الاجتماعيه مسئوليه، وما زال المركب مربوطا في السنك السابق وإن لم إلغاء توصيله بالتيار الكهربي.

يضيف نادر: صفحات الفيس بوك وقنوات اليوتيوب الآن تكسب كثيرا، فكري في الموضوع، وأيضًا علاقات جدك ستسهل لنا إجراءات كثيرة، كفاية موافقات الداخلية.

- حاضر.

- ممكن ندير صفحة أو قناة الدكتور علي قنديل، الشيخ الجديد، هل حددتم موعد البرنامج؟

- سيعرض الشهر القادم، إما الثالثة عصر الجمعة أو الثامنة مساء الخميس.

- أنا صورت له البرومو، داعية جديد، وسيجذب آلاف المشاهدين، إن لم يكن للقناة فعلى صفحة القناة على الفيس.

قبل عامين كنت سأسخر من رأيه وأخبره في وجهه أنه رجل تقليدي، وأن كل الوجوه استهلكت واستنفدت، وأن كل الدعاة المعتدلين والمتشددين احترقوا، لكن الحقيقة الصادمة أن ما يقوله صواب، وأن الدين هو المنتج الأكثر مبيعا في العالم.

عام من الزمن فترة كافية لتطور أداء الشيخ علي، والتحول من مجرد ضيف يطرح رأيه ووجهة نظره في الشروح والتفاسير القديمة، إلى ضيف ثابت يدافع عن قداسة الشريعة، وها هو ينفرد ببرنامج جديد، سنضعه على الخريطة أول يونيو، ويصبح محل نقاش في القناة.

ينبهني مستر راضي مدير البرامج:

- صحيح أداؤه تطور، لكنه لم يصبح نجمًا.

- والمطلوب؟

- تفعيل وجوده، الدخول في جدل.

اقترحت: معارك فكرية؟

أجاب ساخرا: أي معارك يا أروى؟ خفيف، خفيف.. الكتب مليئة بموضوعات مثيرة للجدل. اتفقت مع الدكتور علي.

- هل حصل على الدكتوراه؟

- باعتبار ما سيكون، هو حصل على الماجستير وسجل للدكتوراه. المهم الدكتور أرسل لي قائمة بآراء فقهية مثيرة للجدل، سأرسلها لك على الواتس. ونضعها على صفحة البرنامج ونرسلها للمواقع. ونجم الدكتور يلمع، وهذه مصلحة الكل.

نظرت في القائمة: حكم الاقتراض للحج، الزوجة غير ملزمة بخدمة زوجها...

ما يميز الشيخ علي ذكاؤه الشديد وقدرته على استخدام كلمات تحتمل أكثر من وجه وأكثر من تفسير، بما يرضي من يستمع له، هادئ ورصين، مستمع جيد، متفهم لنفسية المشاهدين، بما يجعل المتصلين من المشاهدين يرتاحون للحديث معه، وهو لا يصدر أحكاما بل يجعل المشاهدين يصلون للحكم الذي يبحثون عنه.

قدرته على النفاذ إلى عقول مستمعيه، مكنته بعد شهور قليلة من عمله في مسجد صلاح الدين أن يكسب ود جدي الذي اقترح عليّ استضافة الشيخ في أحد البرامج: أنا ممكن أكلم المهندس صلاح ثابت صاحب القناة، لكن عايز أشوف شطارتك.

- تؤمر يا جدي، لكن سأحتاج أشاهد له فيديوهات، أحاديث، هل لديه قناة على اليوتيوب؟

- لا أعرف هذه التفاصيل، خذي رقمه، وتواصلي معه.

اتصلت به، رحب باتصالي، وتحدث بتلقائية وبساطة أدهشتني.

- لدينا ثلاثة برامج يمكنك الظهور فيها.

- ما ترينه مناسبا، أنا أثق بك.

- لكنك لا تعرفني.

- ربما لا أعرفك الآن، لكن الأرواح جنود مجندة.

رشحته لنجمة القناة وصديقتي ميادة شاهين، خاصة وقد عرفت أنهما بلديات من محافظة الدقهلية، اشتهرت ميادة لفترة طويلة بتقديم برامج المنوعات فلديها رصيد كبير من الأصدقاء النجوم بسبب خطوبتها للمطرب حسام مجدي، وفجأة أعلنت ارتداءها الحجاب، وعندما تقدمت باستقالتها، رفض مدير القناة الاستقالة وقال: لماذا

لا تقدمين برنامج فتاوى للمرأة المسلمة، نطلق عليه فتاوى الأسرة.. تتمتع ميادة بخفة دم كبيرة، وطلة وقبول على الشاشة، وفيها ملمح شعبي يجعلها

- لا أعرف هذه التفاصيل، خذي رقمه، وتواصلي معه.

اتصلت به، رحب باتصالي، وتحدث بتلقائية وبساطة أدهشتني.

- لدينا ثلاثة برامج يمكنك الظهور فيها.

- ما ترينه مناسبا، أنا أثق بك.

- لكنك لا تعرفني.

- ربما لا أعرفك الآن، لكن الأرواح جنود مجندة.

رشحته لنجمة القناة وصديقتي ميادة شاهين، خاصة وقد عرفت أنهما بلديات من محافظة الدقهلية، اشتهرت ميادة لفترة طويلة بتقديم برامج المنوعات فلديها رصيد كبير من الأصدقاء النجوم بسبب خطوبتها للمطرب حسام مجدي، وفجأة أعلنت ارتداءها الحجاب، وعندما تقدمت باستقالتها، رفض مدير القناة الاستقالة وقال: لماذا

لا تقدمين برنامج فتاوى للمرأة المسلمة، نطلق عليه فتاوى الأسرة.. تتمتع ميادة بخفة دم كبيرة، وطلة وقبول على الشاشة، وفيها ملمح شعبي يجعلها قريبة من الجمهور، لكنها منعدمة الثقافة الدينية، نبهه مدير البرامج، فقال كلمته الخالدة: وماذا يفعل الإعداد؟ املأوا رأسها الفارغ بكل ما تريدون. حققت ميادة نجاحا كبيرا وتنقلت بحجابها من قناة لأخرى، صارت سيدة مجتمع تصاحب «الحاجات» في الحج السياحي السبع نجوم، لديها «تيم شير» في فندق «فيرمونت الساعة»، لكنها تكون وسط السيدات في مخيمي عرفات ومنى، أكسبها هذا سمعة وشهرة دينية وأموال هدايا من الشركة المنظمة، وعلاقات واسعة مع وزراء ورؤساء بنوك ورجال أعمال خلال تناول الطعام في المطعم الخاص بالمجموعة في فندقي «أوبوري» في المدينة وفيرمونت الساعة في مكة.

تعرفتُ على ميادة عن قرب منذ عملت بالقناة، فبمجرد انتهاء دراستي أخبرتني طنط هند عمة ماما أنها ستحدث ميادة عني، فقد شاركتها الحج موسمين متواليين، قلت لها جدي صديق صاحب القناة، قالت: جدك سيفتح لك باب القناة، لكن ميادة ستقودك وتعلمك في الداخل.

وكما ساعدتني، كانت ميادة هي النافذة التي أطلَّ من خلالها الشيخ علي على المشاهدين، وبالتدريج صار ضيفها الوحيد، ورشحته ليكون الداعية المصاحب لحجاج أرقى شركة الحج السياحي.

توقعت أن تغضب من تخصيص برنامج له، لكنها ضحكت عندما أخبرتها:

- بالعكس، أنا من اقترحت على المهندس صلاح أن يصبح له برنامج منفصل.

- معقول. لماذا؟

- سأقول لك لأنك أنت صاحبتي، الموضوع ببساطة إني أحافظ على برنامجي، برنامجي يجب أن يظل برنامج ميادة، وإذا استمر هو ضيفا سيصبح برنامج الشيخ علي وأنا مجرد ديكور.

- وبرنامجك؟

- سأستضيف شيخا جديدا وألمعه وقبل أن يبلع برنامجي أبحث له عن برنامج.

- وما استفادتك؟

- سواء رضيت أم لا سيكون له برنامج، الذكاء أني أنا من يقترحه، وأبقى صاحبة فضل. «كلنا عايشين جمايل».

تمتلك ميادة ذكاء فطريا، وقدرة على الاستمتاع بالحياة بكل ما في يدها.

اتصل فادي على الموبايل: أنا أمام بوابة المدينة، سأدعوك على العشاء في مول مصر.

تفاجأت: لكن أنا غير مستعدة.

- غير مستعدة!

- ما زال عندي شغل.

ظل الخط مفتوحا، لم ينطق فادي بكلمة، استجمعت صوتي:

- فادي، من فضلك، لن أستطيع الركوب معك وترك سيارتي في القناة، سأذهب بعدك.

أغلقت الهاتف، جمعت أوراقي، ركبت السيارة واسترخيت في المقعد، وداخلي يتصارع شعوران رغبة في الانكماش، ورغبة في فك حزام الأمان وأن أطير. عاد لي الغضب، لكنه غضب ليس له ما يبرره، أحاول السيطرة عليه وطبه، أربت على ذراعي، أهدهد نفسي، كما تهدهد الأم الطفل

- سواء رضيت أم لا سيكون له برنامج، الذكاء أني أنا من يقترحه، وأبقى صاحبة فضل. «كلنا عايشين جمايل».

تمتلك ميادة ذكاء فطريا، وقدرة على الاستمتاع بالحياة بكل ما في يدها.

اتصل فادي على الموبايل: أنا أمام بوابة المدينة، سأدعوك على العشاء في مول مصر.

تفاجأت: لكن أنا غير مستعدة.

- غير مستعدة!

- ما زال عندي شغل.

ظل الخط مفتوحا، لم ينطق فادي بكلمة، استجمعت صوتي:

- فادي، من فضلك، لن أستطيع الركوب معك وترك سيارتي في القناة، سأذهب بعدك.

أغلقت الهاتف، جمعت أوراقي، ركبت السيارة واسترخيت في المقعد، وداخلي يتصارع شعوران رغبة في الانكماش، ورغبة في فك حزام الأمان وأن أطير. عاد لي الغضب، لكنه غضب ليس له ما يبرره، أحاول السيطرة عليه وطيه، أربت على ذراعي، أهدهد نفسي، كما تهدهد الأم الطفل الرضيع كي ينام، أتمنى لو أمتلك عصا ساحرة وأطير بها بعيدا وأتأرجح على طرف القمر، الطريق واسع، والإضاءات القوية، تخفي النجوم، والهواء يبدو كأنه رجل مصدور، لا ذرة أكسجين، فقط ثقل أنفاس.. وهواء «سكند يوز»، لا شيء بكر، أو نقي..

وصلنا لمول مصر، تمشينا في الدور الأول، لم أستطع أن أخفي توتري، حاولت الاعتذار لفادي:

- لم أتعود أن يقطع برنامجي أو خططي أحد، وأنا لا أحب المفاجآت.

- كنت قريبا منك، أردت أن تكوني أول من يرى الفرع الجديد لمنتجات التجميل، وأن نعود للبيت سويا..

هدأ غضبي قليلا، فليس ذنب فادي أنه يحب زوجته، لكنها مشكلتي أنا، لم أعد أعرف ما الذي يرضيني.

- اخترنا المحل، المنفذ الجديد لمنتجات المصنع، جئت كي أعاين المكان على الطبيعة.

- لم تأت خصيصًا إذن؟ لم يكن هناك داعٍ لهذه التكلفة!

- لماذا تقولين هذا؟ أنت أهم إنسان عندي.. هيا نجلس في أي كافيه أو نتعشى.

ترددت:

- لأ. نروح أحسن.

- كما تحبين.

صمت، لم نتحرك، أربكتني ملامح الانبساط على وجهه كأنه يقول لي: وماذا أيضا لا يعجبك؟ سرحت في تفاصيله، وفي هذه البساطة التي تغلف روحه، تضاعف صوت مياه النافورة التي تواجه المحل، وبدا صوت خرير الماء كطوفان هادر سيكتسح قرية نائمة.. لم نتحرك وبدا أننا في انتظار شيء لا نعرفه، فجأة أمسك بيدي، سألني وقد لاحظ شرودي: لماذا لا ننجب؟

باغتني بسؤاله، ولماذا ننجب؟ ما الذي يريده بإنجاب طفل، أن نكرر بلاهته وجنوني، أنا إنسانة بلا حسنات، غير حسنة ألا أكرر خطايا الطبيعة، أي مأزق أوقعت نفسي فيه بقبولي الزواج منه، أصبح وجوده يوترني، يدعي أنه يعرفني جيدا، أنا نفسي لا أعرف نفسي، من أين جاءني اليقين بأنني سأتخلص منه بسهولة؟

كان يلح لارتباطنا، وأبي يلح عليّ بعرسان يريد أن يزوجهم لي، جميعهم جزء من صفقاته، فأظهرت له صفقتي الخاصة وكانت صفقة خاسرة بالنسبة له بكل المقاييس؛ مسيحي يسلم ليتزوج حبيبته، أعجبني التصور، شيء من الرومنطيقية، لا أجده في أي صورة من صوري، قصة حب كبيرة؛ يا بختك، اهتمام الـ«سوشيال ميديا»، الصحف، الفضائيات، فجأة أصبحنا تريند، تضحيته ملموسة وتضحيتي جلية.. اعتراضات من أبي، أمي، أخي شريف، وعلى ناحيته، تحولت أمه إلى أرملة، رغم أنها كانت مدرستي في مدرسة الميرديديو، على مدى سنوات توطدت علاقة العائلتين، وسكنوا معنا في المنيل لفترة بعد أن أصيب بيتهم في قلب ميدان التحرير في مواجهة مدرسة الفرنسيسكان، احترقت واجهة البيت ومعها احترقت الشجرة الفينيكس التي اعتدت أن أتابع نموها وأصعد للسطح في الدور الرابع فأستطيع أن أقطف زهورها البنفسجية.

انكشف ما كانت تحاول أن تخفيه والدته من عدم رضاها عني، تحولت علاقتنا بعد دخولي الجامعة، بدا كأنني خذلتها بشكل
لا أفهمه، تجاوبي وتقاربي مع فادي، خلق توترا مكتوما في علاقتنا، تعتقد دوما أن لي وجهين، السيدة الساذجة المسكينة ذات الخيال المحدود لم تصل لمدى الوجوه المتعددة التي أمتلكها، أشفق عليها من تحقيق أمنيتها بعودة خروفها الضال لحظيرتها، فلتفرح بمكسبها، فقد كانت واثقة من فشل زواجنا

مأزق أوقعت نفسي فيه بقبولي الزواج منه، أصبح وجوده يوترني، يدعي أنه يعرفني جيدا، أنا نفسي لا أعرف نفسي، من أين جاءني اليقين بأنني سأتخلص منه بسهولة؟

كان يلح لارتباطنا، وأبي يلح عليّ بعرسان يريد أن يزوجهم لي، جميعهم جزء من صفقاته، فأظهرت له صفقتي الخاصة وكانت صفقة خاسرة بالنسبة له بكل المقاييس؛ مسيحي يسلم ليتزوج حبيبته، أعجبني التصور، شيء من الرومنطيقية، لا أجده في أي صورة من صوري، قصة حب كبيرة؛ يا بختك، اهتمام الـ«سوشيال ميديا»، الصحف، الفضائيات، فجأة أصبحنا تريند، تضحيته ملموسة وتضحيتي جلية.. اعتراضات من أبي، أمي، أخي شريف، وعلى ناحيته، تحولت أمه إلى أرملة، رغم أنها كانت مدرستي في مدرسة الميريديو، على مدى سنوات توطدت علاقة العائلتين، وسكنوا معنا في المنيل لفترة بعد أن أصيب بيتهم في قلب ميدان التحرير في مواجهة مدرسة الفرنسيسكان، احترقت واجهة البيت ومعها احترقت الشجرة الفينيكس التي اعتدت أن أتابع نموها وأصعد للسطح في الدور الرابع فأستطيع أن أقطف زهورها البنفسجية.

انكشف ما كانت تحاول أن تخفيه والدته من عدم رضاها عني، تحولت علاقتنا بعد دخولي الجامعة، بدا كأنني خذلتها بشكل
لا أفهمه، تجاوبي وتقاربي مع فادي، خلق توترا مكتوما في علاقتنا، تعتقد دوما أن لي وجهين، السيدة الساذجة المسكينة ذات الخيال المحدود لم تصل لمدى الوجوه المتعددة التي أمتلكها، أشفق عليها من تحقيق أمنيتها بعودة خروفها الضال لحظيرتها، فلتفرح بمكسبها، فقد كانت واثقة من فشل زواجنا بقدر إيمانه بنجاح علاقتنا.

باغتني هذا المجنون بطلبه.. أعرف أنه يحبني، وأنا أستلطفه، «تقريبا اتربينا سوا»، لم أتصور أنه يفكر في الزواج بي.. مسيحي
لا يمكنه الزواج بمسلمة.. كان من الطبيعي أن نفترق وتكون «خلصانة بشياكة»، ما الذي جعلني أتمادى في إرخاء الحبل.. وأنا أطبع قبلة خفيفة على حافة ذقنه.

- إلا إذا أعلنت إسلامك وتركت المسيحية.

عندما هبطنا مدرجات ملعب الإسكواش بالنادي، كانت خطواته ثقيلة.. أثقل من المعتاد.. لم أظن أن كلمتي قد التصقت بعقله.. مجرد بذرة لكنها وجدت تربة رغوية طينية.

هذا الأبله، في ماذا يختلف الإسلام عن أي دين؟ كل الأديان متشابهة؛ شعائر وطقوس، رجال دين؛ شيوخ، قساوسة وكهنوت.. كلها قواعد وقيود وقوانين.. والكل يتكسب منها.

التجارة بالدين هي التجارة الأكثر ربحا في العالم. ومن وراء كل هذا؟ من أجل مَن كل هذه الصراعات، الله؟! لم يحدث أن فكرت إن كان الله موجودا أم لا. لست ملحدة، لا أستطيع أن أدعي ذلك، وليست لديّ خبرة أو قراءة فلسفية حول الموضوع، لكن المسألة ليست فارقة معي.. هذا العالم الكبير بكل ما فيه من تفاصيل ومليارات البشر.. كيف وصلنا لهذه النقطة؟ ما كم الأخطاء والعوادم الناتجة عن هذه العملية الحيوية، كأن الحياة عملية كيميائية كبيرة تتم وكل ما يتبعها من عوادم وشوارد ثانوية مقدرة سلفا كناتج طبيعي للتجربة؛ الأمراض، الأوبئة، الجرائم، الصفات الجينية المتنحية تظهر، والشوارد تكوِّن الحقد والكراهية والسرطانات والأوبئة، هذه هي الحياة، لماذا عليك أن تؤمن بأن هناك إلها يرى كل هذه المآسي ولا يتدخل لإصلاح العالم، وتدخله لا يكون إلا بالطوفان، لخسف الناس، لسلبهم الحياة، لإغراقهم، لكن التدخل لرفع ركام وشوارد التجربة لا نراه ولا نلمسه، أو يدفع الجميع ثمنه؛ محاكم تفتيش، لجان أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، مزيد من ميكنة الإنسان وبرمجته من الماكينات إلى البرمجيات، إلى.. إلى..

أؤمن ببرهان باسكال، فادي هو من عرفني على هذه النظرية:

1- إن آمنت بالله وكان الله موجودا، فسيكون جزاؤك الخلود في الجنة، وهذا ربح لا محدود.

2- إن لم تؤمن بالله وكان الله موجودا، فسيكون جزاؤك الخلود في جهنم، وهذه خسارة لا محدودة.

3- إن آمنت بالله وكان الله غير موجود، فلن تُجزى على ذلك، وهذه خسارة محدودة.

اخترت الربح اللا محدود مقابل الخسارة اللا محدودة أو الخسارة المحدودة.

مجرد اختيار حسابي بحت، لم أتوقف أمامه أو أناقشه داخل نفسي، علاقتي بالله غائمة، هو في ملكوته وكلياته وسموه، وأنا في غضبي وحيرتي، لم يحدث أن سألته أو احتجته، لم يكن لديّ حاجة لشيء، لا أتذكر أني دعوت الله بعمق، لكني أراه دائما بعيدا، أشعر به متمركزا خلف حجب كثيفة تفصل بيني وبينه.

أسأل ماما أن تدعو لي أيام الامتحانات أو عندما يكون لديّ «أوردر» مهم، وهي تقول لي: «ادعيه أنت».

لا تعرف أنني أخشى أن أدعوه.. أخشى ألا يستجيب لي، أخشى أن أنكر وجوده، سبق أن دعوته كثيرا، عندما رحلت ماما، تمنيت أن يستجيب لي، صرخت جدتي لأبي في وجهي: أنت جاحدة، تريدين الذهاب لأمك وتركي، لن يسمع الله منك، أنت جاحدة، أنت كافرة بالنعمة.

1- إن امنت بالله وكان الله موجودا، فسيكون جزاؤك الخلود في الجنة، وهذا ربح لا محدود.

2- إن لم تؤمن بالله وكان الله موجودا، فسيكون جزاؤك الخلود في جهنم، وهذه خسارة لا محدودة.

3- إن آمنت بالله وكان الله غير موجود، فلن تُجزى على ذلك، وهذه خسارة محدودة.

اخترت الربح اللا محدود مقابل الخسارة اللا محدودة أو الخسارة المحدودة.

مجرد اختيار حسابي بحت، لم أتوقف أمامه أو أناقشه داخل نفسي، علاقتي بالله غائمة، هو في ملكوته وكلياته وسموه، وأنا في غضبي وحيرتي، لم يحدث أن سألته أو احتجته، لم يكن لديّ حاجة لشيء، لا أتذكر أني دعوت الله بعمق، لكني أراه دائما بعيدا، أشعر به متمركزا خلف حجب كثيفة تفصل بيني وبينه.

أسأل ماما أن تدعو لي أيام الامتحانات أو عندما يكون لديّ «أوردر» مهم، وهي تقول لي: «ادعيه أنت».

لا تعرف أنني أخشى أن أدعوه.. أخشى ألا يستجيب لي، أخشى أن أنكر وجوده، سبق أن دعوته كثيرا، عندما رحلت ماما، تمنيت أن يستجيب لي، صرخت جدتي لأبي في وجهي: أنت جاحدة، تريدين الذهاب لأمك وتركي، لن يسمع الله منك، أنت جاحدة، أنت كافرة بالنعمة.

كففت عن الدعاء لكني لم أكف عن البكاء.. حتى جاء جدي وأخذني لماما، ابتعدت وهي تصرخ في وجهي كافرة وتضم شريف لصدرها، بعدما رفض أن يأتي للعيش معنا في بيت جدي.

شعرت بتعاطف شديد نحو فادي، أمسكت بذراعه:

- حقك عليّ، أنا مجهدة كثيرًا.

- مجهدة ولا متلخبطة؟

يمتلك فادي حدسا قويا، وشفافية في الشعور بمن حوله، لديه يقين وأرض صلبة يقف عليها، مسيحي أقرب للقديسين، ومسلم أقرب للأولياء.

- مجهدة ومتلخبطة.. يا ريت نروح.

احتضن كتفي وتركت نفسي، أسير وفق خطواته، إيقاع خطوه المنتظم، جذبني بعيدا عن البحر المضطرم في داخلي.. تعددت مصادر معرفتي وقيمي الأخلاقية، أحيانا يتعارض بعضها مع بعض، تصل أحيانا إلى حد التضاد، يحيط الغموض بعائلة أمي، جدي اللواء يسري صالح رغم أنه أحيل للتقاعد من سنوات، ولديه شركة استشارات قانونية لكنه يعامل كأنه ما زال في الخدمة، ولا تخلو الفيلا من أصدقائه من الرتب المتقاعدة والحالية، حتى الحراسة على فيلته ما زالت قائمة كما هي، منذ وعيت الفرق بين «ناصر» البواب والحارس المجند الذي يتغير كل سنة أو سنتين.

قبل زفافي بأسبوع.. أراد أن أقابله في مكتبه، وطلب مني التوقيع على نقل ملكية الشقة باسمي.

- هذه الشقة ملكك ولكن لا يحق لك التصرف فيها بالبيع أو الإيجار أو الرهن أو أي إجراء دون الرجوع لي.

- حضرتك لا تثق في؟

- حضرتي يحاول حمايتك وعمل ما فشلت فيه مع أمك، لا أريد أن يستغلك أحد بسبب ما تملكين.

- من تقصد؟ فادي؟

- لا. فادي طيب. أي شخص، ستظل الشقة أمام الجميع باسمي، لكن أردت أن أعرفك إنها هديتي لك.

أردت أن أقول له: ثقتك يا جدو هدية أغلى، لكنني صمت، فقد عشت ألم ماما وهي تعاني وحدها في الغابة دون حماية، ولا أنسى أن ثمن إقامتي معها كان نصيبها في ميراثها من والدتها في «بيت حلوان»، وعندما عرف جدي وصاح فيها:

- لماذا لم تخبريني؟

أجابته بمرارة:

- هل كنت ستسلط عليه رجالك في أمن الدولة؟ ماذا كنت سأقول لابني؟ هل تعتقد أنه كان سيسكت.. كان سيشهر بك في جرائد الوفد أو المصري اليوم. ألف من يتمنى لك غلطة.

عائلة أبي مثال العشوائية والاضطراب في مشاعرها وتصرفاتها، طلق أبي زوجته الثانية، واستولت طليقته على حصة كبيرة من شركة «منة تورز» للسياحة وبعد أن جرسته في المحكمة، بسبب عجزه معها، هذه الأخبار تأتيني فأتلقاها بحياد راسخ وبرود قاتل، وعندما يعيد أسطوانته المملة بأن ماما هي السبب وأنها التي تركته وطلبت الخلع، أستعد بأسطوانة من أغنيات أديث بياف، وأغنية داليدا.. تدور في ذهني وحركات فمي تضيق وتتسع كما عرائس البانتوميم.. Je suis malade

أردت أن أقول له: ثقتك يا جدو هدية أغلى، لكنني صمت، فقد عشت ألم ماما وهي تعاني وحدها في الغابة دون حماية، ولا أنسى أن ثمن إقامتي معها كان نصيبها في ميراثها من والدتها في «بيت حلوان»، وعندما عرف جدي وصاح فيها:

- لماذا لم تخبريني؟

أجابته بمرارة:

- هل كنت ستسلط عليه رجالك في أمن الدولة؟ ماذا كنت سأقول لابني؟ هل تعتقد أنه كان سيسكت.. كان سيشهر بك في جرائد الوفد أو المصري اليوم. ألف من يتمنى لك غلطة.

عائلة أبي مثال العشوائية والاضطراب في مشاعرها وتصرفاتها، طلق أبي زوجته الثانية، واستولت طليقته على حصة كبيرة من شركة «منة تورز» للسياحة وبعد أن جرسته في المحكمة، بسبب عجزه معها، هذه الأخبار تأتيني فأتلقاها بحياد راسخ وبرود قاتل، وعندما يعيد أسطوانته المملة بأن ماما هي السبب وأنها التي تركته وطلبت الخلع، أستعد بأسطوانة من أغنيات أديث بياف، وأغنية داليدا.. تدور في ذهني وحركات فمي تضيق وتتسع كما عرائس البانتوميم.. Je suis malade

Je ne rêve plus

Je ne fume plus

Je n'ai même plus d'histoire

Je suis seule sans toi

Je suis laide sans toi

Comme une orpheline dans un dortoir

أنا مريضة.. حقا أنا مريضة، ورغم وجود أبي على قيد الحياة فأنا كيتيمة في ملجأ.

تنتشر في المول إعلانات الاحتفال بثورة 30 يونيو، تقدم المطاعم والمحلات خصومات.. دعاية.. تسويق، ألا تكفي البرامج التلفزيونية، وإعلانات الـ«أوت دور»، وماذا عن يناير؟ الثورة تخبو وتخبو كشمعة في آخر دهليز والنفق يطول ويطول، أنت تراها وواثق من وجودها لكن أثرها، ضوؤها صار بعيدا.

في الذكرى الأولى للثورة، انتشرت الدعوات للاحتفال، أعطاني فادي «ترانيم قبطية»، أخذت أقرأها وهو يصوب لي ما أخطئ في نطقه، كان أول عام لي بالجامعة، حيث تحررنا من عقدة عدم الاحتفال بالكريسماس خوفا من الامتحانات، التي تأتي في نفس توقيت أعياد رأس السنة.

حققنا الثورة، لكن أفكارنا لم تتحقق وظهر واضحا أن الإخوان والجماعات الإسلامية هي المسيطرة على الأرض، انزوينا في ركن خيمة قريبة من مدخل محمد محمود، الشموع ليست ساطعة كالكشافات، والجيتار أضعف من الدفوف والطبلة، تلعلع المكبرات بالتكبيرات والأدعية الدينية والخطب. شعرت بالغربة في الميدان، كانوا يحتفلون بنجاح الثورة، ولكننا كنا غارقين في الإحباط، وتحيط بنا هالات النور التي انطفأت وعشرات الزهور التي تساقطت وقطفت في غير أوانها.

في هذه الليلة، بكيت على كتف فادي.. لا أنكر أني أحب فادي وأنه علمني الكثير وساعدني وكان صديقا، لكن ما يزعجني أن قلبي لا يدق عندما أراه، أريد أن أراه بقلبي، لا أضبط نفسي متلبسة بالتفكير فيه، عقلي دائما حاضر، منتبه متيقظ، لا أقوم معه بتصرفات عفوية،
لا أستطيع تفسيرها أو التحكم فيها، هل لعلاقة أمي بأبي دخل في الأمر؟ لا أعرف. المحيط الهادر قد يكون حوضا زجاجيا وأنا سمكة ملونة صغيرة أتقافز داخله.

أراه، أريد أن أراه بقلبي، لا أضبط نفسي متلبسة بالتفكير فيه، عقلي دائما حاضر، منتبه متيقظ، لا أقوم معه بتصرفات عفوية،
لا أستطيع تفسيرها أو التحكم فيها، هل لعلاقة أمي بأبي دخل في الأمر؟ لا أعرف. المحيط الهادر قد يكون حوضا زجاجيا وأنا سمكة ملونة صغيرة أتقافز داخله.

سلوى

اتصل بي شريف، اتفقنا أن نلتقي على الغداء، تجهيزات المتحف الكبير على قدم وساق، اقترح أن نلتقي في الميناهاوس، منذ مدة لم أتناول طعاما هنديا.

أحاول أن أكسر رتابة العالم، وعندما ألتقي شريف أشعر أن الصخب والضجيج هما المكان المناسب للقاء به، شريف لا يختار مكانا هادئا لنلتقي فيه، نادرا ما يأتي للبيت، لقاءاتنا دائما في النادي، الملاهي، السينما، لا نلتقي لمجرد اللقاء؛ «ماما سنتغدى ونتكلم، ماما أحتاج سلفة، ماما ما رأيك في هذا المشروع؟». هناك دائما سبب يحيط بلقاء الأمومة والبنوة الذي أحاول توهمه، يختار من الأماكن أزحمها، الإضاءة الشديدة، المبهرة.

تكون الطبقة الأولى من اللقاء أنه يريد فقط أن يجلس معي ويطمئن عليّ، لكن المطعم أو المكان الذي يختاره أبعد ما يكون عن تحقيق الهدوء أو التفكير، أوافق على ما يريد، كي أتخلص من إلحاحه ومن زحام المكان، أو ضغط التفاصيل التي تتراكم على حواسي.

اختار مطعما هنديا.. منذ اللحظات الأولى، يبدأ التشويش على حواسي، بمجرد أن خطوت داخل المطعم حتى كان في استقبالنا فيل «بزلومة»، عبارة عن مجسم محبوس به شخصان بطريقة تمثل الفيل بسيقانه الضخمة والصوت، حركة الفيل مع بهرجة القماش تخلق حالة من الدوار المبهج والدهشة المترقبة. اصطحبتنا الموسيقى الهندية حتى الترابيزة التي حجزها شريف في نهاية المطعم، جلست بجانبه، وجلس بما يسمح له أن يرى كل ما يحدث

اتصل بي شريف، اتفقنا أن نلتقي على الغداء، تجهيزات المتحف الكبير على قدم وساق، اقترح أن نلتقي في الميناهاوس، منذ مدة لم أتناول طعاما هنديا.

أحاول أن أكسر رتابة العالم، وعندما ألتقي شريف أشعر أن الصخب والضجيج هما المكان المناسب للقاء به، شريف لا يختار مكانا هادئا لنلتقي فيه، نادرا ما يأتي للبيت، لقاءاتنا دائما في النادي، الملاهي، السينما، لا نلتقي لمجرد اللقاء؛ «ماما سنتغدى ونتكلم، ماما أحتاج سلفة، ماما ما رأيك في هذا المشروع؟». هناك دائما سبب يحيط بلقاء الأمومة والبنوة الذي أحاول توهمه، يختار من الأماكن أزحمها، الإضاءة الشديدة، المبهرة.

تكون الطبقة الأولى من اللقاء أنه يريد فقط أن يجلس معي ويطمئن عليّ، لكن المطعم أو المكان الذي يختاره أبعد ما يكون عن تحقيق الهدوء أو التفكير، أوافق على ما يريد، كي أتخلص من إلحاحه ومن زحام المكان، أو ضغط التفاصيل التي تتراكم على حواسي.

اختار مطعما هنديا.. منذ اللحظات الأولى، يبدأ التشويش على حواسي، بمجرد أن خطوت داخل المطعم حتى كان في استقبالنا فيل «بزلومة»، عبارة عن مجسم محبوس به شخصان بطريقة تمثل الفيل بسيقانه الضخمة والصوت، حركة الفيل مع بهرجة القماش تخلق حالة من الدوار المبهج والدهشة المترقبة. اصطحبتنا الموسيقى الهندية حتى الترابيزة التي حجزها شريف في نهاية المطعم، جلست بجانبه، وجلس بما يسمح له أن يرى كل ما يحدث في المحيط. كل ما يحيط بنا.. الديكورات والرسومات الذهبية، أوراق الشجر الخضراء الاستوائية، الرسومات على الحوائط، كلها تقلد الجو الهندي، قدم لنا شاب المنيو، ووضع المقبلات؛ صوص زبادي بالنعناع والفلفل، المخلل الحار قطع من المانجو يجمع بين المزازة والحلاوة، وطبق الزبادي بالأناناس.

بعد هذه المقبلات تركت لشريف اختيار الطبق الرئيسي، اختار أرز «حيدر أبادي» بالدجاج أو باللحم، ولاسوني تكا.

- سيعجبك ذوقي.

- طبعا.

أتساءل، لماذا اختار شريف مطعما هنديا؟

يقرب شريف طاجن الأرز حيدر أبادي يرفع جارليك بان، من تحت العيش المخبوز تصدمني كثافة رائحة التوابل الذائبة في البخار الساخن، تلهب الحرارة عيني.. تنتابني حالة من السعال.. تنساب الدموع من عيني، يمد شريف يده بعلبة المناديل، «سلامتك يا حبوبة»، يربت على يدي، تستنفر ربتاته، مشاعر قديمة، تبدو محاولته، كمزيد من محاولاتهم القديمة لتنويمي، أستجمع نفسي وأسأله:

- شكرا يا حبيبي، قل لي السر بقى.

لم يظهر اندهاشا أو يناور.

- أريد أن نتشارك في مشروع.

- أي مشروع؟

- لن أحتاج منك سوى 2 مليون جنيه، وسيعودون لك ملايين.

- هل للموضوع علاقة بتجارة الآثار؟

كثيرًا ما يحضر لي قطعة آثار مزيفة، أو حقيقية للحصول على شهادة تفيد بطبيعتها؛ إذا كانت مزيفة، أوضح في تقرير درجة التزييف ونقاط كشف التزييف، وإن كانت أصلية فإلى أي عصر تنتمي، وقيمتها التقريبية. كنت واثقة أن سامر خلف الموضوع، لكن التجارب التي مررت بها تجعلني أتعامل معه بحياد، هى مهمة أقوم بها مثلما أقوم بعمل بطاقات تعريف غيرها من القطع الأثرية في المتحف الكبير.

- بابا، لا يعرف شيئا عن هذه الصفقة.

أردت أن أكسبه وأن يكون بيننا سر، قلت له: أنا سامعة، اشجيني.

- سمعت عن البيتكوين؟

- قرأت اسمها في بعض المواقع.

- هي عملة إلكترونية، نشتريها من مواقع، وفي دبي ممكن نشتريها من ماكينات إيه تي إم.

- كويس، ما دخلي بهذه العملة؟

- أريدك أن تشاركيني، ونشتري 100 بيتكوين بحوالي 61 ألف دولار.

كثيرًا ما يحضر لي قطعة آثار مزيفة، أو حقيقية للحصول على شهادة تفيد بطبيعتها؛ إذا كانت مزيفة، أوضح في تقرير درجة التزييف ونقاط كشف التزييف، وإن كانت أصلية فإلى أي عصر تنتمي، وقيمتها التقريبية. كنت واثقة أن سامر خلف الموضوع، لكن التجارب التي مررت بها تجعلني أتعامل معه بحياد، هى مهمة أقوم بها مثلما أقوم بعمل بطاقات تعريف غيرها من القطع الأثرية في المتحف الكبير.

- بابا، لا يعرف شيئا عن هذه الصفقة.

أردت أن أكسبه وأن يكون بيننا سر، قلت له: أنا سامعة، اشجيني.

- سمعت عن البيتكوين؟

- قرأت اسمها في بعض المواقع.

- هي عملة إلكترونية، نشتريها من مواقع، وفي دبي ممكن نشتريها من ماكينات إيه تي إم.

- كويس، ما دخلي بهذه العملة؟

- أريدك أن تشاركيني، ونشتري 100 بيتكوين بحوالي 61 ألف دولار.

- هل تعلم معنى 61 ألف دولار؟

- سيتضاعف يا ماما، من عشر سنين كان كل 1000 بيتكوين بدولار، حاليا، البيتكوين الواحد بـ610 دولارات.

- شريف، أنا لا أفهم في ما تتحدث عنه، ماذا تعني عملة إلكترونية؟ من يضمنها؟ ثم إنني لا أستطيع أن أطلب من جدك؟

- أنا لا أريد شيئًا من جدي، من حسابك يا ماما، حسابات الدولار؟ حسابات تقييم الآثار، أنا أحتاج تحويلًا واحدًا من حساباتك بالدولار.

نظرت له؛ يتحدث بنبرة لا تخلو من تهديد، ضغط، نبرة ليس فيها بنوة أو استعطاف... صوت ند، وليس تحنان ابن وأم.

منذ الليلة الأولى لميلاد شريف، أخذته حماتي، نام في حضنها، وأنا نمت بجوار ساهر في سريره، كأن شيئا لم يحدث، كأني كنت أمثل، كأن شهور حملي لم تكن حقيقية، كأني ذهبت للمستشفى وعدت من قسم التجهيزات والهدايا بعروسة بلاستيكية، وليس كائنا حيا له متطلباته واحتياجاته.. كأنه سينمو بمفرده دون أن أضحي حتى بليلة أنام فيها بعيدا عن سريره، بعيدا عنه، لم يطلب صراحة أن أترك الطفل لحماتي، لكنه قال: «أنت تعبانة اتركيه الليلة لماما لكي تنامي وتستريحي»، وأنا ببراءة وثقة صدقته، كان مقنعا وكلامه مرتبا، وإن لم يكن منطقيا. لكنه وضع القاعدة، وهي أن أتخلى عن الطفل لأمه، المهم أن ينام دون أن يزعجه أحد.

من أي عبء كنت أتخلص؟ لم أكن أتخلص من أي عبء، لم تكن الأمور واضحة لي، لم أفكر في الأمر، روحي وعقلي كانا مساحة بيضاء خالية من أي ظلال لشك أو خوف أو لهفة، مساحة ساكنة ليست لافحة حارة ولا باردة ثلجية، بيضاء وفقط ليس فيها ما يؤذي أو يجرح أو يفاجئ، دون معنى للأشياء، دون دلالات، دون حساب للخطوة والخطوات التالية، لم أتشبث به ولم يتشبث بي، لم يرضع الصغير مني، أنا التي تميزت بأنوثة متفجرة وكان صدري بشموخه تحت ملابسي مصدر فخر وجذب وحسد.

لم يستطع شريف أن يرضع لأن حلمتي ثديي كانتا غائرتين، لم أكتشف هذا الموضوع أثناء فترة الحمل لأنني كثيرا ما كنت أتغيب عن مواعيد المتابعة الدورية عند طبيب النساء، وربما لم يكن شكلي يوحي بوجود هذا العطب.. أمتلك ثديا جميلا، لم يكن وظيفيا لإطعام طفلي.. حاولت، وأوصتني الممرضة أن أدعكهما بالزيوت المرطبة حتى يستطيع الطفل أن يأكل ويكف عن الصراخ، لكني كنت متعبة من العملية القيصرية وتائهة من تأثير البنج والجرح يؤلمني.. لم أسانده ولم يساندني، نظرت للرضيع كشيء غريب.. لا، حتى هذه النظرة أنا أفسرها الآن، لم يكن هناك غير البلادة والفتور والهمدان.. ليس اكتئاب ما بعد الولادة.. التيه والتوهان.. النوم.. كيف يتوقع أحد أن أستيقظ وخلاياي بعيدة عني، ليس أمامي غير الخمول والنوم حتى لا أفكر، الكل يلومني؛ أنت من تركت طفلك، هل يصدقون أنني لم أكن أمتلك إرادة الإجابة أو الرفض، بدا الأمر دائما وأنهم سيوفرون الراحة لشريف أحسن مني.

في أسبوعي الأول بعد الولادة كنت أتساقط من التعب، وصغيري لا يريد أن يرضع من صدري، لم يخرج البنج من جسدي، كل عضلاتي واهنة، لا تستطيع حمله، تتهاوى كشجرة لبلاب، كنت أحتاج لدعامات، لكن اليد التي امتدت لي، كانت يد حدأة، غراب خاطف، مخالبه قوية، صلبة كأنها واحدة من الآلهة، لا تكل ولا تتعب، تسهر وتسهر، لم تكن تحتاج لراحة، وأنا منعدمة الحيلة. ما بين الألم والضعف، يسهل أن يتم غسل مخك، وتشكيلك كما يهوى الآخرون.. كانت الطرقات خفيفة، متصاعدة؛ «لن تقدري على تربيته، الولد سيموت منك، أنت لست أما أبدا، ما هذه الخيبة، حاسبي، حاسبي.. الولد سيختنق، صدرك كبير عالفاضي، معقول تنامي والولد يبكي؟».

كانت الطرقات واعية متنوعة، مركزة تبدو عفوية، ناصحة، ملهوفة، مسيطرة، كل نقرات الماء كانت: «أنت فاشلة، فاشلة، فاشلة».

خفت، خفت حتى أن ألمسه، كان طريا لدنا، صغيرا وكنت مرعوبة، كل ما أفعله خطأ، قد يختنق في صدري، ذراعي قد تكتم نفسه، لا حيلة لي،

والجرح يؤلمني.. لم اسانده ولم يساندني، نظرت للرضيع كشيء غريب.. لا، حتى هذه النظرة انا افسرها الان، لم يكن هناك غير البلادة والفتور والهمدان.. ليس اكتئاب ما بعد الولادة.. التيه والتوهان.. النوم.. كيف يتوقع أحد أن أستيقظ وخلاياي بعيدة عني، ليس أمامي غير الخمول والنوم حتى لا أفكر، الكل يلومني؛ أنت من تركت طفلك، هل يصدقون أنني لم أكن أمتلك إرادة الإجابة أو الرفض، بدا الأمر دائما وأنهم سيوفرون الراحة لشريف أحسن مني.

في أسبوعي الأول بعد الولادة كنت أتساقط من التعب، وصغيري لا يريد أن يرضع من صدري، لم يخرج البنج من جسدي، كل عضلاتي واهنة، لا تستطيع حمله، تتهاوى كشجرة لبلاب، كنت أحتاج لدعامات، لكن اليد التي امتدت لي، كانت يد حدأة، غراب خاطف، مخالبه قوية، صلبة كأنها واحدة من الآلهة، لا تكل ولا تتعب، تسهر وتسهر، لم تكن تحتاج لراحة، وأنا منعدمة الحيلة. ما بين الألم والضعف، يسهل أن يتم غسل مخك، وتشكيلك كما يهوى الآخرون.. كانت الطرقات خفيفة، متصاعدة؛ «لن تقدري على تربيته، الولد سيموت منك، أنت لست أما أبدا، ما هذه الخيبة، حاسبي، حاسبي.. الولد سيختنق، صدرك كبير عالفاضي، معقول تنامي والولد يبكي؟».

كانت الطرقات واعية متنوعة، مركزة تبدو عفوية، ناصحة، ملهوفة، مسيطرة، كل نقرات الماء كانت: «أنت فاشلة، فاشلة، فاشلة».

خفت، خفت حتى أن ألمسه، كان طريا لدنا، صغيرا وكنت مرعوبة، كل ما أفعله خطأ، قد يختنق في صدري، ذراعي قد تكتم نفسه، لا حيلة لي، وكنت ألعوبة، دون خبرة، وهو لا يريد للصغير أن ينام في غرفتنا؛ «عاوز أستريح.. سكتيه». أقضي الليلة في الصالة، أصاب بدور برد، عطس، كحة، تصرخ حماتي في التليفون: «لا.. كده غلط، الولد سيموت، أنا سآخذه معي». جمعتْ ملابسه، وحملت ابني مني وأنا تائهة ممتنة أنها تنقذ ابني من فشلي، أي جميل طوقت عنقي به! أي فضل!

كم تمنيت أن تموت، أن ترحل، أن تنزاح تتزحزح قليلا من صدارة المشهد، بمجرد أن تحضر تسيطر على كل شيء؛ متى وماذا نأكل، وعندما تعود لبيتها، يفتقد البيت جزءا من أركانه، تعيد ترتيب المطبخ، تتعمد إعادة ترتيب المطبخ قبل أن تسافر فتتركني مشتتة، مبعثرة، أهدر وقتي في البحث عن الأشياء تستنزف هذه التفاصيل أعصابي، فأصير منهكة بين البحث في عالم لا يستقر له مقام وبين محاولة الوصول إلى طعم الأكل الذي تطبخه، كانت هي المعيار، وأنا دائما دون المستوى حتى لو كان ما أطبخه أكثر جودة؛ «لكنه ليس طعم مسقعة ماما» وإذا جربت أصنافا جديدة؛ «لالالا لم نتعود هذه الأصناف»، حتى ملابسي كانت تشتريها لي، ملابس طفلي، تغذيتهما، نومهما، كنت غريبة مقيمة دائما في بيت للمغتربات حيث لا أحد يساندك أو يتواطأ معك.

انتابتني حالة من السعال.. وفاضت عيناي بالدموع، مد شريف يده بعلبة المناديل، بدت محاولته، كمزيد من محاولاتهم القديمة، محاولة لتتويمي، أدرك حالتي، الذعر هو حالتي ليس لديّ القدرة للسيطرة على شيء في حياتي، أسافر وقتما يحددون، آكل وقتما يقررون،
لا شيء أستطيع أن أطعمه سوى قطعة الباتيه الدافئة التي آكلها، أضعها في الحقيبة، آكلها في غرفتي، سرقات صغيرة؛ موزة، تفاحة، ملعقتا أرز، كوب لبن، قطعة كيكة، حتى طبقي تملؤه كما تريد، أنهي طبقا أكبر من احتياجي ويظل خوائي يتمدد داخلي حتى يبتلعني.

تستأثر حماتي بشريف، أحاول الاقتراب منه، التواصل معه، تصرخ: لا تأكليه أنا أكلته.. حاسبي عليه، وعندما أبدي ملحوظة عابرة: أليس متأخرا أن يسهر هكذا؟ أنت ستضايقين الولد في اليوم الذي تأتين فيه؟

لم يخبرني أحد أن الأمومة فطرة، وليست قدرة وأن ما أفعله لابني وهو في حضني لن يضره، لم يرني الآخرون أمًّا فاشلة، يحتاج طفلها لرعاية لا تستطيع توفيرها.. لا توجد أم فاشلة، لم يلحظوا توهاني وتيهي وعجزي، لم يلمس أحدهم جلدي المتكلس ولا اشتم رعبي، بالنسبة لهم أنا امرأة تبحث عن راحتها، باعت ابنها لتشتري رضا زوجها.

تصورت أن الأمومة مستحيلة وأنها منحة يعطيها الله لبعض النساء ويحرمها عن البعض الآخر، وارتضيت بقدري، لكن الدوامة التي جعلتني أنفر من قريباتي، وزميلاتي في العمل، هي اتهامهم لي بأني أضر ابني وأنني سأدفع الثمن، وأنني سأفقد ابني للأبد. من أصدق؟ هم أيضا قساة يتباهون بمنحة أعطاهم الله إياها وحرمني منها، الأمومة منحة، أزور شريف كل أسبوع، أسبوعين، لم يكن يزيد بعادي عنه شهرا، كل فقد، كل خواء هو أبدية دائمة، الوقت يمر ببطء، متى ينتهي اليوم؟ متى تأتي ساعة نومي، باقٍ من الزمن ست ساعات، ساعتان، ساعة، الوقت يمر ببطء وجسدي يعلن عن حاجته للراحة، آخذ مضادات للأكسدة، حبوب الشاي الأخضر، أشرب القهوة الخضراء والنسكافيه كي تظل عيناي مفتوحتين، كي لا أسقط من التعب، أحتاج إلى قوة حصان، ساقي فيل تجران الكرة الأرضية، أريد أن أنام، أن ينقطع اتصالي عمن حولي تنفك روابطي بهم، تتحلل، أنفك من قيدهم.. هدنة، استراحة، أستعيد فيها طاقتي المنهوبة المسلوبة، أشحن بطاريتي، كي أواصل ركضي النهاري اليومي في المضمار الجهنمي، فترة من الزمن يسترد فيها الجسم طاقته وحيويته المفقودة ليبدأ يوم جديد.

يستهلك جسدي كل طاقته، فيرسل إشارات إلى مخي، وحده مخي يفهم إشارات جسدي يستجيب لها، فأبدأ في الشعور بالنعاس وأدخل في النوم حتى لو كنت موجودة في أي مكان، يهزني زوجي، يصرخ فيّ: كسفتيني. لكني لم أعد أتأثر بصراخه، وكيف وهو الذي يصر على التعامي وعدم الشعور بي أو الانتباه إلى أن طاقتي تنفد، هل يلوم أحد السيارة إذا توقفت بعد أن نفد بنزينها؟

تصورت أن الأمومة مستحيلة وأنها منحة يعطيها الله لبعض النساء ويحرمها عن البعض الآخر، وارتضيت بقدري، لكن الدوامة التي جعلتني أنفر من قريباتي، وزميلاتي في العمل، هي اتهامهم لي بأني أضر ابني وأنني سأدفع الثمن، وأنني سأفقد ابني للأبد. من أصدق؟ هم أيضا قساة يتباهون بمنحة أعطاهم الله إياها وحرمني منها، الأمومة منحة، أزور شريف كل أسبوع، أسبوعين، لم يكن يزيد بعادي عنه شهرا، كل فقد، كل خواء هو أبدية دائمة، الوقت يمر ببطء، متى ينتهي اليوم؟ متى تأتي ساعة نومي، باقٍ من الزمن ست ساعات، ساعتان، ساعة، الوقت يمر ببطء وجسدي يعلن عن حاجته للراحة، آخذ مضادات للأكسدة، حبوب الشاي الأخضر، أشرب القهوة الخضراء والنسكافيه كي تظل عيناي مفتوحتين، كي لا أسقط من التعب، أحتاج إلى قوة حصان، ساقي فيل تجران الكرة الأرضية، أريد أن أنام، أن ينقطع اتصالي عمن حولي تنفك روابطي بهم، تتحلل، أنفك من قيدهم.. هدنة، استراحة، أستعيد فيها طاقتي المنهوبة المسلوبة، أشحن بطاريتي، كي أواصل ركضي النهاري اليومي في المضمار الجهنمي، فترة من الزمن يسترد فيها الجسم طاقته وحيويته المفقودة ليبدأ يوم جديد.

يستهلك جسدي كل طاقته، فيرسل إشارات إلى مخي، وحده مخي يفهم إشارات جسدي يستجيب لها، فأبدأ في الشعور بالنعاس وأدخل في النوم حتى لو كنت موجودة في أي مكان، يهزني زوجي، يصرخ فيّ: كسفتيني. لكني لم أعد أتأثر بصراخه، وكيف وهو الذي يصر على التعامي وعدم الشعور بي أو الانتباه إلى أن طاقتي تنفد، هل يلوم أحد السيارة إذا توقفت بعد أن نفد بنزينها؟

يشعرني دائما بحاجته إليّ، وأنه لا يستطيع الاستغناء عني في العمل، في تفاصيل الحياة، كان متطلبا، لا يتصرف في العمل دون رأيي، لكن في حياتنا لم يكن لي رأي، حياتنا تسيرها أمه وأبوه، وأنا أسير العمل، آخذ قرارات الشركة التي أسسناها، أتصل بشركات لتنظيم أفواج سياحية، أتخذ القرارات المالية والإدارية بالشركة، لكني لا أستطيع اتخاذ قرار بشراء بلوزة أو فستان أريدهما، أو أي شيء أحتاجه، حتى نوع الأكل، أيام الإجازة، كيفية تمضية الوقت.. كنت في حالة توهان في قلب زحمة.

قبل ميلاد شريف ورثت أمه بيتا في «بورسعيد» وخشيت أن يستولي عليه إخوتها فقرروا فجأة نقل حياتهم لبورسعيد.. اعتقدت أن هذا سيريحني من كثير من المنغصات الصغيرة، وسيجعلني أتحكم في حياتي، ولكن ما حدث أن الحياة بتفاصيلها أصبحت ممتدة من المعادي إلى بورسعيد، وزاد عليها إرهاق السفر كل نهاية أسبوع إلى والديه. نسافر الخميس بعد أن أعود من العمل وأحضر له الغداء وأنظف البيت، في الوقت الذي أجهز أنا الغداء وشنطة السفر يكون هو نائما أو يشاهد التلفزيون مستريحا، مسترخيا.. تصدر منه تعليمات: لا تنسي المايوه الأزرق، البنطلون الرمادي غير مكوي، هل اخترت مقاعد جيدة في السوبرجيت أم كالعادة استغفلوك؟ أخرج التذكرتين من حقيبتي، أعطيهم لي كي لا تنسيهم، يرفض أن نسافر بسيارته، أتأكد من غلق جميع الشبابيك، لفي لي باقي اللحمة في ساندوتش.

أظل أدور وأدور حتى نغلق باب الشقة.. مجرد أن أركب «السوبرجيت» ويأخذ السائق في تشغيل الفيديو، يبدأ جفناي في التثاقل.. أتمنى أن أغمض عينيّ ربع ساعة، عشر دقائق، يقولون: إن القيلولة مفيدة.. أريد أن أفصل بعضا من الوقت كي أعيد الشحن، لكنه لا يستطيع أن يجلس بمفرده: عادل إمام عفريت، هو أحسن ولا سعيد صالح؟ أنتبه، أرد عليه: الاتنين كويسين، يغضب: «الواحد حاسس إنه عازب، أول ما تقعدي معي عاوزه تنامي تنامي، خم نوم، ماتشوفي الستات عاملة إزاي، ومالك مدهولة في نفسك، شوفي بتأكله في بقه إزاي؟» أصلب نفسي، أخرج منديلا مبللا أمسح وجهي وأمسك بذراعه: لا تزعل، اسألني سأجاوب، لكنه ينتر ذراعي بغضب.. وأنا أخاف أن يغضب لم أكن أعرف ما الذي سيغضبه تحديدا، أشياء صغيرة، غير متوقعة، ضحكة، كلمة، رأي في برنامج تلفزيوني، أو مسلسل، حتى السرحان... اكتشفت منذ أسبوعنا الأول أنني تزوجت طفلا في جسم رجل، تمنيت ألا أنجب، هذا الطفل يرهقني عصبيا ونفسيا، الاستحواذ هو هدفه، لفت الانتباه، لست حبيبته.. أنا فقط من تتحمل غضبه.

تتقلص دوائر علاقاتي، مع ابني، أبي، قريباتي، زميلات العمل، لتبقى دائرة واحدة هي دائرته فقط، هربنا من كل المدن، كي أبقى له وحده.. لكن جوعه لم يكن يشبع أبدا.

عندما يخلد للنوم، أتنفس الصعداء ياه، انتهى يوم، بثقله وجراحاته، يوم وعدى، الحمد لله، وأتمنى أن تمضي بقية الأيام..

لكن ألفة الأيام تتوارى، حتى إحساسي بالبيت يتلاشى، تتمحي من الذاكرة كل ألفة صنعتها البهجة، الفرحة، الصخب، الحوادث المتلاحقة.. أحداث كثيرة ومواقف وضجيج مبهج لكنه مختلف، شيء فيّ غير متزن كأني في حلزونة لا أدري هل هذه صرخات فزع أم بهجة، هناك صرخات كثيرة حولي، لكني أعرف أنني أصرخ فعلا، وأنني خائفة ومضطربة وفاقدة لاتزاني، حامض مر يصعد من معدتي مع كل هذه الشقلبات الجديدة، لا يبدو جسدي في حالة اتزان، يتلقى ضربات من كل اتجاه، صفعات خفيفة تبدو مرحة لكنها تترك بصماتها على جلدي رضوض متدرجة الألوان بين الأصفر والأزرق والبنفسجي الغامق. بدأت الملاحظات الناقرة مبكرا لكني لم أنتبه.. ربما في ليلتي الأولى، بعد أن وصلنا لشقتنا، أخذت أمه تدخل كل غرفة، الحمامات، وفي المطبخ صرخت: ما هذه الأطباق؟

أنزلت كل الأطباق، التي خصصتها للاستخدام اليومي. وصعدت لشقتها ووضعت مكانها ستة أطباق بيركس عسلية اللون، تضايقت، وشعرت بالحرج وعدم الفهم، في هذه اللحظة ابتسم لي:

- نحن لا نأكل في الأطباق الملامين.

جوعه لم يكن يشبع أبدا.

عندما يخلد للنوم، أتنفس الصعداء ياه، انتهى يوم، بثقله وجراحاته، يوم وعدى، الحمد لله، وأتمنى أن تمضي بقية الأيام..

لكن ألفة الأيام تتوارى، حتى إحساسي بالبيت يتلاشى، تتمحي من الذاكرة كل ألفة صنعتها البهجة، الفرحة، الصخب، الحوادث المتلاحقة.. أحداث كثيرة ومواقف وضجيج مبهج لكنه مختلف، شيء فيّ غير متزن كأني في حلزونة لا أدري هل هذه صرخات فزع أم بهجة، هناك صرخات كثيرة حولي، لكني أعرف أنني أصرخ فعلا، وأنني خائفة ومضطربة وفاقدة لاتزاني، حامض مر يصعد من معدتي مع كل هذه الشقلبات الجديدة، لا يبدو جسدي في حالة اتزان، يتلقى ضربات من كل اتجاه، صفعات خفيفة تبدو مرحة لكنها تترك بصماتها على جلدي رضوض متدرجة الألوان بين الأصفر والأزرق والبنفسجي الغامق. بدأت الملاحظات الناقرة مبكرا لكني لم أنتبه.. ربما في ليلتي الأولى، بعد أن وصلنا لشقتنا، أخذت أمه تدخل كل غرفة، الحمامات، وفي المطبخ صرخت: ما هذه الأطباق؟

أنزلت كل الأطباق، التي خصصتها للاستخدام اليومي. وصعدت لشقتها ووضعت مكانها ستة أطباق بيركس عسلية اللون، تضايقت، وشعرت بالحرج وعدم الفهم، في هذه اللحظة ابتسم لي:

- نحن لا نأكل في الأطباق الملامين.

أسنانه ناصعة البياض، تبرق بشكل مبالغ فيه، وكان بريقها صاعقة ألجمتني، فلم أتكلم، ولم أدافع عن اختياراتي، بل شعرت بالخزي.. بالتواضع.. وازداد فارق الطول بيننا وغطاني ظله المفرود على الحائط.. وكانت بداية الشك والتسفيه لكل ما أقوله وأفعله.. وعرفت معنى توزيع الأدوار.. هناك من يباغتني أو يهاجمني منهم.. قد تكون والدته رأس الحربة أو هو أو والده.. يتبادلون الأدوار.. بحيث لا يزيد الضغط حتى يصل إلى الانفجار، الدائرة دائمة مغلقة، محكمة.. ودائمة أنا.. سرحانة، مشوشة، لم أركز، فهمي بطيء، لا أنفذ المطلوب تماما. أفعل كل شيء إلا كثيرا، لا شيء تمام، لا شيء مما أفعله يرتقي للمستوى المتوقع.. تصدير الإحساس الدائم بالخسارة، وأنني دون المستوى ودون التوقعات.

بكل استسلام تشوهت صورتي لديّ.. كنت كطفل.. يزرعون فيه الإحباط وعدم الثقة.. كما لو أنني في معسكرات تعذيب.. في جهاز مخابرات.. لم يكونوا يحتاجون مني لاعترافات.. كان كل شيء في حياتي واضحا وصريحا.. حكيته له عندما التقينا.. وكل ما كنت أرويه بصدق وعفوية كان يؤخذ ضدي.. يوظف للاستشهاد على صحة موقفهم ونظرتهم الدونية لي، رغم تملقهم الشديد لأبي والمباهاة بصهرهم اللواء السابق في أمن الدولة، والحديث الممطوط لأقاربهم عن أطيان عائلتي في المنيا، بفخر واستقواء، ووحدي أستمع لانتقادات ومعايرات، وهو سيادة اللواء لماذا أحيل للمعاش المبكر؟ تعذيب أم اختلاس؟ هو أنتم محتاجين؟ لكن الإنسان عينه فارغة، لازم يحاكموا كل رموز النظام الفاسد، حتى لو على المعاش هيتحاكم هيتحاكم.. لم يكن هناك مقدمات أو مواعيد منضبطة لجلسات التقويم النفسي التي أتلقاها، لم يكن هناك نظام أو ترتيب معين للخناقات.. فجأة يتصاعد صراخ من فم أحدهم، وفجأة تهدأ العاصفة، وتسترد وجوههم راحة مقبضة، ويتلقى جلدي ابتسامات، وبريق أسنان وكلمات؛ «يا حبيبتي، خدي بالك، نعرف أنك لن تفعلي ذلك مرة أخرى، جهزي كوبيتين شاي.. أين علبة البتيفور؟».

أرتجف، داخليا وخارجيا، تهتز يدي وأنسحب للمطبخ، أو أظل جالسة في مكاني، تنهمر الدموع مني، على الكرسي نفسه، ولا أحد يراني، كأنه لم يحدث شيء، في كثير من المرات أظل أبكي حتى أتعب وأكف وحدي عن البكاء، دون اعتذار أو طبطبة، هذا الدلع أو الدلال الذي يجعل البعض يبكي كي يتعاطف معه المحيطون به أو يشفقوا عليه، رفاهية لم تكن متاحة لي، لم يكن صوت نشيجي يفسد عليهم متعة مشاهدة مباراة السوبر بين الأهلي والزمالك أو مصارعة المحترفين، أو فيلم «محمد سعد» الجديد، ولم يكن يحلو له أن ينام معي.. إلا بعد هذه المشادات وجلسات التعذيب.

في اليوم الرابع لزواجنا دخلت أستريح بعد الغداء، وفجأة شعرت بجسد يرتطم بي، صحوت فزعة، «اصحي، إيه ده نايمة ليه؟ قومي اعملي لي شاي».. انتفض كل جسدي، ظللت أرتجف وأنا لا أعي أين أنا، وسط ارتجافي الذي لم يسكنه كل محاولاتي للتماسك، وجدت نقطا من البول في ملابسي الداخلية، قدمت له الشاي وجلست متكومة على نفسي، قبل أن يكمل الكوب، اقترب مني وسحبني لغرفتنا.. نام فوقي كان ثقيلا.. ثقيلا وكان جسدي ما زال يرتجف خوفا.. وعضوه يخترقني ويضاعف من خوفي وألمي كسوط، كجرح يضيف عليه مزيدا من الملح، خفت أن أبكي، أصابني الخرس، بعد أن انتهى نزل عني ونام. وبقيت أنا مستيقظة.. والدموع فقط هي الشيء الحي الوحيد الذي يتحرك فيّ بشكل خطي، بينما عضوي وكل خلاياي تتحرك حركات مضطربة مرتجفة، حركات عشوائية متخبطة.

في أول الأمر كنت أدافع عن نفسي وأشترك بجدية في دائرتهم أحاول أن أدافع عن موقفي.. أوضح وجهة نظري، لكن بعد موقف اثنين.. ثلاثة.. عشرة انسحبت من الدائرة وجدتهم لا يسمعون.. مهما قلت لا يسمعون.. كأنهم محطة بث إذاعي لا يوقفها غير فصل الكهرباء وكانت طاقاتهم لا تنفد وقدرتهم على الجدل لا تنتهي.. بدوا ككائنات فضائية.. مضبوطة على تردد معين.. وكنت أستنزف طاقتي، أعصابي وصوتي وأنجر معهم لمستنقع تغوص أقدامي فيه، لم يكن صمتي كافيا لكسر الدائرة الكهربية.. لقطع التيار.. كان وجودي ذاته هو المكمل للدائرة الجهنمية، لم يكن هناك من حل غير أن أفتح الباب وأخرج، لكني لم أفعل.

وسقطت في بئر حساسية الصدر.. ينادي سامر: شريف، تعال، والنبي ها، هذا منظر! تعبانة؟! لن تجهز لنا العشاء.. تعال نتعشى في مطعم

في اليوم الرابع لزواجنا دخلت الشريط بعد العداء، وفجأة سمعت بجسد يرتطم بي، صحوت فزعة، «اصحي، إيه ده نايمة ليه؟ قومي اعملي لي شاي».. انتفض كل جسدي، ظللت أرتجف وأنا لا أعي أين أنا، وسط ارتجافي الذي لم يسكنه كل محاولاتي للتماسك، وجدت نقطا من البول في ملابسي الداخلية، قدمت له الشاي وجلست متكومة على نفسي، قبل أن يكمل الكوب، اقترب مني وسحبني لغرفتنا.. نام فوقي كان ثقيلا.. ثقيلا وكان جسدي ما زال يرتجف خوفا.. وعضوه يخترقني ويضاعف من خوفي وألمي كسوط، كجرح يضيف عليه مزيدا من الملح، خفت أن أبكي، أصابني الخرس، بعد أن انتهى نزل عني ونام. وبقيت أنا مستيقظة.. والدموع فقط هي الشيء الحي الوحيد الذي يتحرك فيّ بشكل خطي، بينما عضوي وكل خلاياي تتحرك حركات مضطربة مرتجفة، حركات عشوائية متخبطة.

في أول الأمر كنت أدافع عن نفسي وأشترك بجدية في دائرتهم أحاول أن أدافع عن موقفي.. أوضح وجهة نظري، لكن بعد موقف اثنين.. ثلاثة.. عشرة انسحبت من الدائرة وجدتهم لا يسمعون.. مهما قلت لا يسمعون.. كأنهم محطة بث إذاعي لا يوقفها غير فصل الكهرباء وكانت طاقاتهم لا تنفد وقدرتهم على الجدل لا تنتهي.. بدوا ككائنات فضائية.. مضبوطة على تردد معين.. وكنت أستنزف طاقتي، أعصابي وصوتي وأنجر معهم لمستنقع تغوص أقدامي فيه، لم يكن صمتي كافيا لكسر الدائرة الكهربية.. لقطع التيار.. كان وجودي ذاته هو المكمل للدائرة الجهنمية، لم يكن هناك من حل غير أن أفتح الباب وأخرج، لكني لم أفعل.

وسقطت فريسة لنوبات حساسية الصدر.. ينادي سامر: شريف، تعال، والنبي هل هذا منظر! تعبانة؟! لن تجهز لنا العشاء.. تعال نتعشى في مطعم.. كنت ملقاة على السرير.. لا شيء يتحرك فيّ غير أنفاسي.. زفرات بطيئة، لمن ليس لديه شيء سوى الوقت، تتبعها شهقة أو شهقات متسارعة.. رؤيتي كانت غائمة، لكن أذنيّ كانتا حادتين كسيف ينتظر أداء مهمة. واربا باب الغرفة.. وتأكدا من غلق باب لشقة بتكتين من المفتاح. ظللت في وحدتي مكبلة بحزني وخدري.. وألم يسري منسابا في سلام دون مقاومة أو اعتراض مني. لم أدافع عن نفسي، ولم يدافع أحد عني.. لم أتوقع أي شيء حتى أن يقترب ابني مني ويرى ما بي، أن يحزن، أن يجزع، أن يظهر لهفة ما، قلقا ما.. لم يحدث أي شيء، ولم أكن أتوقع شيئا، ولكن بعد أن تأكدت من هذه اللا مبالاة، من هذه القسوة، تمنيت لو أنه سأل: «مالك يا ماما»، لو أنه نادى: «ماما ماما»، أنه بكى: «ماما ماما». كان كبيرا في الثامنة.. هل كان كثيرا لو احتضنني ومنحني بعضا من حياة، بعضا من أمل يحيي الموتى، هل كان كثيرا أني تمنيت أي شيء؟ تمنيت وتمنيت ولم أجد غير دمعة واحدة طفرت من عيني اليسرى، دمعة، حارة، ثقيلة، وحيدة مثلي.. كنت بلا جدوى أو قيمة.. سوى تجهيز العشاء.

سألني شريف:

- ماما، متى ستعطيني النقود؟

وضعت الملعقة في كأس الآيس كريم بجوز الهند، أزحت الجوز المبشور فوق اللون الأبيض الحليبي، لم تكن هناك حاجة لمزيد من الزخرفة.

يسري صالح

تعلم هند جيدا أنني لا أريد العودة لمغاغة، لكنها تصر هذه المرة وتتحدث بلغة الأخوَّة والسند، منذ سنوات كفت عن استخدام كلمات العائلة والأصول بعد أن وجدت أن هذه الكلمات لا تحرك ساكنا في ضميري، شقيقتي «الصغيرة» تمتلك من الذكاء الفطري ما يجعلها تستخدم السلاح الفتاك في المعركة المناسبة.

على العكس مني، لم تنقطع صلة هند بالبلد والأطيان والفلاحين، في تبادل للأدوار لم يسبب لي أي حرج نفسي أو روحي حتى أن سراي أبي وجدودي، يطلقون عليها «سراية الست»، أثبتت الأيام أن قرار أمي بعد غياب أبي بأن نبتعد عن البلدة وأن نقيم في «المنيل» وإصرارها الشديد على عدم التحدث عن البلدة أو استعادة ذكريات وتاريخ عائلتنا قد وجد راحة لديّ.. راحة خففت من ألمي وعذابي وأسدلت ستائر كثيفة على ماضيّ، جعلتني أصدق أن ما شاهدته وأن ما حدث كان محض خيال. ساعد على ذلك عودة أبي بعد سنوات قليلة، وانخراطه في أعمال المقاولات ونسيانه -ظاهريا- للأطيان التي تسببت في هزيمته وتقزيمه. تكاد تكون هند صورة طبق الأصل من جدتي «هنية» التي لم تقبل هزيمة ابنها وتوزيع الأراضي التي ورثتها عن جدودها هكذا ببساطة وبمجرد قرار من بكباشي لم يكن ليجرؤ على المرور أمام سراي «شهاب» باشا راكبا، رغم أنها تعلم أن جدودها لم يكونوا أكثر من مغامرين هربوا بجلدهم من الجوع والموت في الجزيرة العربية، واستقروا في المنطقة وعملوا واجتهدوا وقدموا خدمات للوالي وأحفاده

يسري صالح

تعلم هند جيدا أنني لا أريد العودة لمغاغة، لكنها تصر هذه المرة وتتحدث بلغة الأخوَّة والسند، منذ سنوات كفت عن استخدام كلمات العائلة والأصول بعد أن وجدت أن هذه الكلمات لا تحرك ساكنا في ضميري، شقيقتي «الصغيرة» تمتلك من الذكاء الفطري ما يجعلها تستخدم السلاح الفتاك في المعركة المناسبة.

على العكس مني، لم تنقطع صلة هند بالبلد والأطيان والفلاحين، في تبادل للأدوار لم يسبب لي أي حرج نفسي أو روحي حتى أن سراي أبي وجدودي، يطلقون عليها «سراية الست»، أثبتت الأيام أن قرار أمي بعد غياب أبي بأن نبتعد عن البلدة وأن نقيم في «المنيل» وإصرارها الشديد على عدم التحدث عن البلدة أو استعادة ذكريات وتاريخ عائلتنا قد وجد راحة لديّ.. راحة خففت من ألمي وعذابي وأسدلت ستائر كثيفة على ماضيّ، جعلتني أصدق أن ما شاهدته وأن ما حدث كان محض خيال. ساعد على ذلك عودة أبي بعد سنوات قليلة، وانخراطه في أعمال المقاولات ونسيانه -ظاهريا- للأطيان التي تسببت في هزيمته وتقزيمه. تكاد تكون هند صورة طبق الأصل من جدتي «هنية» التي لم تقبل هزيمة ابنها وتوزيع الأراضي التي ورثتها عن جدودها هكذا ببساطة وبمجرد قرار من بكباشي لم يكن ليجرؤ على المرور أمام سراي «شهاب» باشا راكبا، رغم أنها تعلم أن جدودها لم يكونوا أكثر من مغامرين هربوا بجلدهم من الجوع والموت في الجزيرة العربية، واستقروا في المنطقة وعملوا واجتهدوا وقدموا خدمات للوالي وأحفاده جعلتهم يمتلكون هذه الأطيان.

لا تقبل جدتي هذه التفسيرات.. تنسى تلك الوقائع وتتذكر مآثر جدها الكبير وشقيقه، سلسال طويل تروي عنه ما يزينه حتى تصل لأبيها الباشا صاحب النفوذ والهيمنة عند الخديوي «عباس حلمي» وزوجها الباشا عضو مجلس النواب في عهد الملكين فؤاد وفاروق تحتفظ جدتي في حجرتها بحجج الأرض والوثائق والنياشين وتؤثر هند بمشاهدتها، بعد أن يئست من تحمل ذاكرتي لذلك الإرث، فملأت رأسها بكل تاريخ وأسرار العائلة.. من بلاد بعيدة وارتحالات تسري في العروق، ولاء لوالٍ فنفوذ وأرض وأملاك، اختلاف مع خديوي فحروب وردَّة وتشريد في الأرض.

تختلط الأنساب والحدود، لا تستطيع أن تتمسك بقواعدك وقوانينك طوال الوقت، بعد نفي في الصحراء يعود جدي وشقيقه لمديرية الشرقية، يحاولون استعادة أملاكهم المنهوبة، لكن الحقوق المسلوبة تحتاج لقوة لم تتوفر لشابين، عرضوا عليهم العمل كأُجراء، لكن روح المغامرة جعلتهم يرفضون العمل لدى أحد، فليكن عملهم وكدهم لأنفسهم ليس أمامهم إلا العمل فاشتروا قطعة أرض تلو الأخرى، حتى صارت أطيانا، وتشعبت حياتهم وحياة الجيل الذي يليهم بين الأرض والسياسة وانضم جدي الأكبر لحزب الوفد، وحصل على الباشوية، وتزوج وأنجب خمسة أبناء ذكور وفتاة جميلة، جدي واحد منهم.

تقول هند إنني أشبه جدي شهاب الدين.. ربما أشبهه شكلا، لكني لم أمتلك يوما يقينه وقدرته على الدفاع عن رأيه أو قضيته، ورثها أبي، رغم أنه لم يكن شبيها له من حيث الشكل، لم يمتلك أبي كياسة جدي الذي أسس مستشفى مغاغة، وشارك في وضع أول دستور مصري، شابهه في حميته واندفاعه ورفضه المساواة المطلقة، التي تساوي بين الغفير والوزير، لكنه يؤمن بالاجتهاد والعمل وهو يحكي كفاح والده وعمه لامتلاك الأطيان والأرض، ورفض علنا وصراحة في البرلمان قانون تحديد الملكية.

تحاول هند أن تستفيد من كل الظروف، حتى أنها احتفظت بتعيينها في وزارة الثقافة، وتم إحالتها للمعاش وهي على درجة وكيل وزارة.

زوجها لا تقل أراضيه عما تبقى من أراضينا، لا يستطيع قطع صلته بحزب الوفد، رغم أن جدي أحد مؤسسي الأحرار الدستوريين، حزب الوفد الجديد يمثل كل ما تبقى من أحزاب قديمة.

حاولت أن أبتعد عن حكايات الإقطاعيين، يا بخت أبوك، هو صحيح كان عندكم سجن تحت الأرض!!

فقدت جدتي الأمل في أن أكون وريثها، واعتبرت أن هند هي الوريثة.. وأنني مجرد فرع شجرة ومال بعد أن أصرت أمي على دخولي كلية البوليس، وذهبت إلى المشير «عامر» في بيته في الجيزة تطلب وساطته، كلتا السيدتين أمي وجدتي كانتا تبحثان عن النفوذ كلٌ بمنطقها الخاص. وكان قبولي بكلية البوليس يجعلني أتماهى مع الغيوم التي تجول في ذاكرتي وتؤرق روحي.

أنهت هند دراسة ليسانس الآداب قسم اللغة الفرنسية من جامعة القاهرة، وما إن تزوجت حتى استقرت في «المنيا»، وأشرفت بشكل كامل على ما بقى من أراضينا، وتولت مسئولية البيع والشراء، بل كانت وكيل العائلة في القضايا التي رفعتها ضد الحكومة لاسترداد مساحات من أراضي الإصلاح أو من الأراضي التي تحولت إلى مصالح ومنشآت حكومية .الغريب أن الفلاحين الذين استفادوا من توزيع الفدادين عليهم، كانوا هم وأبناؤهم من يساعدونها ويشهدون لصالحنا في المحاكم.

رغم رصانة وتماسك هند فإنك لا تستطيع في كل الأحوال أن تتنبأ بقدرتها على العمل أو طبيعة خطواتها القادمة. وعندما اتصلت بي هاتفيا وأخبرتني بقرارها برفع دعوى خلع من زوجها، ألقت أمامي بحجر في بحيرة حياتها الهادئة المستقرة على السطح.

- يطلقني في هدوء.

- لماذا؟

فقدت جدتي الأمل في أن أكون وريثها، واعتبرت أن هند هي الوريثة.. والتي مجرد فرع سجره ومال بعد أن اصرت أمي على دخولي كلية البوليس، وذهبت إلى المشير «عامر» في بيته في الجيزة تطلب وساطته، كلتا السيدتين أمي وجدتي كانتا تبحثان عن النفوذ كلٌ بمنطقها الخاص. وكان قبولي بكلية البوليس يجعلني أتماهى مع الغيوم التي تجول في ذاكرتي وتؤرق روحي.

أنهت هند دراسة ليسانس الآداب قسم اللغة الفرنسية من جامعة القاهرة، وما إن تزوجت حتى استقرت في «المنيا»، وأشرفت بشكل كامل على ما بقى من أراضينا، وتولت مسئولية البيع والشراء، بل كانت وكيل العائلة في القضايا التي رفعتها ضد الحكومة لاسترداد مساحات من أراضي الإصلاح أو من الأراضي التي تحولت إلى مصالح ومنشآت حكومية .الغريب أن الفلاحين الذين استفادوا من توزيع الفدادين عليهم، كانوا هم وأبناؤهم من يساعدونها ويشهدون لصالحنا في المحاكم.

رغم رصانة وتماسك هند فإنك لا تستطيع في كل الأحوال أن تتنبأ بقدرتها على العمل أو طبيعة خطواتها القادمة. وعندما اتصلت بي هاتفيا وأخبرتني بقرارها برفع دعوى خلع من زوجها، ألقت أمامي بحجر في بحيرة حياتها الهادئة المستقرة على السطح.

- يطلقني في هدوء.

- لماذا؟

- بعد زواج الأولاد أريد أن أعيش ما تبقى لي في سلام.

- ماذا فعل؟

- لم يفعل شيئا، أريد حريتي، لم أعد أطيق شريكا لحياتي.

- معقول هند العاقلة تقول هذا الكلام؟

- اسمع، أنا أتصل بك كي تقنعه، سيطلقني بهدوء، أو سأكون في المحكمة غدًا وأقدم أوراق الخلع.

تعرف هند أن قدمي لم تطأ أرض مغاغة وسراي صالح شهاب الدين منذ خمسين عاما، وأنني راوغت كثيرا كي أتجنب فتح البئر المغلقة، خوفا من حيَّاته التي تنهش ذاكرتي.

تتجمع الأصوات كأنها نذير.. وغبار ودوامات من الهمهمات والزعيق من خلف الأبواب، تتداخل أصوات جدتي وأبي وأمي:

- أبوك سيد كبير، لكن غضبه يجعله عبدًا.

الكبير لا يغضب. يقسو، يعنف لكنه لا يغضب، الغضب يفقد الكبير وقاره. القسوة، الغلظة، لكن الغضب يعمي، وعندما تعمى، ألف من يقودك للهاوية.

- أعرف.

- لكن الوقت تغير.

- يريدون أن يأخذوا أملاكنا، ويعطوها للجرابيع.

- نصبر، ونرى.

- كل حجج الملكية معك مختومة من الباب العالي.

- لا تسمع لهم.

- لقد كبرت، ونسيت هل كان سيحدث لو كان الباشا موجودا؟

- يريدون القضاء على كل المالكين.

- هيبتنا أن نكون مع السلطة، لا يوجد شيء مطلق.

- اسمع كلام الهانم الكبيرة.

- نحن أحرار، من يمس هذه الأرض سأدفنه فيها.

- في الحديقة الخلفية يجتمع ما يزيد عن ثلاثين رجلا.

- لماذا تجمعهم؟

- هذا جس نبض، وإذا رأوا العين الحمراء، لن يستطيعوا، سيرتدعون.

على خيولهم خرجوا في الطريق الضيق، وهاجموا المركز، أصابوا المأمور في مغاغة، أشعلوا الحريق، في الفجر كانت المدرعات تدك الزرع

- لا تسمع لهم.

- لقد كبرت، ونسيت هل كان سيحدث لو كان الباشا موجودا؟

- يريدون القضاء على كل المالكين.

- هيبتنا أن نكون مع السلطة، لا يوجد شيء مطلق.

- اسمع كلام الهانم الكبيرة.

- نحن أحرار، من يمس هذه الأرض سأدفنه فيها.

- في الحديقة الخلفية يجتمع ما يزيد عن ثلاثين رجلا.

- لماذا تجمعهم؟

- هذا جس نبض، وإذا رأوا العين الحمراء، لن يستطيعوا، سيرتدعون.

على خيولهم خرجوا.. في الطريق الضيق.. وهاجموا المركز، أصابوا المأمور في مغاغة، أشعلوا الحريق، في الفجر كانت المدرعات تدك الزرع وتهد سور السراي، تتعالى أصوات الهدد، وصيحات الجنود الذين ساقوا أبي في بيجامته، واحتلوا السراي.

كان الاقتحام بمقدار إعادة هيبة الدولة، أقيمت محكمة في المنيا، ظل أبي يصرخ في غضب: يا أوباش هذه أرضي وأرض أبويا. من أعطاه الأفيون كي يهدأ؟ حكم عليه بالمؤبد، لم ينطق أحد، رحلنا في موكب صامت.

في السراي أخذت أمي تدور حول نفسها ماذا نفعل؟ نطقت جدتي: سأحاول تأجل التنفيذ قدر ما أستطيع، وبعد شهر غادرتْ السراي: لن أعود إلا بعد أن يعود ابني.

بنت فيلا في طرة مواجهة لسجن أبي، وكانت ترسل الطعام الذي يحبه، وتطعم معه العشرات ممن يحيطون به، ولا تتورع عن الاتصال بمن تعرف أنهم يعملون بالسجن، جندت بالمال حينا وبرجاء الأم أحيانا من يطمئنها على ابنها الوحيد.

ولم يمنعها حزنها وغضبها أن تصطحبني وشقيقتي إلى مقر السفارة الليبية، لحضور عقد قران جلالة الملك إدريس السنوسي، شجعها على ذلك حضور البكباشي كما كانت تسمي الرئيس عبد الناصر لحفل الزفاف، لم تتوجه له بالحديث، لكن مجرد وجودها كعمة للعروس، كان كفيلا بتحقيق ما تريد. عقب عقد القران وتوزيع الحلويات، تركتنا جدتي، واصطحبها أحد المساعدين للجلوس مع الملك في غرفة السفير، لمحت جدتي وهي تحيي الملك الذي كان عجوزا وحزينا، حتى أن هند اندهشت عندما أخبرتها أنه العريس، وقالت: إنه والده، لكنني تأكدت أنه العريس عندما شاهدت صورته في جريدة الأهرام بصحبة عمتي عالية على اليخت «فخر البحار» وفي وداعهما الرئيس جمال عبد الناصر. وبعدها بثلاث سنوات عرفت سبب حزنه، عندما زرت عمتي الملكة عالية في بيتها في ميدان المساحة، بعد أن انفصلت عن الملك بسبب عدم إنجاب وريث للعرش، وبقيت عمتي في بيتها، أتردد عليها، وفي بعض الأحيان تقول عندما أستشيرها في شيء:

- اختر ما يريحك، لا ما يرضي الآخرين، لا أحد سيحرقه حزنك إلا قلبك.

وبعدما خرج أبي بعفو صحي، أمرت جدتي بهدم الفيلا وبيع أرضها، وعادت للمنيا ترمم ما تبقى من أطيان في المنيا.

وبخروج أبي وعمله بالتجارة، انتهت هذه الصفحة، وخطت لتقوية نفوذ العائلة، لم أرغب في دخول الكلية الحربية، رغبت في دراسة القانون، فرأت أمي في كلية الشرطة تحقيقا للهدفين، بعد أن أقنعتني أنهم أدخلوا نظاما جديدا يجعل خريج كلية الشرطة أو البوليس كما تردد يحصل على ليسانس الحقوق.

لجأت أمي لوساطة الرئيس السادات، وقتها كان رئيس مجلس الأمة، نعرفه منذ كان يقطن في المنيل، فكنا في حكم الجيران، ذهبت والدتي لزوجته في بيته الجديد في الجيزة لتهنئته بالمنصب، كنت في «الجزويت» وقد فاتحتها في رغبة العائلة في أن أدخل كلية الشرطة، وأن ينتهي هذا الخلاف غير الحقيقي، وأننا ننطوي في خدمة البلد. وأن أبي قد نال جزاءه. وقد خرج بعفو صحي. واتجه للعمل في التجارة وهو من مؤيدي النظام، ولم تعد هناك ثورة، طلبت أيضًا وساطة المشير عبد الحكيم عامر وهو بلدياتنا. ويسكن في شارع الطحاوية قريبا منا يفصل بيننا كوبري الجامعة.

لم أحمل أي عداء للدولة، بل كنت ممتنا لها طوال الوقت.

استقرت العائلة في المنيل، لم أزر المنيا إلا بعد تخرجي وبعد تعييني في مباحث أمن الدولة، كانت زيارة خاطفة، علم مأمور مغاغا بوصولي، استقبلني أحسن استقبال.. واصطحبني في جولة في المركز، كل الأراضي الواسعة، كل هذه الأراضي كانت لعائلتك.. دعاني لتناول الغداء في بيته، وهناك التقيت بحب حياتي نجاة.

صار حتى المأمور ·

أمي في كلية الشرطة تحقيقا للهدفين، بعد أن أقنعتني أنهم أدخلوا نظاما جديدا يجعل خريج كلية الشرطة أو البوليس كما تردد يحصل على ليسانس الحقوق.

لجأت أمي لوساطة الرئيس السادات، وقتها كان رئيس مجلس الأمة، نعرفه منذ كان يقطن في المنيل، فكنا في حكم الجيران، ذهبت والدتي لزوجته في بيته الجديد في الجيزة لتهنئته بالمنصب، كنت في «الجزويت» وقد فاتحتها في رغبة العائلة في أن أدخل كلية الشرطة، وأن ينتهي هذا الخلاف غير الحقيقي، وأننا ننطوي في خدمة البلد. وأن أبي قد نال جزاءه. وقد خرج بعفو صحي. واتجه للعمل في التجارة وهو من مؤيدي النظام، ولم تعد هناك ثورة، طلبت أيضًا وساطة المشير عبد الحكيم عامر وهو بلدياتنا. ويسكن في شارع الطحاوية قريبا منا يفصل بيننا كوبري الجامعة.

لم أحمل أي عداء للدولة، بل كنت ممتنا لها طوال الوقت.

استقرت العائلة في المنيل، لم أزر المنيا إلا بعد تخرجي وبعد تعييني في مباحث أمن الدولة، كانت زيارة خاطفة، علم مأمور مغاغا بوصولي، استقبلني أحسن استقبال.. واصطحبني في جولة في المركز، كل الأراضي الواسعة، كل هذه الأراضي كانت لعائلتك.. دعاني لتناول الغداء في بيته، وهناك التقيت بحب حياتي نجاة.

صارحني المأمور:

- نجاة ليست ابنتي. وجدتها فاقدة للوعي في الزراعات فأسميناها نجاة..

انضمت لعائلتي ومن يومها وهي ابنتي. استخرجت لها شهادة ميلاد، وبناتي تعلقن بها، وصارت لهن أخت كبرى تعتني بهن، زوجتى أحبتها، ولم تستطع مفارقتها، هي قليلة الكلام، طوال الوقت تعمل، دائما تجد شيئا في يدها، هي طيف، أحضرت لها معلمة ومحفظا للقرآن، وهي تتابع دروس أخواتها، تقرأ معهن وتسمّع لهن ما يحفظن، واهتمت زوجتى بتعليمها أصول البيوت.

لم أخبر أحدا بما عرفته عن حكاية نجاة.

أخذتها لمقابلة أمي وجدتي، استقبلتاها بترحاب، وتزوجنا.. لكني لم أستطع خلال سنوات زواجنا أن أراها كلية، كنت أشعر بوجود ضباب، حجاب يغلفها.. لم تكن واضحة لي، أراها دوما من خلال شيء، حتى في حضني كنت أغمض عيني، تتشكل صورتها من حرارة جسدها من لمسات أصابعها، كفيها الرقيقين، يديها اللتين تتوهان في يد جافة لضابط.

بعد سنوات من الزواج، بعد موتها، رحيلها المفاجئ دون إنذار، تولَّد دافع داخلي لكشف حقيقتها، ليس لأنها غير مرئية أو مشوشة، لكن لأني أحتاج لنظارة أو مصحح للنظر.

أكثر من مرة وجدتها ترقص، تدور حول نفسها أو حول نقطة
لا يراها سواها، حذرتها من دخول الغرباء.

لكنها لم ترد، بل ابتسمت وربتت على كتفي.

لم تغضب لغيابي المتكرر، أو تتشاجر معي، وإذا خرجت حانقا، لم تكن تلتفت أو تترك إبرتها ومفرشها، تظل ساكنة ووجهها منير، مشرق، تمنيت أن تترك مكانها أو تنتبه لغيابي، أن تفتقدني، كانت مكتفية بشيء لم أعرفه أو ألمسه؛ هل تحب رجلا آخر؟ هل تعرف أحدا؟ بحثت في دولابها، تترك كل الأدراج بلا إغلاق محكم.

وجدت مذكرة بقطيفة زرقاء، سيظهر سرها، وسأعرف من مذكراتها، ما تحاول أن تخفيه. لم تكن مذكرات. كانت عبارات مكتوبة بخط جميل، أشعار، حكم.

- من أين نقلت هذه العبارات؟

أشارت للراديو: أكتب ما أحب تسجيله؛ زدني بفرط الحب فيك تحيرا.

- تحبين الشعر؟

ابتسمت.

تعشق الراديو. عندما اشترينا التلفزيون، لم تتابعه كثيرا، تجلس معظم الوقت بجوار الراديو.

لذا كان طبيعيا أن أجد كلمات أغان من قصائد أم كلثوم، لكن أن توجد أجزاء من موعظة الجبل للمسيح، من أين جاءت بها؟

- أحيانا أتذكر أشياء، أكتبها من نفسي.

تمنيت أن أكون في غناها، عدم حاجتها لمرآة، عدم حاجتها لأحد، هي مستكفية، الشمس تشرق من داخلها، لا تحتاج لضوء.

وجدت مذكرة بغطيفه زرقاء، سيظهر سرها، وساعرف من مذكراتها، ما تحاول ان تخفيه. لم تكن مذكرات. كانت عبارات مكتوبة بخط جميل، أشعار، حكم.

- من أين نقلت هذه العبارات؟

أشارت للراديو: أكتب ما أحب تسجيله؛ زدني بفرط الحب فيك تحيرا.

- تحبين الشعر؟

ابتسمت.

تعشق الراديو. عندما اشترينا التلفزيون، لم تتابعه كثيرا، تجلس معظم الوقت بجوار الراديو.

لذا كان طبيعيا أن أجد كلمات أغان من قصائد أم كلثوم، لكن أن توجد أجزاء من موعظة الجبل للمسيح، من أين جاءت بها؟

- أحيانا أتذكر أشياء، أكتبها من نفسي.

تمنيت أن أكون في غناها، عدم حاجتها لمرآة، عدم حاجتها لأحد، هي مستكفية، الشمس تشرق من داخلها، لا تحتاج لضوء.

سألتها.

- أنت سعيدة؟

اقتربت مني، قبّلت جبهتي، يداها تحيطان بوجهي، ووضعتْ رأسي على فخذها، أخذت تمسد شعري.. كدت أطير، تحولت لكائن أثيري من السعادة، لكن دمعة من عينها، سقطت على خدي، أشعلت الحرائق في روحي.

لماذا هي حزينة؟ وأي شيء تفتقد؟

لم يكن هناك غير صوت المنشد في الليلة الختامية للسيدة نفيسة، حاولت أن أسري عنها، فكنت أحرص في الإجازات على الذهاب معها للسينما، لكنها كانت تحب المسرح، والسيرك أكثر.

لا يتوقف إلحاح هند: متى ستأتي؟ من أين آتي بأخ ثان؟!

اتصلت بها:

- تعالي القاهرة وعندما يتصل سأخبره بطلبك.

- لكني لن أترك سراي أبي.

- هو عارف، نعطيه فرصة يدبر أمره. وهناك أمر آخر مهم.

- خيرا؟

- أريد أن نحدد نصيبي من الميراث.

- الأوراق كلها في مكتبك، المحامون معهم كل شيء.

- لديّ مشروع أريد أن أستثمر فيه جزءا كبيرا مما أملكه.

- وأنا أريد أن أشاركك فيه.

- هذا المشروع بدون أرباح، وقد لا يغطي تكاليفه.

- لا يوجد مشروع بدون أرباح.

معك حق يا هند، مفهوم الربح هو المتغير، لكن الخسارة دائما هي الخسارة تظل تطاردنا وتشعرنا بوطأتها، وعداد الأيام لا يكف عن استنزافنا، عندما صرخت سلوى: ماما طارت!

حاولت بكل قوة أن أزيح هذه الصورة من ذهنها، خشيت أن تقلد نجاة، وجدتها مكفية على وجهها في «الفراندة» الكبيرة، فسر الطبيب وفاتها بأزمة قلبية حادة، وأن قلبها كاد أن ينفجر فعليا، تعرض لبذل مجهود لم يتحمله، هل كانت ترقص؟ هل انجذبت؟ كان وجهها صافيا، مستريحا، لكن يدها الباردة كانت توحي بانتهاء الألم، ارتاحت بعد جهد كبير، جعل كل ملابسها مبتلة بالعرق، ورأسها مغسول، وكل منابت شعرها مبلولة. تظل نجاة هي سري، موتها كل خسارتي، انكساري الذي لن أستطيع جبره.

- وأنا أريد أن أشاركك فيه.

- هذا المشروع بدون أرباح، وقد لا يغطي تكاليفه.

- لا يوجد مشروع بدون أرباح.

معك حق يا هند، مفهوم الربح هو المتغير، لكن الخسارة دائما هي الخسارة تظل تطاردنا وتشعرنا بوطأتها، وعداد الأيام لا يكف عن استنزافنا، عندما صرخت سلوى: ماما طارت!

حاولت بكل قوة أن أزيح هذه الصورة من ذهنها، خشيت أن تقلد نجاة، وجدتها مكفية على وجهها في «الفرانده» الكبيرة، فسر الطبيب وفاتها بأزمة قلبية حادة، وأن قلبها كاد أن ينفجر فعليا، تعرض لبذل مجهود لم يتحمله، هل كانت ترقص؟ هل انجذبت؟ كان وجهها صافيا، مستريحا، لكن يدها الباردة كانت توحي بانتهاء الألم، ارتاحت بعد جهد كبير، جعل كل ملابسها مبتلة بالعرق، ورأسها مغسول، وكل منابت شعرها مبلولة. تظل نجاة هي سري، موتها كل خسارتي، انكساري الذي لن أستطيع جبره.

فادي

منذ زواجي من أروى وأمي حزينة مكلومة، تحاول أن تتقذني من الأسد الذي أضع روحي وجسدي في فمه، تحارب الأفاعي التي تسحبني بنعومة إلى الجحيم. غريب أمر النساء، أو هو غريب قلب الأم. تبدو النساء الأكثر تدينا والأكثر تشددا في الدين.. النساء يسهرن على رعاية الإله كما تسهر الأمهات على رعاية أطفالهن، أزواجهن.. لو لم يكن هناك إله الأمهات كنا سيخترعن إلها، الرجال يريدون إلها يستمدون منه نفوذا وبسطا وسيطرة على الآخرين، النساء يردن إلها كي يستمر دورهن في الخلق والرعاية والحماية، تتلبس أمي روح المعلم والمصلح، تنظر للناس على أن بهم شيئا ناقصا وهي تقبلهم كما هم وتكرس نفسها لجبر هذا النقص.. فكيف إذا تحول النقص إلى خطيئة؟! تردد: عندما يستمر الإنسان في عدم إيمانه وابتعاده عن الله فإن الله «يسلمه» لخطايا أعمق وأخطر حتى يريه خطورة الحياة المنفصلة عنه؛ تلك التي بلا رجاء ولا أمل، فهل هناك أكبر من خطيئة تتسبب في انفصال الإنسان عن -وحرمانه من- ملكوت السموات؟

تدعو في صلاتها: «يا أبانا هي مشيئتك، والأرض تحفظ ما نغرسه فيها. كل العطايا قبلت وكل المحن أقبل لكن ساعدني في تحملها، يسوع أيها المخلص وضعت حياتك لأجلنا. كل ثقتي في أنك المخلص».

يعلو صوتها كي يصل لسمعي: إذا وضعت ثقتك في المسيح كمخلصك سيكون لك بكل تأكيد حياة أبدية في السماء؛ إن الله سيغفر خطاياك، سيطهر

منذ زواجي من أروى وأمي حزينة مكلومة، تحاول أن تتقذني من الأسد الذي أضع روحي وجسدي في فمه، تحارب الأفاعي التي تسحبني بنعومة إلى الجحيم. غريب أمر النساء، أو هو غريب قلب الأم. تبدو النساء الأكثر تدينا والأكثر تشددا في الدين.. النساء يسهرن على رعاية الإله كما تسهر الأمهات على رعاية أطفالهن، أزواجهن.. لو لم يكن هناك إله الأمهات كنا سيخترعن إلها، الرجال يريدون إلها يستمدون منه نفوذا وبسطا وسيطرة على الآخرين، النساء يردن إلها كي يستمر دورهن في الخلق والرعاية والحماية، تتلبس أمي روح المعلم والمصلح، تنظر للناس على أن بهم شيئا ناقصا وهي تقبلهم كما هم وتكرس نفسها لجبر هذا النقص.. فكيف إذا تحول النقص إلى خطيئة؟! تردد: عندما يستمر الإنسان في عدم إيمانه وابتعاده عن الله فإن الله «يسلمه» لخطايا أعمق وأخطر حتى يريه خطورة الحياة المنفصلة عنه؛ تلك التي بلا رجاء ولا أمل، فهل هناك أكبر من خطيئة تتسبب في انفصال الإنسان عن -وحرمانه من- ملكوت السموات؟

تدعو في صلاتها: «يا أبانا هي مشيئتك، والأرض تحفظ ما نغرسه فيها. كل العطايا قبلت وكل المحن أقبل لكن ساعدني في تحملها، يسوع أيها المخلص وضعت حياتك لأجلنا. كل ثقتي في أنك المخلص».

يعلو صوتها كي يصل لسمعي: إذا وضعت ثقتك في المسيح كمخلصك سيكون لك بكل تأكيد حياة أبدية في السماء؛ إن الله سيغفر خطاياك، سيطهر نفسك، سيجدد روحك وسيعطي لك حياة هانئة في هذا العالم وحياة أبدية في العالم التالي. يعلو صوتها أكثر: كيف يمكننا أن نرفض مثل تلك العطية العظيمة؟ كيف يمكننا أن ندير ظهورنا للمسيح الذي أحبنا حتى بذل نفسه لأجلنا؟ وتدخل في نوبة من البكاء، تجعلني أسرع في الابتعاد عنها والخروج من البيت.

وأنا صغير ظللت لسنوات لا أستطيع النوم بعيدا عن والدي.. اعتبرت ماما أن ذلك من مساوئ أن تكون طفلا وحيدا، وكي تعودني على النوم بمفردي أخذت تملأ غرفتي بأيقونات للمسيح والعذراء، وتترك إضاءة خفيفة في الغرفة، عشت مع تلك الأيقونات، وأصبحت مسرحا لأفكاري ومصدرا لطمأنتي وخوفي. في ليلتي الأولى كان عليّ أن أثبت لها أنني كبرت.. وأنني سأنام بمفردي، ظلت عيناي مفتوحتين على النجوم خلف الستائر وبينها السيدة والطفل المبارك راقد على قدميها، طفل سعيد وأم راضية، لكني راوغت أجفاني الثقيلة وعدلت نومتي وحدقت في الصورة المواجهة لي.. مصلوبا، تاج الشوك مغروس في جبهته، مقيد اليدين والقدمين، حضوره طرد الخدر من ذهني، حزين، وحيد مثلي، لا يتطلع لشيء، ولا ينتظر شيئا، لكني أنتظر أن يفتح أبي باب الغرفة وأن يجلس بجوار سريري ويحكي لي قصة أو يتكلم معي حتى أنام، تحاول أذني التقاط أي حركة من غرفتهما، أية بادرة لأن يتذكرني أحد أو يطمئن عليّ، الانتظار مقلق، لكن وجه المسيح كان يدعوني للتسليم، لن ينقذك أحد، ستبقى مصلوبا، سيبقى الألم رفيقك والوحدة قدرك. أخذت كل الأشباح والمخاوف تنهشني، تتنازعني كي أصعد على الصليب، تنساب دموعي ساخنة، فجأة فتح بابا الغرفة، ارتميت في حضنه، طبطب عليّ:

- اطمن أنا موجود.

- لا تتركني.

- لن أتركك، لكن لازم تتعود تنام لوحدك، أنت كبرت.

- طيب ابقى معي، ونسني حتى أنام ثم اخرج..

- اتفقنا.

عندما بدأ بابا يقرأ في كتاب «قصص من أساطير العالم»، لم أكن أستمع إليه، حدقت عيناي في يسوع المصلوب، استشعرت ألمه وخيبته، أشفقت عليه، من أب لم يرحمه وتركه وحيدا، لم أرغب أن أكون مثله، كل ما يريده طفل صغير ألا يخذله أبوه.

في كل الليالي التالية كنت أنظر إليه وأمقت في سري هذا الأب الذي يترك ابنه للعذاب والألم على يد أعدائه، ولم يكن من راحة لي غير أن أتصور أنه ليس أباه، ربما كان قريبه، لكنه ليس أباه.. أبي يخاف عليّ، لا يجعلني أسير وحدي، يركب معي أية لعبة تبدو خطرة، في الملاهي، في النادي، في البحر. أي أب هذا؟ وكي أخفف عن نفسي، قررت أنه لا يمكن أن يكون أباه وأنني لا أريد أكون مثل المسيح.

في الصباح عند تلاوة الصلاة «نعظمك يا أم النور الحقيقي ونمجدك أيتها العذراء القديسة، والدة الإله، لأنك ولدت لنا مخلص العالم، أتى وخلص نفوسنا». عندما مسحت ماما على رأسي:

- المسيح يحميك.

قلت لها: كيف يحميني وهو لم يحم نفسه؟

ضمتني إليها: لقد ضحى بنفسه من أجل خلاصنا.

لم أستوعب ما قالت وسألت: ألم يكن يقدر أن يغفر لنا من غير ما يضحي به؟

عندما بدأ بابا يقرأ في كتاب «قصص من أساطير العالم»، لم أكن أستمع إليه، حدقت عيناي في يسوع المصلوب، استشعرت ألمه وخيبته، أشفقت عليه، من أب لم يرحمه وتركه وحيدا، لم أرغب أن أكون مثله، كل ما يريده طفل صغير ألا يخذله أبوه.

في كل الليالي التالية كنت أنظر إليه وأمقت في سري هذا الأب الذي يترك ابنه للعذاب والألم على يد أعدائه، ولم يكن من راحة لي غير أن أتصور أنه ليس أباه، ربما كان قريبه، لكنه ليس أباه.. أبي يخاف عليّ، لا يجعلني أسير وحدي، يركب معي أية لعبة تبدو خطرة، في الملاهي، في النادي، في البحر. أي أب هذا؟ وكي أخفف عن نفسي، قررت أنه لا يمكن أن يكون أباه وأنني لا أريد أكون مثل المسيح.

في الصباح عند تلاوة الصلاة «نعظمك يا أم النور الحقيقي ونمجدك أيتها العذراء القديسة، والدة الإله، لأنك ولدت لنا مخلص العالم، أتى وخلص نفوسنا». عندما مسحت ماما على رأسي:

- المسيح يحميك.

قلت لها: كيف يحميني وهو لم يحم نفسه؟

ضمتني إليها: لقد ضحى بنفسه من أجل خلاصنا.

لم أستوعب ما قالت وسألت: ألم يكن يقدر أن يغفر لنا من غير ما يضحي به؟

أجابت ماما: طبعا يقدر، لكن لكي نتعلم أهمية الفداء. لذا سميتك فادي.

كطفل صغير أرعبتني فكرة أن يتخلى أبي عني.. صرت أستوثق منها في كل القصص التي أقرأها، هل تخلى ملك عن ابنه؟ هل يرسل الآباء أبناءهم إلى الهلاك؟ كنت أقول ليس ابنه، وكانت ماما تقول المسيح ابن الله، وكل ما تقوله ماما صواب، ودون وعي مني أخذت أصنف الآباء إلى أبي والله الذي ترك اليهود يصلبون المسيح، أبحث في الأساطير.. «شهراموش، زيوس، هتلر، موسيليني، عبد الناصر».. كلهم آلهة فاسدة، وكلهم ألقوا أبناءهم في التهلكة. وقررت أن أحمي نفسي، وأن أكون مسئولا حاميا لمن حولي، وعندما رأيتك يا أروى وعرفت أن والدك تركك أنت ووالدتك، وأنه لا يقابلك، ولا يذهب معك للفسح، أو يحضر الحفلات المدرسية، قررت أن أكون حاميك، وأن أكون خلاصك، لو كنت مع المسيح لدافعت عنه، لكني لم أولد في زمنه، معك الآن أشعر أن المسيح راضٍ عني، أن وجهه ارتاح قليلا، ثمة أمل أن يتعلم الآباء ألا يتركوا أبناءهم ويلقوا بهم في التهلكة. بعد فترة رجوت بابا:

- من فضلك أخرج هذه الصور من غرفتي.

يستحق المسيح أن نراه فرحا، يستحق أن نتعلم منه ونطبق فداءه.

في مدرسة الأحد يتفتح وعيي، يسأل بعض الزملاء أسئلة جريئة كثيرا ما تتردد في نفسي، لكني لا أنطق بها، خوفا من غضب أمي، لكن الكاهن يبتسم ويجيب في يسر: ولا يمكن إنكار أن نظرة المسيحيين والمسلمين إلى الله متشابهة جدا. فالفريقان يتفقان على أن الله مطلق السلطة، كلي القدرة، عليم بكل شيء، يملأ الوجود، قدوس، عادل، وصالح. ويتفقان على الإيمان بالله خالق الكون وكل ما فيه، فلذلك، نعم يعبد المسيحيون والمسلمون إلها واحدا، لكن في نفس الوقت توجد اختلافات أساسية بين النظرتين، فبينما يؤمن المسلمون بأن بعضا من صفات الله هي المحبة، الرحمة، والنعمة فالله لا يظهر هذه الصفات بنفس الطريقة التي يظهرها في نظر المسيحيين. وأهم اختلاف بين الإيمان المسيحي والإيمان الإسلامي أن المسيحيين يؤمنون بأن الله تجسد وجاء إلى الأرض في صورة إنسان وهو شيء هام جدا لفهم ومعرفة الله. كان لا بد لله أن يصبح إنسانا ليحمل خطيئة العالم. وكي يتعاطف معنا ويمنحنا الخلاص والمغفرة لخطايانا.

أسأل: إذا كان إلها حقا وكلي القدرة فما حاجته إلى التجسيد؟ هل أعيش شحاذا أو متسولا كي أتعاطف معهم؟

يجيب القس بهدوء: هناك مفتاحان رئيسيان لمعرفة إرادة الله في أي موقف:

الأول: يجب أن تتأكد بأن ما تطلبه غير مرفوض أو منهي عنه في الكتاب المقدس.

الثاني: يجب أن تتأكد بأن الشيء الذي أنت مقدم عليه سيمجد الله وسيساعدك في نموك الروحي.

إذا توافر البندان السابقان والله لم يستجب بعد لطلباتك إذا في الغالب أن طلباتك هى ليست إرادة الله لك. أو ربما يجب عليك الانتظار لفترة أطول. إن معرفة إرادة الله قد تكون صعبة أحيانا. إن بعض الناس يريدون من الله أن يملي عليهم ما يجب عليهم فعله، أين يجب أن يعملوا، أين يسكنون، من يتزوجون... إلخ.

سألته: لماذا لا يوجد سوى ابن واحد؟ لماذا لا يرسل الإله ابنه الثاني والثالث؟

نزل إليّ ومسح رأسي، وكرر: فليكن لك نصيب من الصالح.

هل يختار الإله الإنسان الصالح لأنه صالح؟ أم أن الصالح صالح لأن الإله اختاره؟ من هو الصالح؟ تصرخ أمي لم تعد صالحا، كيف تترك الصالح؟

أسأل: إذا كان إلها حقا وكلي القدرة فما حاجته إلى التجسيد؟ هل أعيش شحاذا أو متسولا كي أتعاطف معهم؟

يجيب القس بهدوء: هناك مفتاحان رئيسيان لمعرفة إرادة الله في أي موقف:

الأول: يجب أن تتأكد بأن ما تطلبه غير مرفوض أو منهي عنه في الكتاب المقدس.

الثاني: يجب أن تتأكد بأن الشيء الذي أنت مقدم عليه سيمجد الله وسيساعدك في نموك الروحي.

إذا توافر البندان السابقان والله لم يستجب بعد لطلباتك إذا في الغالب أن طلباتك هى ليست إرادة الله لك. أو ربما يجب عليك الانتظار لفترة أطول. إن معرفة إرادة الله قد تكون صعبة أحيانا. إن بعض الناس يريدون من الله أن يملي عليهم ما يجب عليهم فعله، أين يجب أن يعملوا، أين يسكنون، من يتزوجون... إلخ.

سألته: لماذا لا يوجد سوى ابن واحد؟ لماذا لا يرسل الإله ابنه الثاني والثالث؟

نزل إليّ ومسح رأسي، وكرر: فليكن لك نصيب من الصالح.

هل يختار الإله الإنسان الصالح لأنه صالح؟ أم أن الصالح صالح لأن الإله اختاره؟ من هو الصالح؟ تصرخ أمي لم تعد صالحا، كيف تترك الصالح؟

يبدو لي أحيانا أن أمي أكثر وعيا من أبي وحتى وإن بدت أكثر خضوعا وطاعة للطقوس، هي تستعين بفكرة الإله الذي يمنح ويمنع ويسير كل شيء، ركنت لوادي الدعة استراحت من تبعات أفعالها وتحمل عواقبها بإحالتها دوما لكائن أعلى. وأبي صيدلي، لديه خبرة كبيرة بتحضير لمستحضرات التجميل والعطور، ولديه معمل لتقطير العطور في القناطر الخيرية، تتهمه أمي. قد يكون ما حدث عقابي على صمتي على عدم التزامك بالذهاب لكنيسة.

تسأله: قضيت عمرك في خدمة بيت الرب، فمتى تخدم الرب؟

يبتسم: خدمة أبنائه تصل إليه.

لا يوجد محتاج لا يعطيه، يبذل كل جهده ووقته لخدمة المرضى والمساعدة في قرارات العلاج، صرف الأدوية، وقد يعتكف لشهور لمتابعة إنتاج وزراعة نوع معين من الأعشاب الطبية، أو تركيب الخلطات الدوائية، شجعني على دراسة علم الأدوية، وأحببت أن أتبع طريقه.

يذهب أبي للكنيسة ويشارك دون حماسة، نادرا ما تضرع طلبا لشيء، يهمس لي: أن تطلب معجزة يعني أن تطلب من الرب أن يعطل قوانينه، بالدعاء أو عدمه المخطط سيتم، حتى قرار زواجي، يبدو أن الموضوع لا يؤرقه، هو يتحدث معي، يحاول. لكنه ليس حاسما. كأنه يرى أن الأمر سيان. هو فقط مشفق عليّ من الآخرين.

- هل ستغير معتقدك في الباطن أم في الظاهر؟ أن يغير إنسان معتقده أمر خطير، يحتاج تمهلا، ستتغير تفاصيل حياتك، عاداتك، الموضوع ليس بالبساطة التي تظنها، أوضح ما فيها أنك لن ترثني.

- لم أفكر في موضوع الميراث، ربنا يعطيك طولة العمر. يا بابا هو إسلام على الورق.

- لن تنجو من النفاق والانقسام وستشاقق روحك روحك،
لا تفعل شيئا دون أن تكون مقتنعا به.

- لكن عفوا يا بابا حضرتك ...؟

- لست ملتزما لا أحرص على حضور العظات! لا يحتاج الله لكل هذه الطقوس، من جاء أولا الكنيسة أم المسيح؟ المسيح لم يدخل كنيسة، معملي هو كنيستي، تخفيف الألم عن مريض، رسمة الفرحة على وجه مريض، كلها قرابيني لله، وهو المطلع على النوايا.

يفتح أبي نوافذ التفكير.. هل يحتاج الإنسان إلى كل هذه الطقوس كي يصل إلى الله؟ قد يقودك هذا التفكير إلى تساؤل: هل نحتاج إلى وجود إله؟ كائن أسمى يحل كل معضلات الضعف والتهاوي، الفناء والعدم الذي نسير إليه؟

من إنجيل بولس «حقا أنا لا أفهم ما أفعله، لأنني لا أفعل ما أريد، بيد أني أفعل ما أكره».

تتصل أمي كي أصحبها إلى القداس في الكنيسة المعلقة.. تشعر بتوعك وأبي مسافر، وأنا البكري، الخليفة، أتردد، ما الذي سيحدث.. تنهرني أمي هل يمنعك دينك الجديد من البر بأمك؟ هل يمنعك من القدوم إلى الكنيسة؟ هي تعرف كل الإجابات لكنها تريد أن تشعرني دوما بالذنب.

أدخل الكنيسة، تبدو التفاصيل مختلفة، أشعر بخزي، خجل ما، كأني خذلتها.. تشير التماثيل، تتماوج الأعمدة، تتداعى الذكريات. لماذا اختارت هذه الكنيسة؟ تعلم أن ليس كل الكنائس تؤثر في الروح، عندما سافرنا باريس لم أحب كنيسة نوتردام كانت مقبضة خانقة، تلقي حدبة كوزمتو الكبيرة بظلها على الجدران وآهات تعذيبه وألمه تغطي على دقات الأجراس. شعرت باختناق أسرعت فلم أكمل مشاهدة لوحات وخرائط مراحل تطور الكنيسة. لكن الكنيسة المعلقة، جزء من روحي

- لست ملتزما لا أحرص على حضور العظات! لا يحتاج الله لكل هذه الطقوس، من جاء أولا الكنيسة أم المسيح؟ المسيح لم يدخل كنيسة، معملي هو كنيستي، تخفيف الألم عن مريض، رسمة الفرحة على وجه مريض، كلها قرابيني لله، وهو المطلع على النوايا.

يفتح أبي نوافذ التفكير.. هل يحتاج الإنسان إلى كل هذه الطقوس كي يصل إلى الله؟ قد يقودك هذا التفكير إلى تساؤل: هل نحتاج إلى وجود إله؟ كائن أسمى يحل كل معضلات الضعف والتهاوي، الفناء والعدم الذي نسير إليه؟

من إنجيل بولس «حقا أنا لا أفهم ما أفعله، لأنني لا أفعل ما أريد، بيد أني أفعل ما أكره».

تتصل أمي كي أصحبها إلى القداس في الكنيسة المعلقة.. تشعر بتوعك وأبي مسافر، وأنا البكري، الخليفة، أتردد، ما الذي سيحدث.. تنهرني أمي هل يمنعك دينك الجديد من البر بأمك؟ هل يمنعك من القدوم إلى الكنيسة؟ هي تعرف كل الإجابات لكنها تريد أن تشعرني دوما بالذنب.

أدخل الكنيسة، تبدو التفاصيل مختلفة، أشعر بخزي، خجل ما، كأني خذلتها.. تشير التماثيل، تتماوج الأعمدة، تتداعى الذكريات. لماذا اختارت هذه الكنيسة؟ تعلم أن ليس كل الكنائس تؤثر في الروح، عندما سافرنا باريس لم أحب كنيسة نوتردام كانت مقبضة خانقة، تلقي حدبة كوزمتو الكبيرة بظلها على الجدران وآهات تعذيبه وألمه تغطي على دقات الأجراس. شعرت باختناق أسرعت فلم أكمل مشاهدة لوحات وخرائط مراحل تطور الكنيسة. لكن الكنيسة المعلقة، جزء من روحي.

ماذا لو كان ما يفعله الإنسان غير مقبول.. ماذا إن كان يريد الخير ويظن أن ما يفعله صواب فيرتد إليه لعنة وعقابا؟ «فإذا كنتم تأكلون أو تشربون أو تفعلون شيئا، فافعلوا كل شيء لمجد الله»، الرب وحده يحكم.. لماذا لعن «سيمون» حين طلب سر الروح القدس في السامرة؟ «أعطياني أنا أيضا هذا السلطان حتى إن وضعت عليه يدي يقبل الروح القدس»، فقال له بطرس «لتكن فضتك معك للهلاك لأنك ظننت أن تقتني موهبة الله»، ماذا فعل غير أنه قدم لهم دراهم؟

تدهن أمي المرمون، تضغط على يدي: من أين جاءك الشيطان؟

تنتهد، وأنا لا أنطق.. تعبد أمي المسيح الرب من أجل كل المقصرين في العالم.

أحاول أن أحفظ سورا من القرآن، فاجأني عدم قدرتي على الحفظ، صعوبة الحفر في ذاكرتي وسهولة الفقد، محاولة التعلم في الكبر تقابلها صعوبات كبيرة رغم محاولاتي المضنية أن أبذل محاولات كبيرة لحفظ عدة آيات، أستشعر هذا الجهد.. خلايا ذاكرتي تبدو كوعاء مكتمل لا يستطيع تقبل المزيد، خلايا ذاكرتي تهرم.. تفقد ليونتها مطاطيتها قدرتها على استيعاب المزيد.. كل ما عرفته من قبل يقاوم معارفي الجديدة.. يتداخل معها يشوشه.. حتى تتعلم الجديد عليك أن تتخلص مما تعرفه، من السهل أن تقوم بملء كوب فارغ.. لكن كيف تضيف المزيد إلى كوب ممتلئ بالفعل؟

حتى تتعلم الجديد عليك أن تتخلص مما تعرفه، عليك التخلص من ممانعة التعلم، عليك التخلص من عناصر المقاومة، إن المحبة تحتمل كل شيء، تصدق كل شيء، ترجو كل شيء، المحبة تتأني وتصل، ومن يجد نفسه لا يضيعها.

علي قنديل

أتوق للشمس لمكان فيه ضوء، اختنقت من العتمة والرطوبة، من الجحر الذي عشت فيه؛ التلافيف والسراديب، أتوق للصف الأول؛ أن يكون لنا بيت على الطريق الرئيسي، أشعر بمعاناة رفاقي عندما يصلون لبيتي.. فكثيرا ما ينسونني في اللعب، عليّ أن أراقب دائما كي لا تفوتني أية متعة.

تمت دعوتي لحفل زفاف أروى، دعاني جدها اللواء يسري صالح، ينتظم الرجل في أداء صلاة الجمعة في مسجد صلاح الدين، بعد تخرجي وتعييني معيدا في كلية أصول الدين، وجدت سكنا في منطقة الدرب الأحمر، خلال دراستي تعودت التردد على المساجد الكبيرة، السلطان حسن، عمرو بن العاص، مسجد الفتح، مسجد الاستقامة.. ابتعدت عن مساجد آل البيت فالتنافس عليها شديد وكل مسجد له أكثر من إمام، ووجدت راحتي في مسجد صلاح الدين بالمنيل..

تعرفت على اللواء يسري صالح كأحد وجهاء المنيل، عدد من المسئولين والمشاهير يقيمون بالحي، صلاة جمعة مناسبة لمقابلتهم والتعرف عليهم، توثقت علاقتنا بعد محاولة الإخوان استخدام مئذنة مسجد «صلاح الدين» قبل فض اعتصام النهضة، قمت معه بزيارة أهالي الضحايا.. دخلنا البيوت الفقيرة التي لا نعرف عنها الكثير.. أهل المنيل ليسوا شديدي الثراء، لكنهم عريقون، لا يلمعون لكنهم أصلاء والرجل لا يتوانى عن المساعدة في مائدة الرحمن، وحملات الإطعام ورعاية الفقراء في بداية المدارس، المولد النبوي، العيدين، ونلجأ له إذا قل إيراد صندوق التبرعات بالمسجد.

أتوق للشمس لمكان فيه ضوء، اختنقت من العتمة والرطوبة، من الجحر الذي عشت فيه؛ التلافيف والسراديب، أتوق للصف الأول؛ أن يكون لنا بيت على الطريق الرئيسي، أشعر بمعاناة رفاقي عندما يصلون لبيتي.. فكثيرا ما ينسونني في اللعب، عليّ أن أراقب دائما كي لا تفوتني أية متعة.

تمت دعوتي لحفل زفاف أروى، دعاني جدها اللواء يسري صالح، ينتظم الرجل في أداء صلاة الجمعة في مسجد صلاح الدين، بعد تخرجي وتعييني معيدا في كلية أصول الدين، وجدت سكنا في منطقة الدرب الأحمر، خلال دراستي تعودت التردد على المساجد الكبيرة، السلطان حسن، عمرو بن العاص، مسجد الفتح، مسجد الاستقامة.. ابتعدت عن مساجد آل البيت فالتنافس عليها شديد وكل مسجد له أكثر من إمام، ووجدت راحتي في مسجد صلاح الدين بالمنيل..

تعرفت على اللواء يسري صالح كأحد وجهاء المنيل، عدد من المسئولين والمشاهير يقيمون بالحي، صلاة جمعة مناسبة لمقابلتهم والتعرف عليهم، توثقت علاقتنا بعد محاولة الإخوان استخدام مئذنة مسجد «صلاح الدين» قبل فض اعتصام النهضة، قمت معه بزيارة أهالي الضحايا.. دخلنا البيوت الفقيرة التي لا نعرف عنها الكثير.. أهل المنيل ليسوا شديدي الثراء، لكنهم عريقون، لا يلمعون لكنهم أصلاء والرجل لا يتوانى عن المساعدة في مائدة الرحمن، وحملات الإطعام ورعاية الفقراء في بداية المدارس، المولد النبوي، العيدين، ونلجأ له إذا قل إيراد صندوق التبرعات بالمسجد.

تظل البدايات توجه خطوط سيرك مهما تشابكت أو تفرعت واعتقدت أنك راوغت الزمن ستجد الحكم في نهاية المباراة يطلب أن تعود لنقطة البداية..

اختار لي أبي التعليم الأزهري، لأنه لا يحتاج مصاريف كثيرة، فلديه عائلة كبيرة قادرة على التهام أي دخل، أولاد وبنات، وعمتان واحدة أرملة والأخرى مطلقة، وهو عائلهما الوحيد.

لا توجد صورة تجمعنا كأفراد عائلة، صوري كلها الصور المطلوبة لامتحانات الشهادات، للجامعة، للتجنيد. لم نكن نهتم إلا بما يسد جوعنا، أو يستر عرينا.. الضرورة، الضرورة، حد الكفاف والستر، أبي مثل القطار منضبط ومنتظم، لم يدخل التلفزيون إلى بيتنا إلا بعد أن تحصّل على ثمنه نقدا، لا يحب التقسيط، لا يريد أن يكون مديونا لأحد، نشتري كل الأجهزة بعد سنوات من ظهورها واستعمالها لدى أصحابي.

يرفض حتى هذه الساعة قبول ما أرسله له من نقود، لا يقبل أن يكون عالة على أحد، أقول له: أنت ومالك لأبيك، وما أنا فيه بركة دعائك، فيرد: اليد العليا خير من اليد السفلى.

لا يريد أن يثقل عليّ أو حتى يمنحني شرف أن أساعده،

لا يعلق على ما وصلت إليه، أن يصبح ابنه من الدعاة المعدودين ونجوم الفضائيات ليس مصدرا للفخر أو التباهي، يشيح بيده: ما كل هذه الدوشة!! لا يستمع إلا لإذاعة القرآن الكريم، والقراء المصريين. لم يحب الشيخ كشك وشرائطه، ما هذا الزعيق؟ الشرائط الوحيدة لديه لمطربته المفضلة «عفاف راضي»، يؤدي الفروض في المنزل

ولا يذهب للمسجد سوى للصلاة يوم الجمعة.

في صغري ضقت بالزي الأزهري، لكني اكتشفت منافعه.. المعرفة بالقرآن والأحاديث النبوية تكسبك سلطة، حجة، قوة، أحاديث وحواديت كثيرة، تجعل الآخرين، الجيران والأقارب يصغون إليك.

كطفل ومراهق، تبهرني الألغاز الفقهية، تصبح مصدرا للتميز وللظهور أمام أقراني في الشارع.. ماذا تقول في رجل مسلم عاقل بالغ غير جاهل أهديت له ميتة فأكل منها وهو غير جائع ولا مضطر وكان في ذلك غير آثم؟ أكل سمك. بجد؟ صح، واحدة كمان، قول واحدة كمان، تنتفخ أوداجي وأسمع ما أحفظ: ما تقولون في رجل مسلم قادر بالغ عاقل صلى ولم يسجد في صلاته سجدة واحدة متعمدا وصحت صلاته؟ هذا رجل يصلي الجنازة، وصلاة الجنازة ليس فيها ركوع ولا سجود.. يسكت الرفاق، يبدو أنهم غير مقتنعين، أنتبه لم يسبق لأحد منا أن صلى صلاة الجنازة، كما أن رائحة الموت ثقيلة حتى في الأحاجي. فأتعلم أن أختار ما أقول، وألا يكون صادما مع معتقداتهم، وأختار من المختلف ألطفه وأغربه وما لا يفتح بابا للجدال والنقاش.. ما تقول في رجل جامع زوجته في نهار رمضان متعمدا وليس عليه إلا القضاء ولا تلزمه الكفارة؟ هذا رجل سافر مع زوجته وهما صائمان ثم بدا له أن يجامعها فيجوز له ذلك لأنه مسافر والمسافر يجوز له الفطر في نهار رمضان. يسخر رفاقي: يعني هما مسافرين فين؟ ومسافرين كام ساعة؟ يا سلام يعني هو سايب بيته ورايح ينام معها في الشارع؟ هذه المسائل بعيدة عما نعيشه، عن الطائرات والزحام، والاتوبيسات، مدرجات الجامعة.. وما كان مثارا للتباهي يصبح حاكا في الصدر، مع ألغاز ومسائل فقهية لا يمكن النظر لها بجدية، مثلها مثل من يقول لك هل تعلم أن أطول، أكبر، من قال؟ من اخترع؟

ما يعيب هذه المعارف أنها لا تقدم بنية دافعة للتفكير والتأمل، هذه معارف مغلقة لا تساعد على النقاش أو طرح الأسئلة، كما أنها تعطي من يحفظها إحساسا وهميا بالقيمة والامتلاء، والاستعلاء.. لكنها لا تستطيع أن تقدم اكتشافا في الطب، دواء يخفف الألم، حلا لمشلول، معوق، لا يمكنها أن تجد علاجا لشقيقتي صباح التي يكبل الشلل جسدها وروحها.. سقطت شقيقتي الصغيرة من فوق السرير وهي رضيعة قبل أن تكمل يومها الثالث.. أصاب عمودها الفقري ضرر تسبب في اختلال حركتها وعدم قدرتها على استخدام يديها بدقة وعدم قدرتها على الكلام الطبيعي، ولكن الحادث لم يتسبب في

وأسمع ما أحفظ: ما تقولون في رجل مسلم قادر بالغ عاقل صلى ولم يسجد في صلاته سجدة واحدة متعمدا وصحت صلاته؟ هذا رجل يصلي الجنازة، وصلاة الجنازة ليس فيها ركوع ولا سجود.. يسكت الرفاق، يبدو أنهم غير مقتنعين، أنتبه لم يسبق لأحد منا أن صلى صلاة الجنازة، كما أن رائحة الموت ثقيلة حتى في الأحاجي. فأتعلم أن أختار ما أقول، وألا يكون صادما مع معتقداتهم، وأختار من المختلف ألطفه وأغربه وما لا يفتح بابا للجدال والنقاش.. ما تقول في رجل جامع زوجته في نهار رمضان متعمدا وليس عليه إلا القضاء ولا تلزمه الكفارة؟ هذا رجل سافر مع زوجته وهما صائمان ثم بدا له أن يجامعها فيجوز له ذلك لأنه مسافر والمسافر يجوز له الفطر في نهار رمضان. يسخر رفاقي: يعني هما مسافرين فين؟ ومسافرين كام ساعة؟ يا سلام يعني هو سايب بيته ورايح ينام معها في الشارع؟ هذه المسائل بعيدة عما نعيشه، عن الطائرات والزحام، والاتوبيسات، مدرجات الجامعة.. وما كان مثارا للتباهي يصبح حاكا في الصدر، مع ألغاز ومسائل فقهية لا يمكن النظر لها بجدية، مثلها مثل من يقول لك هل تعلم أن أطول، أكبر، من قال؟ من اخترع؟

ما يعيب هذه المعارف أنها لا تقدم بنية دافعة للتفكير والتأمل، هذه معارف مغلقة لا تساعد على النقاش أو طرح الأسئلة، كما أنها تعطي من يحفظها إحساسا وهميا بالقيمة والامتلاء، والاستعلاء.. لكنها لا تستطيع أن تقدم اكتشافا في الطب، دواء يخفف الألم، حلا لمشلول، معوق، لا يمكنها أن تجد علاجا لشقيقتي صباح التي يكبل الشلل جسدها وروحها.. سقطت شقيقتي الصغيرة من فوق السرير وهي رضيعة قبل أن تكمل يومها الثالث.. أصاب عمودها الفقري ضرر تسبب في اختلال حركتها وعدم قدرتها على استخدام يديها بدقة وعدم قدرتها على الكلام الطبيعي ولكن الحادث لم يتسبب في توقف نموها الجسدي.

أصرت أمي على تعليمها، بسببها استمررت في التعليم الأزهري، بعد أن كنت حانقا عليه، لماذا أذهب للأزهر وأنا ذكي وشاطر؟ لكن أمي قبلت رأسي وقالت: علشان خاطر أختك. لم أفهم إصرارها على تعليمها.. لكني تعاطفت معها، مع عجزها، مع الذنب الذي حملته وقلت لنفسي مرات عديدة ما لمحت إليه أمي.. ماذا لو كنت مكانها؟ لم أوجه يوما حنقي لها ولكن أرفع وجهي للسماء؛ لماذا؟

ماذا لو أنها ماتت؟ ألن يكون حلا عبقريا؟ لماذا يشقى الناس بأمراضهم ويصابون بإعاقات تشقيهم وتعذب من حولهم وتحملهم فوق طاقتهم.. لم تستطع التحكم في أصابعها، فلم تعرف القراءة أو الكتابة، تعتمد على ما تلتقطه أذنها من سور القرآن والأحاديث الشريفة، الغريب أنها ذكية لماحة، تطرح على شيوخها أسئلة دقيقة تجعلهم يقولون: يا خسارة، لا حول ولا قوة إلا بالله.

ظللتُ سنوات الابتدائية «علي أخو صباح» أصحبها كل يوم في طريقي إلى المعهد الأزهري.

من خطواتها المضطربة البطيئة تعلمت الصبر، الطريق الذي يأخذه زملائي في نصف ساعة نقطعه في ساعتين.. أن تتعلم الصبر، أن تتصبر، ومن ضغطة أصابعها المتشنجة على ذراعي تعلمت إدراك ما لا يقال، قد تكون هي السبب فيما أوصف به من شفقة وتعاطف مع كل من أتعامل، معها تعودت على تحمل المسئولية، وتدربت على الخطابة وإلقاء الأشعار التي أحفظها، أحمل الحقيبتين على كتفي الأيمن وبذراعي الأيسر أسند هيكلها المضطرب، بعد أن نخرج من الشوارع الجانبية ونأخذ الطريق العام يمكن أن أفتح كتابا، أو كراسة محفوظات وكثيرا ما تكون جريدة الأهرام هي تسليتنا، بمرور الأعوام صرت أنقل ما أريد حفظه أو قراءته في ورقة منفصلة، كي تكون أخف في حملها.

في نهاية الطريق، قبل أن ندخل لشارعنا، تبتسم بفمها المعوج وتقول عبارة لا تتغير: على عيني تعبك معي.

حالة صباح وحالات كثيرة جعلت عقلي يفكر في قدرة الله واختباره لعباده.. أي اختبار تتعرض له مخلوقة لا حول لها ولا قوة ومحرومة حتى مما يحفظ آدميتها، ويجعلها أسيرة لعطف الآخرين وإحسانهم وظروفهم في قضاء أبسط احتياجاتها الآدمية.

في مسابقة بين المعاهد الأزهرية، اختاروني مع زميلين لنمثل المعهد، أقيمت المسابقة في معهد المحافظة، حصلنا على المركز الأول وكنت فخورا بنفسي، تجاوز وقت المسابقة موعد الخروج من المعهد، رجعت على البيت، فرحا مهللا، صرخت أمي: أين أختك؟

هرعت للمعهد، وجدتها جالسة وحيدة على دكة بواب المدرسة، قلة حيلتها ووجهها المذعور ملآ قلبي بالحسرة، احتضنتها بقوة وأنا أعتذر لها: تصورت أن إحدى زميلاتك ستوصلك..

انهمرت دموعها، ساعدتها على النهوض، فظهرت بقعة بللت منتصف جيبتها من الخلف، لم أقل لها شيئا، ظللنا صامتين طوال الطريق، لكن أصابعي أخذت تربت على كفها بإيقاع هادئ بطيء يستحلب ما يعصف بذهني من حنق وغضب.

في درس طلاقة القدرة، صرت أجادل الأستاذ «الغمراوي» حتى طردني من الفصل.

في يوم الجمعة التالي، سلم عليّ بعد الصلاة، كنت غاضبا، وضع يده على كتفي سرت معه وأخذ يتحدث عن قدرة الله ورحمته بعباده، لم أقتنع بما يرويه لي.. كلها حكايات، مرويات، سرت معه صامتا مغمغما بكلمات: حاشا لله، سبحانه وتعالى.

- تعال معي سأعطيك كتابا عن قدرة الله.

لم أكن أحتاج لكتب، فقدرة الله واضحة جلية في كل شيء، يكفي أن يقول للشيء كن فيكون، فجأة برق خاطر في ذهني، ماذا يحدث لو استجاب الله

بنفسي، تجاوز وقت المسابقة موعد الخروج من المعهد، رجعت على البيت، فرحا مهللا، صرخت أمي: أين أختك؟

هرعت للمعهد، وجدتها جالسة وحيدة على دكة بواب المدرسة، قلة حيلتها ووجهها المذعور ملآ قلبي بالحسرة، احتضنتها بقوة وأنا أعتذر لها: تصورت أن إحدى زميلاتك ستوصلك..

انهمرت دموعها، ساعدتها على النهوض، فظهرت بقعة بللت منتصف جيبتها من الخلف، لم أقل لها شيئا، ظللنا صامتين طوال الطريق، لكن أصابعي أخذت تربت على كفها بإيقاع هادئ بطيء يستحلب ما يعصف بذهني من حنق وغضب.

في درس طلاقة القدرة، صرت أجادل الأستاذ «الغمراوي» حتى طردني من الفصل.

في يوم الجمعة التالي، سلم عليّ بعد الصلاة، كنت غاضبا، وضع يده على كتفي سرت معه وأخذ يتحدث عن قدرة الله ورحمته بعباده، لم أقتنع بما يرويه لي.. كلها حكايات، مرويات، سرت معه صامتا مغمغما بكلمات: حاشا لله، سبحانه وتعالى.

- تعال معي سأعطيك كتابا عن قدرة الله.

لم أكن أحتاج لكتب، فقدرة الله واضحة جلية في كل شيء، يكفي أن يقول للشيء كن فيكون، فجأة برق خاطر في ذهني، ماذا يحدث لو استجاب الله لدعاء أمي وشفيت صباح من كل علاتها، ماذا لو استقامت من أسقامها؟!

أردت أن أدعوه لبيتنا، لكن أبي لم يكن موجودا، ماذا سيكون رد فعل والدتي أو رد فعل أبي؟

سألني الشيخ عن أبي، فأخبرته أنه في العمل، فقال: العمل عبادة.

سرنا على النيل حتى وصلنا لبلدته المجاورة لبلدتنا، صعدنا سلالم خارجية تصل إلى باب حجرة مستقلة عن بقية البيت، بينما شغل الدور الأرضي محل لبيع الأدوات والأجهزة المنزلية، في الحجرة رأيت أكبر مكتبة يمكن تخيلها في قرية صغيرة، انتمى الأستاذ الغمراوي فترة في شبابه للإخوان لكنه ابتعد عنهم، بعد أن خالطهم، وبسبب موقفه منهم كانوا يضيقون عليه في المعهد أو يدفعون بمن يتحداه في مسائل فقهية بأسئلة بعد خطبه في المناسبات. خبرتهم بتقواه وعلمه جعلتهم لا يؤذونه ولكن لا يمدحونه كما يفعلون مع إخوانهم.

رغم دراستي الدينية، لم يستطع الإخوان التأثير فيّ والانضمام إليهم، نفرت منهم ومن طريقة السمع والطاعة التي أمقتها، عرفت حقيقتهم عن قرب، ولم أنخدع بزيف تقواهم، لكن ما فاجأني هو السرعة الكبيرة التي انهاروا بها بعد 30 يونيو، أين سيطرتهم وتنظيمهم؟ ربط الإخوان الناس بهم من خلال الجمعيات والمستوصفات، والخدمات المباشرة، لا يمكن التخلص منهم بسهولة في الشارع، وبين البسطاء دون توفير هذه الاحتياجات.

أصبحت هذه المكتبة عالمي الجديد، سمح لي أستاذي أن أستعير منها ما أشاء، وجعل من يوم الجمعة موعدي لزيارته لمناقشته فيما أقرأ، لم تكن المكتبة نعمة الشيخ عليّ، بل لأنه أهداني الفرح الوحيد الذي عرفته في حياتي، عندما تعرفت على ابنته رحاب الاسم والمعنى.

في غرفتي أجلس بالساعات، ألتهم الكتب التي تقول كلاما غير ما ندرس في المعهد، وتخلق إسلاما جديدا، صافيا، أرتوي منه، تشاركني صباح بعض جلساتي منتظرة أن أحكي لها أو أقرأ عليها، أحيانا أشرح لها بعض ما يستغلق عليّ فهمه، كأني حين أردده، تنفك عقدة صعوبته، ويعود كأنه يخرج من عقلي وليس مجرد كلام مكتوب أردده، وصباح تشجعني بإنصاتها وسؤالها الوحيد.. ماذا يعني؟ فأشرح لها.

تشير لجهاز الراديو الذي تتابع برامجه وأغانيه بشغف، وتحفظ مواعيد البرامج بدقة تجعلها تعرف الوقت دون أن تنظر للساعة.

هذا الشغف وهذه اللمعة والفرحة التي تكسو وجهها، تجعلني أغضب من عجزي عن مساعدتها.. رأيت بالأمس فيلم «قدمي اليسرى» على صفحة أروى.. أصابني الفيلم بالحسرة.. ووصمني بالتقصير كل هذا الوقت، لماذا لم أطور مهاراتها؟! لماذا تركنا يديها وقدميها هكذا بلا فائد؟! كان من الممكن تحسين أدائها، هل إذا كنت الأكبر وكانت لي القدرة على مساعدتها كانت أوضاعها ستكون أحسن؟ لا أعرف كل ما أعرفه أن هناك فرصة ولم نغتنمها.

عندما جاءت الدورة الشهرية لصباح لم تكن تستطيع الذهاب تلك الأيام للمدرسة وكانت تنطوي على نفسها، تتوجع في صمت متشنج، تتقلص عضلات وجهها ويتلوى فمها وتشد بأصابعها الطويلة على فخذها، ما فائدة أن تأتي لها الدورة وهي لن تتزوج، لكن طلاقة القدرة أنها يمكن أن تحمل وأن تلد، حذرت الممرضة أمي بأن تنتبه لها.

نجت صباح من الختان الذي كان منتشرا للبنات لأن أمي لم تعتقد أن صباح مثل البنات أو سيكون لها علاقة بالزواج والإنجاب، وعندما جاءتها الدورة، تنبهت أمي لهذا الأمر وازداد وجلها، وأضيف خوف جديد لمخاوفها، مع أن أي شاب طبيعي لم يكن ليهتم بها، ولم أتخيل أن يحاول أحدهم التحرش بها، لكن دناءة الإنسان تفوق أي خيال، ذات عصر سمعت صراخ قادم من سطح البيت، اندفعت فزعا وخلفي أمي وهي تصيح: أختك. وجدنا ابن الجيران بين فخذيها وقد طوقته وعصرت وسطه وهو يتلوى ولا يستطيع منها فكاكا! بينما أصابعها قابضة على شعره ولا تكف عن هز رأسه وإصدار أصوات استغاثة وصرخات. ولم نكن وصلنا حتى كان الولد قد أغمي عليه وأصبح لونه بنفسجيا.

اقتربت منها وطلبت منه تتركه لأنه سيموت، لم ترخ قبضتها عنه، إلا بعد طبطبة ومحايلات ساعدتها على النهوض فدفسته برجلها في جنبه: كب،

أروى.. أصابني الفيلم بالحسرة.. ووصمني بالتقصير كل هذا الوقت، لماذا لم أطور مهاراتها؟! لماذا تركنا يديها وقدميها هكذا بلا فائد؟! كان من الممكن تحسين أدائها، هل إذا كنت الأكبر وكانت لي القدرة على مساعدتها كانت أوضاعها ستكون أحسن؟ لا أعرف كل ما أعرفه أن هناك فرصة ولم نغتنمها.

عندما جاءت الدورة الشهرية لصباح لم تكن تستطيع الذهاب تلك الأيام للمدرسة وكانت تنطوي على نفسها، تتوجع في صمت متشنج، تتقلص عضلات وجهها ويتلوى فمها وتشد بأصابعها الطويلة على فخذها، ما فائدة أن تأتي لها الدورة وهي لن تتزوج، لكن طلاقة القدرة أنها يمكن أن تحمل وأن تلد، حذرت الممرضة أمي بأن تنتبه لها.

نجت صباح من الختان الذي كان منتشرا للبنات لأن أمى لم تعتقد أن صباح مثل البنات أو سيكون لها علاقة بالزواج والإنجاب، وعندما جاءتها الدورة، تنبهت أمي لهذا الأمر وازداد وجلها، وأضيف خوف جديد لمخاوفها، مع أن أي شاب طبيعي لم يكن ليهتم بها، ولم أتخيل أن يحاول أحدهم التحرش بها، لكن دناءة الإنسان تفوق أي خيال، ذات عصر سمعت صراخ قادم من سطح البيت، اندفعت فزعا وخلفى أمي وهي تصيح: أختك. وجدنا ابن الجيران بين فخذيها وقد طوقته وعصرت وسطه وهو يتلوى ولا يستطيع منها فكاكا! بينما أصابعها قابضة على شعره ولا تكف عن هز رأسه وإصدار أصوات استغاثة وصرخات. ولم نكن وصلنا حتى كان الولد قد أغمي عليه وأصبح لونه بنفسجيا.

اقتربت منها وطلبت منه تتركه لأنه سيموت، لم ترخ قبضتها عنه، إلا بعد طبطبة ومحايلات ساعدتها على النهوض فدفسته برجلها في جنبه: كب، حوان.

وكانت هذه آخر مرة يفكر أحدهم في صباح كأنثى.

كلما لمحتها وأنا عائد للبيت وهي مستندة على الشباك بعينين ملونتين بين العسلي والرمادي وبشرة بيضاء، وشعر بني مقصوص «ألا جارسون»، وفك بارز قوي، لا تستطيع التحكم في غلقه، يملؤني الحزن والغضب فكها ضخم بارز، فكها قوي وخاصة العلوي بنية عظمية قوية، هذه العظام هى سبب مأساتها حافظت عليها من الموت وأعطتها حياة ممسوخة.

بعد حصولي على الثانوية الأزهرية، كان لا بد لي من الارتحال للقاهرة، فعّلت كل طاقتي وحرصت على عدم العودة للبلد، لكن صباح كانت تشدني للعودة، للاطمئنان عليها وكي أسكب في أذنيها، كل آمالي وطموحي وحيرتي..

تهمس لي:

- أريد أن تأخذني للقاهرة.

أعدها وأنا لا أعرف كيف. أحاول أن أغرس لي جذرا في العالم الجديد، أن أكسب ثقة المصلين. منذ ستة شهور، طلب مني اللواء يسري صالح أن أجلس كل جمعة بعد الصلاة وانصراف المصلين ساعة مع شاب من معارفه كي أعلمه أصول الدين، وأن أطمئنه إلى حسن إسلامه ومعرفته الوافية بأركان الإسلام وأحكام العبادات، رحبت بالطلب، لكن لم أتوقع أن يكون الشخص المقصود هو فادي الذي أشهر إسلامه من أجل الزواج من أروى حفيدة اللواء.

حضرت حفل الزفاف مدعوا من اللواء يسري صالح وبتأكيد من العروسين اللذين توثقت علاقتي بهما خلال الدروس الدينية، أروى أكدت أنني داعية ممتاز ولا تنقصني سوى دفعة لدى مدير القناة التي تعمل بها ليكون لي برنامج مستقل.

بدأت الدخول في هذا العالم منذ خمسة أعوام، كان أول ظهور تلفزيوني لي الكلمة التي ألقيتها في جنازة المطربة وردة، كاميرات كثيرة، وسيدات دخلن المسجد دون حجاب، مرشح رئاسي حضر صلاة الجنازة، بعد أن نعاها لجماهيرها على شاشة الفضائيات، وقال «لو كنت رئيسا كنت سأنعي الفنانة وردة، وسأصدر بيانا رسميا بذلك، لدورها الكبير في الكثير من القضايا القومية، وأعمالها الوطنية، وهناك كثير من الفنانين يستحقون أن ينشغل بهم رئيس الجمهورية»، بعدها بدأت استضافتي تليفونيا للرد على بعض أسئلة المشاهدين..

لا توجد فرصة للظهور أمام الكاميرا، إلا ويغتنمها الجميع.. وفي حفل الزفاف بدأت الطريق الصحيح، ويمكن الآن أن أفي بوعدي لصباح، وأخرج بها من البيت المدفون في تلافيف أزقة وحارات، لشقة في عمارات الأوقاف الجديدة في المنيل.

الفنانة وردة، وسأصدر بيانا رسميا بذلك، لدورها الكبير في الكثير من القضايا القومية، وأعمالها الوطنية، وهناك كثير من الفنانين يستحقون أن ينشغل بهم رئيس الجمهورية»، بعدها بدأت استضافتي تليفونيا للرد على بعض أسئلة المشاهدين..

لا توجد فرصة للظهور أمام الكاميرا، إلا ويغتنمها الجميع.. وفي حفل الزفاف بدأت الطريق الصحيح، ويمكن الآن أن أفي بوعدي لصباح، وأخرج بها من البيت المدفون في تلافيف أزقة وحارات، لشقة في عمارات الأوقاف الجديدة في المنيل.

مقام الترقب

أروى

يحرص فادي على أن يقضي يوم الجمعة مع والديه، فأنتهز الفرصة للعودة لحجرتي في فيلا جدي. أجلس في مواجهة أشعة الشمس المخترقة لواجهة نافذتي، تواجه الشمس غرفتي حتى الثانية ظهرا، بعدها يبدأ الظل في رسم خطوطه وتحديد مساحته المتنامية، أشعر بعد ساعة من الجلوس في سكينة واسترخاء أمام شمس الصباح بقشعريرة، بتبخر الماء المكون لخلايا جسدي، يصحب البخار غير الملموس طاقتي، فأشعر بعطب في مراكز الطاقة، وبالحاجة إلى شحن جديد والرغبة في امتصاص طاقة الآخرين، لتزويدي بالسخط والغضب اللازمين لروحي.

«فيس بوك» واحد من وسائطي العديدة للحصول على الطاقة، لي على الفيس بوك أكثر من حساب لا أتذكر عددهم، واحد فقط يحمل وجهي الحقيقي، البقية بأسماء وصور تعبيرية مختلفة، أجرب واقعا غير واقعي، ذاتا غير ذاتي، أتبنى آراء مناقضة لآرائي، ألف وجه أرتدي وأنا أراقب الآخرين، كأنهم فئران في تجربة، أركز على شخص بعينه أراسله بشخصياتي المتنوعة وأراقب رد فعله على حالاتي، يسليني الأمر كثيرا، أختبر قدراتي التمثيلية، أشحذ همتي في التلون والتخفي، حرباء بألف لون، دون حقيقة لي، أقتبس مقولات الآخرين، ألبِّس رأي هذا رأي ذلك، كلمة من هناك وإشارة من هنا، أحيانا أتوه ولا أعرف من أنا، فأعود لمخططاتي الصغيرة كأنها ورقة «البرشام» التي أغش بها في الامتحان.

في الفضاء الإلكتروني قاعدتي هي كسر القواعد والقوانين، حيث لا جاذبية ولا روابط، ذاتي تتملص من ذاتي، والفرصة سانحة للكر والفر، أرتدي

يحرص فادي على أن يقضي يوم الجمعة مع والديه، فأنتهز الفرصة للعودة لحجرتي في فيلا جدي. أجلس في مواجهة أشعة الشمس المخترقة لواجهة نافذتي، تواجه الشمس غرفتي حتى الثانية ظهرا، بعدها يبدأ الظل في رسم خطوطه وتحديد مساحته المتنامية، أشعر بعد ساعة من الجلوس في سكينة واسترخاء أمام شمس الصباح بقشعريرة، بتبخر الماء المكون لخلايا جسدي، يصحب البخار غير الملموس طاقتي، فأشعر بعطب في مراكز الطاقة، وبالحاجة إلى شحن جديد والرغبة في امتصاص طاقة الآخرين، لتزويدي بالسخط والغضب اللازمين لروحي.

«فيس بوك» واحد من وسائطي العديدة للحصول على الطاقة، لي على الفيس بوك أكثر من حساب لا أتذكر عددهم، واحد فقط يحمل وجهي الحقيقي، البقية بأسماء وصور تعبيرية مختلفة، أجرب واقعا غير واقعي، ذاتا غير ذاتي، أتبنى آراء مناقضة لآرائي، ألف وجه أرتدي وأنا أراقب الآخرين، كأنهم فئران في تجربة، أركز على شخص بعينه أراسله بشخصياتي المتنوعة وأراقب رد فعله على حالاتي، يسليني الأمر كثيرا، أختبر قدراتي التمثيلية، أشحذ همتي في التلون والتخفي، حرباء بألف لون، دون حقيقة لي، أقتبس مقولات الآخرين، ألبِّس رأي هذا رأي ذلك، كلمة من هناك وإشارة من هنا، أحيانا أتوه ولا أعرف من أنا، فأعود لمخططاتي الصغيرة كأنها ورقة «البرشام» التي أغش بها في الامتحان.

في الفضاء الإلكتروني قاعدتي هي كسر القواعد والقوانين، حيث لا جاذبية ولا روابط، ذاتي تتملص من ذاتي، والفرصة سانحة للكر والفر، أرتدي وأخلع كل الأقنعة وقتما أريد، أعلق ذواتي على شماعة الظروف، على الفيس تتنوع ذواتي؛ ذات زاحفة، طائرة، ثابتة كشجرة الكافور التي تطل عليها غرفتي.

في الصباح أفتح دولابي وأنتقي ما يناسب اليوم من ألوان ذاتي، وفقا لحالة الطقس والمكان الذي سأذهب إليه: ذات العمل رمادية، ترتدي نظارة سوداء أو زرقاء، ذات عملية سريعة، متعاونة، قادرة على حل المشاكل، يغبطها الجميع على نشاطها.

ذات «النادي»: حمراء برتقالية مع مسحة خضراء أو صفراء وضحكة مجلجلة، أخوة وحنان وتفاهم وتعاطف ومساندة للأطفال الصغار وتشجيع لهم حول «البسين»، لكني سأغضب، وسأرفض بشدة أن تخاطبني ابنة البواب في برج «قصر العيني» وهى تفتح لي باب الأسانسير: «تفضلي يا طنط»، «طنط»! تصدمني الكلمة، أنا لست طنط، تفضلي يا مدام ممكن، لكني لست «طنطها» بالتأكيد هي لها «طنط» غيري، وربما أكون أنا «طنط» لطفلة أخرى لكني لست «طنطها»، المشكلة ليست في هذه الصغيرة التي لا أتذكر اسمها، لكن المشكلة في هذا العالم الذي ينهار مركزه وحوافه.

يبدأ الانهيار من الشارع والطريق.. ففي مساءات الجمعة الرائقة، حيث الشوارع ناعسة قبل الغروب، أركب سيارتي، أسير بها محازية لقصر محمد علي، أعبر الكوبري الصغير، أكمل باستقامة وأتجه يسارا مع شارع قصر العيني متجهة لوسط البلد، تحاصرني الكلاكسات أينما سرت، من سائقين يعتقدون أنهم يملكون الحارات والأرصفة، لا ألتفت لأن العالم يتسع للجميع، لكن السائقين الآخرين يرمقون سيارتي السوداء «التويوتا» الجديدة، بغضب أعمى، تستفز رؤيتها خلاياهم المجهدة والمضغوطة، تستدعي ذكرياتهم أيام الغربة وضغوط العمل، وربما الحاجة إلى الاستيقاظ يوم الجمعة، يوم الراحة الأبدية، يلعنوني في سرهم تلك التي تقود سيارة دون غربة أو ألم، ينفسون عن ضغطهم بالضغط على الكلاكس.

يحذرني سائق جدي الذي أغافله -أسمح لنفسي أن أقود السيارة الجديدة بدلا من قيادة العالم- أن العمل يوم الجمعة حرام، ومن ثم فقيادة السيارة حرام.. يبدو لي أن هناك خلطا ما، تشويش، فلم يكن وليد يهوديا ولا كان مثقفا ليقرأ عن الأساطير التوراتية، هل توغلت الإسرائيليات إلى هذا الحد؟ أتحصن بمعرفتي وأسدد في وجه وليد قذيفة «وإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله» يصاب السائق بالصمم، تتبخر حروف الآية رغم زجاج السيارة المغلق وتظل ترفرف ببهاء نوراني فوق شجرة خضراء على جانب الطريق، يرد وليد حجتي بعبارته اليقينية الملغزة: لكن العمل يا أستاذة حرام يوم الجمعة.

حين ينهار جسر المنطق تتفتح داخلي كهوف الريبة: فهل تمت عملية غسيل مخ لوليد السائق وهو في طريقه للتأسلم وسيشد رحاله قريبا إلى داعش بعد تماوت الإخوان في مصر؟ أكاد أنسى الموضوع برمته وأنسى وليد نفسه طوال أيام الأسبوع، حتى يأتي صباح الجمعة فأعيد التفكير في الموضوع وأقلب كل وجوهه وبينما «وردة» تشرح حكايتها مع الزمن «رسم لي عالسما، جنة فيها الهنا وقال هنعيش سوا، قلت احلوت سنيني...)، استبعدت فكرة الأخونة والأسلمة، وبرق في خاطري أن وليد يمارس تدريبات الفهلوة المصرية في هوائها المكيف، وأن الأمر لا يزيد على رغبة في «أوفر تايم».

أستغرق في التفكير فلم أنتبه إلى أنني لم آخذ أيا من الحارة اليمنى أو اليسرى في شارع قصر العيني، وجدت نفسي أمام الجزيرة الوسطى للشارع، توقفت وكان عليّ أن أتراجع قليلا ثم آخذ اتجاه الحارة اليمنى فأكسر يمينا، فعلت هذا على عجل، فلم ألمح السيارة الميكروباص القادمة من الخلف، ثقل الميكروباص دفعني فارتدّت إثر الصدمة لرصيف الجزيرة الوسطى، كدت أصعد عليه، لولا سرعة إدارتي للدركسيون، اعتدلت السيارة فأسرعت وخرجت من المدخل الضيق للحارة اليمنى، أدوس بنزين بقوة والسيارات من حولي تزعق بأعلى صوتها، لكني لم أسمع غير نبضي وأنفاسي المتسارعة.. حين تصدم أحدهم ويرتطم جسد حي بكبوت سيارتك، تدوس على البنزين بأقصى سرعة، ليست اللا مبالاة أو اللا مسئولية، فقط أنت لا تستطيع أن تتحكم في سيارتك أو نفسك، والأدرينالين يدفعك للهروب، حتى تستوعب ما حدث، وتحاصرك سيارة ميكروباص فتضغط على الفرامل وتقف على بعد مائتي متر من جسد حي ينزف روحه على الرصيف، وأنت لا تستطيع أن تستعيد ما حدث.. وليس لديك سوى الخوف والرغبة في

حين ينهار جسر المنطق تتفتح داخلي كهوف الريبة: فهل تمت عملية غسيل مخ لوليد السائق وهو في طريقه للتأسلم وسيشد رحاله قريبا إلى داعش بعد تماوت الإخوان في مصر؟ أكاد أنسى الموضوع برمته وأنسى وليد نفسه طوال أيام الأسبوع، حتى يأتي صباح الجمعة فأعيد التفكير في الموضوع وأقلب كل وجوهه وبينما «وردة» تشرح حكايتها مع الزمن «رسم لي عالسما، جنة فيها الهنا وقال هنعيش سوا، قلت احلوت سنيني...)، استبعدت فكرة الأخونة والأسلمة، وبرق في خاطري أن وليد يمارس تدريبات الفهلوة المصرية في هوائها المكيف، وأن الأمر لا يزيد على رغبة في «أوفر تايم».

أستغرق في التفكير فلم أنتبه إلى أنني لم آخذ أيا من الحارة اليمنى أو اليسرى في شارع قصر العيني، وجدت نفسي أمام الجزيرة الوسطى للشارع، توقفت وكان عليّ أن أتراجع قليلا ثم آخذ اتجاه الحارة اليمنى فأكسر يمينا، فعلت هذا على عجل، فلم ألمح السيارة الميكروباص القادمة من الخلف، ثقل الميكروباص دفعني فارتدّت إثر الصدمة لرصيف الجزيرة الوسطى، كدت أصعد عليه، لولا سرعة إدارتي للدركسيون، اعتدلت السيارة فأسرعت وخرجت من المدخل الضيق للحارة اليمنى، أدوس بنزين بقوة والسيارات من حولي تزعق بأعلى صوتها، لكني لم أسمع غير نبضي وأنفاسي المتسارعة.. حين تصدم أحدهم ويرتطم جسد حي بكبوت سيارتك، تدوس على البنزين بأقصى سرعة، ليست اللا مبالاة أو اللا مسئولية، فقط أنت لا تستطيع أن تتحكم في سيارتك أو نفسك، والأدرينالين يدفعك للهروب، حتى تستوعب ما حدث، وتحاصرك سيارة ميكروباص فتضغط على الفرامل وتقف على بعد مائتي متر من جسد حي ينزف روحه على الرصيف، وأنت لا تستطيع أن تستعيد ما حدث.. وليس لديك سوى الخوف والرغبة في الهرب، وبعض من الندم ستريقه، ليس الآن، فيما بعد، حين تمضي الحياة دوما كما اتفق، وتتأكد أن كل المقدمات ستؤدي للنتيجة نفسها.

يشير السائقون المحاذون لي أن أقف، أن أركن يمينا، لم أفعل، لم أستطع، لم أفهم، تدفعني المزيد من الكلاكسات إلى المزيد من السرعة، حتى حاذاني سائق الميكروباص الذي خبطني، وأشار لي فلمست أصابعي الفرامل وبدأت أستوعب ما يحدث، لا ليس ما يحدث تماما، ولكن ما هو مطلوب مني أن أفعل. فوقفت بالسيارة خلف الميكروباص، عندها نزل السائق وهو يلوح بيديه، أنزلت الزجاج، في المسافة الفاصلة بين إنزالي الزجاج وبداية حديثه استعدت رباطة جأشي:

- «أوكيه» أنا أخطأت، ماذا تريد؟

يصرخ سائق الميكروباص: هذه سيارة أكل عيش..

هذه العبارات لا تمس قلبي، «ما كلنا بناكل عيش»، وإصابة سيارتي أكبر، الفانوس تحطم والإكصدام انهار، بينما يظهر انبعاج في الناحية اليسرى من جسم الميكروياص، يسهل رده عند أي سمكري.

– والمطلوب؟ أي إصلاحات سأدفع لك ثمنها، عندي موعد في المركز الفرنسي، وبعدها نرى الحل.

سار نحو سيارته، تجاوزته ودخلت في الشارع الجانبي في طريقي للسنتر الفرنسي، أعطي السايس مفتاح السيارة كي يركنها، أدخل للمكتبة، أرد الكتب التي سبق استعارتها وأعود للسائق بسرعة دون استعارة كتب جديدة، كي تبدأ المماطلة والمساومة والابتزاز بحسبي الله ونعم الوكيل، أوضح له السايس أن المسألة بسيطة، أعطيه مائتي جنيه.

- إذا احتاجت شيئا اتصل.

لم يأخذ نمرتي، طلب السايس منه رقمه، قال: سأتصل بك بعدين.

ما إن ركب الميكروباص حتى نظر لي السائق بغضب وصرخ: حضرتك بتسوقي على قدك، يبقى الأحسن لا تسوقي.

أجبته بغطرسة: بفلوسي.

ها أنا أرتدي قناعي الحقيقي، وجهي الموروث، فمي فحسب هو الذي يردد أمام الميكروفون كلمات العدالة والمساواة.

لو أن جدتي نجاة تعلم أن المجد سيكون للبهلوانات ما تنكرت للموالد وألعاب النار، ماما أيضا لا تقر بأن لنا من السيرك نصيبا، لكن دادة سهاد لا تكف عن الحكايات، السيرك كما كل شيء ظاهر وباطن، الظاهر دائرة كبيرة واضاءات قوية ونجوم، الساحر، المهرج، الدائرة تجعل كل محيطها مكشوفا، استعراض المهارات، ركوب الخيل، ترويض الحيوانات؛ الأسود، الفيلة، الدببة، الساحر: الخدع الحيل، السرعة وخفة اليد، الإبهار، المهرج للاسترخاء وتخفيف التوتر عن الأعصاب المشدودة.. التفاصيل كثيرة، الفرقة الموسيقية تعزف بموسيقات لا تسمعها غير هنا، الدائرة وكل ما خلفها خارج الحسبان، في الخلف الكل يركض، التخصص فقط تحت الضوء، في الخلف يمكنك أن تقوم بكل المهام والمساعدة، لا تكف عن الركض والحمل والتنقل، دائرة، مفرمة، تجعلك لا تفكر في شيء سوى في النوم.

لا أريد أن أسمع المزيد عن سيرك دادة سهاد، يبدو سيركها صغيرا أمام السيرك الذي أعيش فيه، عندما يتحول الشذوذ والاستثناء إلى قاعدة، عندما تتعدد الأقنعة، يصبح المجد للفوضى، للادعاء، للانسحاب، للهرب، للطوابير؛ طوابير الخبز، البنزين.. هذه الطوابير أكتب عنها على صفحتي الرسمية وأصدقائي يعرفون أني

لا أحرفها ولا أدعي معرفتها بل إنني لا أصدق كل ما تبثه الشاشات من إعلانات تسيل عن الفقراء الذين لا يجدون ما يأكلون، لا أتخيل أن هذا

أجيب بمسرحية بنوسي.

ها أنا أرتدي قناعي الحقيقي، وجهي الموروث، فمي فحسب هو الذي يردد أمام الميكروفون كلمات العدالة والمساواة.

لو أن جدتي نجاة تعلم أن المجد سيكون للبهلوانات ما تنكرت للموالد وألعاب النار، ماما أيضا لا تقر بأن لنا من السيرك نصيبا، لكن دادة سهاد لا تكف عن الحكايات، السيرك كما كل شيء ظاهر وباطن، الظاهر دائرة كبيرة واضاءات قوية ونجوم، الساحر، المهرج، الدائرة تجعل كل محيطها مكشوفا، استعراض المهارات، ركوب الخيل، ترويض الحيوانات؛ الأسود، الفيلة، الدببة، الساحر: الخدع الحيل، السرعة وخفة اليد، الإبهار، المهرج للاسترخاء وتخفيف التوتر عن الأعصاب المشدودة.. التفاصيل كثيرة، الفرقة الموسيقية تعزف بموسيقات لا تسمعها غير هنا، الدائرة وكل ما خلفها خارج الحسبان، في الخلف الكل يركض، التخصص فقط تحت الضوء، في الخلف يمكنك أن تقوم بكل المهام والمساعدة، لا تكف عن الركض والحمل والتنقل، دائرة، مفرمة، تجعلك لا تفكر في شيء سوى في النوم.

لا أريد أن أسمع المزيد عن سيرك دادة سهاد، يبدو سيركها صغيرا أمام السيرك الذي أعيش فيه، عندما يتحول الشذوذ والاستثناء إلى قاعدة، عندما تتعدد الأقنعة، يصبح المجد للفوضى، للادعاء، للانسحاب، للهرب، للطوابير؛ طوابير الخبز، البنزين.. هذه الطوابير أكتب عنها على صفحتي الرسمية وأصدقائي يعرفون أني

لا أعرفها ولا أدعي معرفتها، بل إنني لا أصدق كل ما تبثه الشاشات من إعلانات تسول عن الفقراء الذين لا يجدون ما يأكلون، لا أتخيل أن هذا يحدث، ربما لا أريد أن أصدق كي يرتاح ضميري.. لطيفة كلمة «الضمير» تناسب صفحة التراث، تناسب الزخارف، خط الثلث، قماش الخيمية، فانوس رمضان وحوي يا وحوي، تناسب المتحف الذي تعمل ماما فيه، يحفظون المومياوات بكل أبهة وفخامة.. يكفنون الضمير بطبقات كي يخفوا موته، تعفنه وتحلله.

أنا أقرأ كثيرا وأوظف كل ما أقرأ لصالحي.. أجمع كلمة من هنا، عبارة من هناك، حكما موزونة، بيتا لشاعر، مقولة لروائي، رأيا لسياسي، أستعيرها، أنتحلها، أضيف لها، العالم فسيفساء جزر متصلة معزولة.. وأردها للجمهور، للرواد المتحلقين حول قناديل الشهوة والإغواء.

«ظلي مثل المهرج خلف الملكة

عندما تنهض الملكة من فوق كرسي العرش

فينتصب المهرج مرتعبا على الحائط

ويقرع السقف برأسه الأبله».

لو قدر لي أن أختار ذاتا واحدة أستكين بها وتلتصق بي، لاخترت ذاتا غجرية. هل أتعمد إغاظة ماما؟ فأختلق حكايات ومواقف وذكريات من وحي صورة صغيرة لجدة لم أرها، هل حقا تعود أصولنا للغجر؟ هل هذا هو السر الذي تهرب منه دائما؟ لكن استكانتها، وذاتها الراضية لا توحي بأية «كارمن» أو تمرد أو خروج عن مألوف.

أضع على صفحتي الرسمية أغنية لشاعر غجري: «لم أعرف أبي أبدا، وليس لي أصدقاء، ماتت أمي منذ زمن، وتركتني حبيبتي غاضبة، وأنت وحدك يا كماني، ترافقني في هذا العالم».

أبحث في أشعار لوركا:

«آه يا أسى الغجر

أيها الأسى النقيّ المتفرّد أبدا

يا أسى دربٍ خفي

وصبحٍ بعيد».

تشدني دقات الفلامنكو الممتزجة بالألم والحزن مع البهجة والفرحة، صحوة الحياة من سكرة الموت، يقظة الوجود من سبات العدم، الغناء والرقص والعزف على الجيتار، ترديدات التصفيق الجماعي أو الفردي.

على اليوتيوب أتابع مصارعة الثيران ورقصات الفلامنكو، موسيقى جورج بيزيه في كارمن:

«أفضّل أن أكون مطرقة بدلا من أن أكون مسمارا..

أجل أفضّل

لو كنت أستطيع لفضّلت».

حول الأرض، «رقصت معهم بيوت ليس لها شوارع».. من أين أتت جدتي بهذا الرسوخ؟

أيها الأسى النقيّ المتفرّد أبدا

يا أسى دربٍ خفي

وصبحٍ بعيد».

تشدني دقات الفلامنكو الممتزجة بالألم والحزن مع البهجة والفرحة، صحوة الحياة من سكرة الموت، يقظة الوجود من سبات العدم، الغناء والرقص والعزف على الجيتار، ترديدات التصفيق الجماعي أو الفردي.

على اليوتيوب أتابع مصارعة الثيران ورقصات الفلامنكو، موسيقى جورج بيزيه في كارمن:

«أفضّل أن أكون مطرقة بدلا من أن أكون مسمارا..

أجل أفضّل

لو كنت أستطيع لفضّلت».

حول الأرض، «رقصت معهم بيوت ليس لها شوارع».. من أين أتت جدتي بهذا الرسوخ؟

أتماهى مع الأفلام القديمة: فيلم «الغجرية» وفيلم «غازية من سنباط»، أحب نعيمة عاكف في فيلم تمرحنة.

أفتح صفحة باسم «علي زين العابدين» وأختار البروفيل صورة لرشدي أباظة من فيلم «تمرحنة»، وهو عار في الجزء العلوي إلا من صديري، ويدفع بعربة الموالد، وفي الخلفية صورة من مولد الحسين. على الخاص أرسل رسائل لصديقاتي وأعبر عن إعجابي بهن أحيانا بصورة مباشرة، أختار ما الذي يناسب الرجال، الصور نجمات السينما، عندما ظهر الفيس كان أول حساب لي عاما، اكتشفت أن ماما تكتب قصصا، خواطر، منحتني فرصة التعرف إليها لكنني لم أكن متعاطفة معها زادتني هذه الكتابات تعجبا منها كيف تحملت هذا الألم لماذا لم تقاوم منذ البداية، لماذا، لم تبذل جهدا كافيا كي تحميني وأخي من أنانية بابا، احتفظت بهذه القصص لا كذكرى حلوة، لكن كندبة يلعقها لساني كلما تحدث أحد عن العدل والظلم والتسامح والمغفرة.

لم أكن أدري أنه سيكون لها استخدام آخر، أوجه بهذه الخواطر ضربة قاضية، أو على الأقل ضربة موجعة، لزوجة علي، هذه التي اتصلت بي كي تطلب مني أن أبتعد عن زوجها، وأعطتني محاضرة في الأخلاق والضمير ونصحتني بمنتهى الصلف أن أحافظ على بيتي، لا بيتها: أنت حفرة وقع فيها زوجي، وسيقوم منها طال الوقت أم قصر.

لا لست حفرة، أنا واقع تتجاهله بغرور، لو أنها استعطفتني، لو أنها هددتني، لكنها كانت تتكلم بثقة ليست حادة كسكين، ولكنها ثقيلة كمطرقة، باترة كسيف. أصدرت روايتها الجديدة، اخترقت صفحتها ووضعت قصة «طموح».

كانت القصة دون مستواها، وبأسلوب تجاوزته، لكني شاركتها على صفحات كل أصدقائها، بصورة منتظمة كنت أرسل خواطر أمي على أنها كتابتها، وكانت الكتابة متسقة مع حالة الكمون التي تعيشها.

قدمت عبر الموقع الذي أديره، حلقة عن تخلي الكتاب عن كتاباتهم الأولى وتراجع مستواهم وضحالة تجربتهم، قامت بحذف القصص من الصفحة وكتبت توضيحا أن القصة ليست قصتها، وأنه تم اختراق حسابها، لكن الجدل استمر، كل ما أردته أن أنغص عليها حياتها، أن أستفزها، أن تخرج من هذا الصمت، هذه المحمية، هذه الشرنقة، لكنها مشغولة بأمومة أفتقدها ولا أريد تبعاتها.

شعرت بالغيرة منذ التقيت بها لأول مرة، منذ لاحظت بشرتها الناعمة، ضحكة عينيها وهي تقبل طفلتها، جريها خلفها ومتابعتها لها في النادي الذي دعوتهم إليه، أظهرت دهشة أنهم ليسوا أعضاء في نادٍ، فقالت: لا يوجد وقت، لا توجد حاجة إليه.

دعوتهم كي يقضوا يوما معي وكي يزداد تعارفنا، تبدو صفحة وجهها هادئة، مطمئنة، لا تترقب شيئا، هي صورة غير واقعية، بعيدة عن التذمر والشكوى، والصخب الذي يملأ حياتي، شيء لا أريد أن أصدق أنه موجود، لماذا يصدمني هذا البذخ وهذه الرفاهية في مشاعرها من أين لها بهذه الروح والطاقة، بما تغلف نفسها؟ وأي درع واقية ترتدي لتحميها من الحقيقة، الزحمة، الغضب؟ ملساء ناعمة، تتحرك بثبات.. أنا العجلة المربعة تتحرك بيسر على الأرض المكونة من منحنيات، ربما لهذا تسير حياتي، لماذا لم أتعثر في هذه المنحنيات؟ ببساطة لأنها كانت السطح الأنسب لحركتي وعندما جاءت أرض مستوية. مستقيمة، تعثرتُ، وظهر عجزي وهشاشتي وحقيقتي.

كرهتها.. منذ رأيتها في عينيه، وهي تتحدث كضيفة في أحد برامجنا وهو واقف في غرفة الكنترول يتابع الحلقة المذاعة على الهواء وكلما جاءت الكاميرا عليها، مال جسده وتحرك عنقه في اتجاه الشاشة التي تتبع الكاميرا التي تلتقطها، ومجرد النزول بالتتر، أسرع للاستوديو وقبَّل رأسها وسلم على بقية الضيوف والمذيع وهو محتضنها بنصف كتفه، عيناه تلمعان وتحيطان بها وهى تبتسم له في راحة وعفوية، نظرة عينيه، هذا الشغف، التقدير، الإعجاب، الافتتان، أريد أن ينظر أحد لي هكذا، أريد هذه النظرة، أريدها لي... بدأت بالتقرب منه، إطالة الحديث والاتصال به، تقديم النصائح له، دعوته للغداء، حضور حلقات مونتاجه، تجميع كل ما يكتب عنه، إدراج اسمه في الدعوات لحضور حفلات ومناسبات عامة، استجاب لي، أظهرت له [illegible]

دعوتهم إليه، اظهرت دهشته انهم ليسوا اعضاء في نادٍ، فقالت: لا يوجد وقت، لا توجد حاجه إليه.

دعوتهم كي يقضوا يوما معي وكي يزداد تعارفنا، تبدو صفحة وجهها هادئة، مطمئنة، لا تترقب شيئا، هي صورة غير واقعية، بعيدة عن التذمر والشكوى، والصخب الذي يملأ حياتي، شيء لا أريد أن أصدق أنه موجود، لماذا يصدمنى هذا البذخ وهذه الرفاهية في مشاعرها من أين لها بهذه الروح والطاقة، بما تغلف نفسها؟ وأي درع واقية ترتدي لتحميها من الحقيقة، الزحمة، الغضب؟ ملساء ناعمة، تتحرك بثبات.. أنا العجلة المربعة تتحرك بيسر على الأرض المكونة من منحنيات، ربما لهذا تسير حياتي، لماذا لم أتعثر في هذه المنحنيات؟ ببساطة لأنها كانت السطح الأنسب لحركتي وعندما جاءت أرض مستوية. مستقيمة، تعثرتُ، وظهر عجزي وهشاشتي وحقيقتي.

كرهتها.. منذ رأيتها في عينيه، وهي تتحدث كضيفة في أحد برامجنا وهو واقف في غرفة الكنترول يتابع الحلقة المذاعة على الهواء وكلما جاءت الكاميرا عليها، مال جسده وتحرك عنقه في اتجاه الشاشة التي تتبع الكاميرا التي تلتقطها، ومجرد النزول بالتتر، أسرع للاستوديو وقبَّل رأسها وسلم على بقية الضيوف والمذيع وهو محتضنها بنصف كتفه، عيناه تلمعان وتحيطان بها وهى تبتسم له في راحة وعفوية، نظرة عينيه، هذا الشغف، التقدير، الإعجاب، الافتتان، أريد أن ينظر أحد لي هكذا، أريد هذه النظرة، أريدها لي... بدأت بالتقرب منه، إطالة الحديث والاتصال به، تقديم النصائح له، دعوته للغداء، حضور حلقات مونتاجه، تجميع كل ما يكتب عنه، إدراج اسمه في الدعوات لحضور حفلات ومناسبات عامة، استجاب لي، أظهرت له ندمي على الزواج من فادي، تعاطف معي، وكان حمل زوجته وانشغالها بالمولود الجديد، فرصتي كي أظهر له ضعفى واحتياجي إليه، وكلما زاد اهتمامه بي، بحثت عن هذه النظرة، لكني لم أرها، أصبح منشغلا بنفسه أكثر، تزداد المقربات منه داخل القناة، كل شابة من المخرجات أو المعدات تتحدث معه تتعلق به، لم أحصد ما غرست، رغم نجاحي في إفساد علاقتهما وإفساده، إلا أن اختراق حسابها أكسبها تعاطفه.

أشتاق إليك، لا أستطيع الابتعاد عنك، أنت ملأت حياتي و.. و.. لكنه لم ينظر لي ولم يخطئ وينادي إحداهن باسمي، كما يفعلها وينسى وينادينى باسمها: رحاب، السعي لهذه النظرة، والبحث عن هذا الأمان يفسد حياتي ويخربني أنا أكثر مما أنا خربة.

يعود فادي في المساء، يدعوني لمشاهدة فيلم: مريم المجدلية، أحاول التملص من السهر معه، لم أعد أطيق مثاليته، أسئلته الوجودية التي تناقض بساطة تفاصيله، اهتماماته:

- ألم أقل لك يوما ستأخذ المجدلية حقها؟

يقبِّل يدي ويحتفظ بها ملامسة لعنقه، ألم يلاحظ أن بطرس أسود؟ خواكين فينكس أكبر سنا من المسيح، وجهه أكثر حدة وأقل براءة.

يحاول فادي أن يتقرب لي، أن يسد فجوة أتعمد أن تتسع..

يسألني: ما رأيك؟

أجيب بفتور:

- هناك تشابه بينهما.

أتسحب من جواره، أكتب على الواتس لعلي:

- أين أنت الآن؟

- في اجتماع.

- اجتماع أم البيت؟

- اجتماع مع رعاة.

- وسترجع البيت؟

- نعم.

- سأطلب الطلاق من فادي.

- لا بأس، إذا كان هذا ما تريدين.

- وأنت؟

- أنا عندي اجتماع. سلام.

أقذف الموبايل، يأتي فادي على الصوت، يأخذني في حضنه: ماذا حدث؟

- الزفت الشغل.

- اجتماع مع رعاة.

- وسترجع البيت؟

- نعم.

- سأطلب الطلاق من فادي.

- لا بأس، إذا كان هذا ما تريدين.

- وأنت؟

- أنا عندي اجتماع. سلام.

أقذف الموبايل، يأتي فادي على الصوت، يأخذني في حضنه: ماذا حدث؟

- الزفت الشغل.

- أنت تجهدين نفسك كثيرًا، الشغل يأخذ منك وقتا وجهدا كبيرا.

أريد أن أصرخ في وجهه بالحقيقة، لا يحملني ذنبه، أمه ما زالت موجودة، والشاة الضالة مرحب بها وباب الحظيرة موارب كي يلجه في أي وقت، لا تحبني، ولم تحبني في يوم من الأيام، تشفق عليّ، تخاف على ابنها مني، فتحاول أن تقلل من تواجدي في بيتها، لكن بيتها أعجبني، رغم سطوتها وتحكمها الشديد: ادخلي اغسلي إيديك،
لا تسيري حافية، الفستان قصير البسي تحته شورت.

ظلت تتبعني حتى بعد أن أصبحت في «السكندير»، رأتني في الطابور وقد صبغت أطراف شعري بلون أحمر بنفسجي، انتظرت منها موجة غضب لمخالفتي لقواعد المدرسة، أن تخرجني من الطابور وتحولني لسير «ريتا» المسئولة عن المرحلة الثانوية، لكنها لم تفعل، بل إنها طوقت كتفي:

- يا مجنونة!

لم أرد، لكنني صوبت ابتسامي تجاهها وأنا أعرف التأثير المخدر لهذه الابتسامة:

- اصعدي إلى «الكلاس» وسأتحدث مع ماما لنرى كيف نصلح هذه الغلطة.

فلتردد ما أرسلته لي على الواتس:

«أنا من أدخلتك حياته، قربتك من روحي وجعلتك ابنتي أرعاها إذا حضرت، وأشتاق لها إن غابت. وأنت خدعت قلبي وجعلت من ابني غرس حنظل، مرر آخر أيامي، المحبة شرك.. المحبة فخ.. غمامة تخفي ما هو مرئي».

ابنها ما زال لديها، الانفصال لن يكون خسارة كبيرة له، لم يخسر أحد سواي، وحيدة لا شيء لديّ سوى الغضب.

سلوى

هوجة من التغيرات أشعر بها.. تغيرات كبيرة، ليس تغيرا في موضات اللبس أو الشعر أو السماع، لكنها تغيرات في القيم في التوجهات، في مفاهيم الأمومة، الزواج، الحب والصداقة، الدين، الله.

طبيعي أن يتغير الزمن لكن ليس بمثل هذه السرعة، أعترف، هناك أمور جديدة لم تكن موجودة في زمن مراهقتي، لم يكن هناك: يسقط النظام، الشعب يريد إسقاط النظام، هذا التعبير لم أحبه، ولم أؤمن به، لا بد وأن يوجد نظام، كيف يسير العالم دون نظام؟ أريد إسقاط الفساد، لا بد أن يوجد نظام سواء صالحا أو فاسدا، ليس كل نظام يجب إسقاطه، هناك أمور لا تنفع فيها الديمقراطية مثل: تربية النشء. أثبتت لي علاقتي بأروى أن كل الأساليب الحديثة في التربية فاشلة، طوال الوقت أشجع خطواتها، لكنها سريعة التقلب وسريعة الدخول في نشاط والخروج منه، أتنقل معها من الباليه إلى التنس إلى الرسم إلى الاسكواش إلى الرماية، السباحة، لم أكن أريدها بطلة رياضية أردتها فقط أن تمارس أشياء تحبها.. أشعر بالفخر حين أراها تمارس ما أخفقت في تعلمه كالسباحة.. تمارس الغطس، لكن في لحظة ما يحل الكسل والتسويف، عدم تحمل المسئولية والالتزام بمواعيد الامتحانات والدراسة وما يجب عليها القيام به.

تقول لجدها: أتمنى أن تكون ذاكرة ماما قوية، حتى لا تكرر نصائحها لي في الصباح والمساء، فأنا قد سئمت من المواعظ المكررة وغير المفيدة.

سلوى

هوجة من التغيرات أشعر بها.. تغيرات كبيرة، ليس تغيرا في موضات اللبس أو الشعر أو السماع، لكنها تغيرات في القيم في التوجهات، في مفاهيم الأمومة، الزواج، الحب والصداقة، الدين، الله.

طبيعي أن يتغير الزمن لكن ليس بمثل هذه السرعة، أعترف، هناك أمور جديدة لم تكن موجودة في زمن مراهقتي، لم يكن هناك: يسقط النظام، الشعب يريد إسقاط النظام، هذا التعبير لم أحبه، ولم أؤمن به، لا بد وأن يوجد نظام، كيف يسير العالم دون نظام؟ أريد إسقاط الفساد، لا بد أن يوجد نظام سواء صالحا أو فاسدا، ليس كل نظام يجب إسقاطه، هناك أمور لا تنفع فيها الديمقراطية مثل: تربية النشء. أثبتت لي علاقتي بأروى أن كل الأساليب الحديثة في التربية فاشلة، طوال الوقت أشجع خطواتها، لكنها سريعة التقلب وسريعة الدخول في نشاط والخروج منه، أتنقل معها من الباليه إلى التنس إلى الرسم إلى الاسكواش إلى الرماية، السباحة، لم أكن أريدها بطلة رياضية أردتها فقط أن تمارس أشياء تحبها.. أشعر بالفخر حين أراها تمارس ما أخفقت في تعلمه كالسباحة.. تمارس الغطس، لكن في لحظة ما يحل الكسل والتسويف، عدم تحمل المسئولية والالتزام بمواعيد الامتحانات والدراسة وما يجب عليها القيام به.

تقول لجدها: أتمنى أن تكون ذاكرة ماما قوية، حتى لا تكرر نصائحها لي في الصباح والمساء، فأنا قد سئمت من المواعظ المكررة وغير المفيدة.

أنا لا أعظ ولا أنصح، أطلب طلبات تتجاهل أو تنسى تنفيذها، أطفئي النور، أغلقي الباب، اغسلي أسنانك بالفرشاة، لا تسيري حافية القدمين، نظمي سريرك، هذه تفاصيل يومية، من المفروض أن تفعلها دون أضطر لتكرار طلب فعلها مرة واثنتين.. وهي تتجاهل هذه القواعد، حاضر، حاضر.. ولا شيء يحضر، غير الغضب والتذمر الدائم، ما المطلوب عندما أجدها سهرانة طوال ليلة امتحان الثانوية تتابع حفل فرقة غنائية في كوريا وهي لم تنته من مراجعة المادة «الكيمياء»؟!

حصرت نفسها في مشاهدة الأنمي أولًا ثم مشاهدة المسلسلات الكورية، وآخرها الأفلام التايلندية، سمعتها تقول لصاحبتها: «شاهدت حلقتين بالأمس بعيدا عن ماما حتى لا ترى بكائي من أجل الأحداث».

البطة السوداء تحب فراخها السوداء وتطرد من عشها الفرخ الأبيض، لا يهمها إن كان الفرخ نسرا أو بجعة، تحب البطة السوداء فراخها الذين يشبهونها، يمتد ظلها على الأرض، تحب البطة فراخها حبها للحياة، للأمل في تجدد الحياة للقدرة على إصلاح الأخطاء البيئية والجينية.

أردتها صاحبة، رفيقة، واعتقدت أنني إذا بذلت جهدا كافيا، فيمكن أن أكسبها لصفي.

كل شيء أطلبه تفعل عكسه، أحاول التقرب منها، لا أريد أن أركز على النتائج.. ماذا تعلمت اليوم؟ هل استمتعت باليوم في المدرسة؟ أجتهد لأكون على صواب، أريد أن تعيش حياتها بطريقة صحيحة وصحية، في كل الأوقات أسمع مخاوفي، ضعفي، إرهاقا ممتدا، وليس أمامي غير الصمت لعله يحل الأمور.

الفرق بين أروى وأبيها أنها تلعب دوما دور الضحية التي ستعاني: «إذا لم تفعل ما أريده منك فسوف أعاني، وأنت من يتحمل مسئولية ذلك» في حين كان أبوها يتصرف بمنطق: «أنا وليكن من بعدي الطوفان». وبصرف النظر عما تشعر به أو تحتاجه يتجاهله، كل شيء عدا ما يريد.

أدركت بعد سنوات أنني ما زلت أسيرة لعلاقتي بسامر وأنني لم أتحرر منها، في عائلته يتحكمون في كل ما يحيط بهم، كل شخص يتحكم في الآخرين، عن طريق التأثير المتبادل الذي يمتلكه كل واحد على الآخر.. ثم اللجوء إلى إجبار الآخرين بالتعاطف، والابتزاز، الامتنان، الشعور بالذنب، والعرفان أو العنف المجرد.

كثيرا ما كنت أتجاهل ابتزازه.. كأنها نوبة غضب تمر بطفل وستنتهي كما بدأت دون سبب، لكن ذلك لم يكن يعجبه كان دائما يريد معركة، عندما أدركت كم التلاعب الذي تعرضت له والضغوط قررت الرحيل، فأصبحت أنا الآن هادمة الأسرة، المجنونة، يكيل لي الاتهامات.. والنتيجة النهائية هي شعوري بالنقص والذنب.

كان خبيرا في الدعاية السوداء، تلميذًا ألمانيًّا، ولصاق للتهم والنقائص، وربط حوادث متفرقة كي تشكل الصورة التي يريد إقناعك بها، الغريب أنه كان فاشلا في الدعاية البيضاء لشركته لأن العملاء كانوا يكتشفون زيف الدعاية التي يقدمها وعدم تطابق ما يروج له مع ما يقدمه حقيقة، وإذا كشفه أحدهم، وطارت صفقة، يوجه اللوم للعاملين معه، فهو ضحية إهمالهم وعدم مراعاتهم للعمل، يصرخ: «يا ربي لماذا وحدي الذي تفشل صفقاته؟ لماذا يكون الآخرون أكثر حظا وسعادة ولديهم زوجات جميلات متفهمات؟».

يهددني دوما بوظيفة أبي: «طبعا أنتم تقدرون على أي شيء، لا يوجد ضابط يخاف ربنا.. من أين لأبيك كل هذه الأموال؟ اطلبي منه سيارة. اطلبي منه ملابس جديدة، كم أعطاك في العيد؟». احتياجاتي محدودة فكنت أعطيه ما يمنحني إياه أبي.

وفي كل مرة نأتي لزيارة أهلي يرفض أن نرتدي ملابس جديدة:
يا شيخة تتبهدل في السفر.

كثيرا ما كنت أتجاهل ابتزازه.. كأنها نوبة غضب تمر بطفل وستنتهي كما بدأت دون سبب، لكن ذلك لم يكن يعجبه كان دائما يريد معركة، عندما أدركت كم التلاعب الذي تعرضت له والضغوط قررت الرحيل، فأصبحت أنا الآن هادمة الأسرة، المجنونة، يكيل لي الاتهامات.. والنتيجة النهائية هي شعوري بالنقص والذنب.

كان خبيرا في الدعاية السوداء، تلميذًا ألمانيًا، ولصاق للتهم والنقائص، وربط حوادث متفرقة كي تشكل الصورة التي يريد إقناعك بها، الغريب أنه كان فاشلا في الدعاية البيضاء لشركته لأن العملاء كانوا يكتشفون زيف الدعاية التي يقدمها وعدم تطابق ما يروج له مع ما يقدمه حقيقة، وإذا كشفه أحدهم، وطارت صفقة، يوجه اللوم للعاملين معه، فهو ضحية إهمالهم وعدم مراعاتهم للعمل، يصرخ: «يا ربي لماذا وحدي الذي تفشل صفقاته؟ لماذا يكون الآخرون أكثر حظا وسعادة ولديهم زوجات جميلات متفهمات؟».

يهددني دوما بوظيفة أبي: «طبعا أنتم تقدرون على أي شيء، لا يوجد ضابط يخاف ربنا.. من أين لأبيك كل هذه الأموال؟ اطلبي منه سيارة. اطلبي منه ملابس جديدة، كم أعطاك في العيد؟». احتياجاتي محدودة فكنت أعطيه ما يمنحني إياه أبي.

وفي كل مرة نأتي لزيارة أهلي يرفض أن نرتدي ملابس جديدة:
يا شيخة تتبهدل في السفر.

إذا قابل إحدى قريباتي:

- عرفي سلوى المحل الذي اشتريت منه هذا الجاكيت. يا سلام، ذوقك حلو، اشتري مثله لسلوى، اعملي لها مفاجأة.

تأخذني عمتي على جنب: خذي بالك من نفسك يا حبيبتي هذا الفستان ليس قيمتك، يلا غيري، تنقذني ابنة عمتي: دولابي تحت أمرك، كنا متقاربتين في الطول ونرتدي المقاس نفسه.

أرجع من الصيف ومعي على الأقل طقمان أو ثلاثة من ملابس عمتي أو ابنتها، وهو لا يتورع عن الاستيلاء على بالطو لأبي أو حذاء، المهم ألا نعود بحقيبة خالية.

كل هدية، كل عيدية.. مناسبة للخناقة: «أنت متأكدة إن والدك قدم استقالته.. أم أنه أحيل للتقاعد؟». يشككني في كل ما أعرف، ويحيلني إلى دوامة من التساؤلات عن أهلي، يلهيني عن ملاحظة وضعي الحالي.. دائما يفكر أو يتذكر الماضي والمستقبل، لكنه لا يعيش أبدا الواقع، اللحظة الراهنة.

بالصدفة وجدت شهادات ودائع باسمه تتجاوز مليوني جنيه؛ عشرة آلاف، عشرون ألفا...

لأول مرة صرخت في وجهه: أنت طوال الوقت تدعي أنك مفلس وأن شركتك تخسر، ما هذه الشهادات؟

قلب الطرابيزة: كيف تفتشين في أوراقي؟ وهل هذا بيتي أم مركز شرطة؟!

يتحور الموضوع وبدلا أن يجيب على أسئلتي أو يعترف بخطئه أو يوضح لي أسبابه، يرمي الشعلة في منطقة أخرى بعيدا عنه، وأظل أنا أحاول إطفاء الحرائق المشتعلة في ثوبي.

كل شيء يدفعني للهروب منه.. للعودة لبيت أبي.. لكني كنت أخشى العودة لهذا البيت.

أنا أخاف من هذا البيت.. منذ رأيت أمي تطير وأنا أشعر بالرهبة داخل هذه الجدران.. فقد رأيت أمي تطير.. تفرد ذراعيها.. ترتفع عن الأرض، يتحور انتصاب عمودها الفقري، يتخذ وضعا أفقيا، ينساب في الهواء، تتحول أمي لسمكة، لطائر، تتحرك نحو الشرفة المفتوحة، تعبر الشارع، أحاول غلق فمي المندهش، كي تخرج صرخة تنبيه، تحذير، فكاي متصلبان، أحرك جفنيّ، أريد أن أستيقظ.. أنا مقيدة وبلل دافئ يزحف على فخذي.. غابت أمي بين أغصان أشجار القصر المواجه لنا..

طارت أمي.. حاولت أن ألحق بها اصطدم رأسي بتمثال البحار الأسود. يقولون إنني غبت عن الوعي أسبوعين، صدمة نفسية.. نقلوني للمستشفى.

أمي طارت.. لا أحد يصدقني.. أحزن حزنا عميقا، يراكم حزني أن أمي طارت بإرادتها، ناديت عليها، لم تلتفت لي، حاولت أن أمسك طرف ثوبها انسلت مني، حاولت الطيران كي ألحق بها، لكن العالم دار بي، سقط، وابتلعتني دوامة من البرودة والخوف.

مل أبي من ترديدي لهذه العبارة، أخذني لقبر، قال: أمك هنا، نجاة هنا.

نظرت للقبر وشعرت براحة، ذلك القبر بفتحته الضيقة، أكد لي أن أمي لا يمكن أن تسكن فيه. أمي تسكن البراح، لا تحب الأماكن المغلقة أو الضيقة، خشيت إغضاب أبي، فاحتفظت بروايتي لنفسي، وصرت كل ليلة.. أعتذر لأمي عن أخطائي وأعدها ألا أكررها، وانتظرت عودتها كي تكون فخورة بي، ولن يلومها أبي على شقاوتي بعد الآن.

يقول أبي إن أمي «لم تنتم لهنا»، لا أفهم المعنى، فهو دائما مشغول، ومعظم الأيام متغيب عن البيت، وهي قليلة الكلام، تقبلني، تحتضنني، وتترك تفاصيلي اليومية للدادة، تعمل في المشغولات اليدوية، الكانفاه، تحكي الرسوم التي تطرزها، حكايات كثيرة، كل الحكايات عن الجنيات الطيبات..

على فمي المندهش، حي يحرج صرخه تنبيه، تحذير، فحاي منصلبان، احرك جفني، اريد ان استيقظ.. انا مقيده وبلل دافئ يرحف على فخذي.. عانت أمي بين أغصان أشجار القصر المواجه لنا..

طارت أمي.. حاولت أن ألحق بها اصطدم رأسي بتمثال البحار الأسود. يقولون إنني غبت عن الوعي أسبوعين، صدمة نفسية.. نقلوني للمستشفى.

أمي طارت.. لا أحد يصدقني.. أحزن حزنا عميقا، يراكم حزني أن أمي طارت بإرادتها، ناديت عليها، لم تلتفت لي، حاولت أن أمسك طرف ثوبها انسلت مني، حاولت الطيران كي ألحق بها، لكن العالم دار بي، سقط، وابتلعتني دوامة من البرودة والخوف.

مل أبي من ترديدي لهذه العبارة، أخذني لقبر، قال: أمك هنا، نجاة هنا.

نظرت للقبر وشعرت براحة، ذلك القبر بفتحته الضيقة، أكد لي أن أمي لا يمكن أن تسكن فيه. أمي تسكن البراح، لا تحب الأماكن المغلقة أو الضيقة، خشيت إغضاب أبي، فاحتفظت بروايتي لنفسي، وصرت كل ليلة.. أعتذر لأمي عن أخطائي وأعدها ألا أكررها، وانتظرت عودتها كي تكون فخورة بي، ولن يلومها أبي على شقاوتي بعد الآن.

يقول أبي إن أمي «لم تنتم لهنا»، لا أفهم المعنى، فهو دائما مشغول، ومعظم الأيام متغيب عن البيت، وهي قليلة الكلام، تقبلني، تحتضنني، وتترك تفاصيلي اليومية للدادة، تعمل في المشغولات اليدوية، الكانفاه، تحكي الرسوم التي تطرزها، حكايات كثيرة، كل الحكايات عن الجنيات الطيبات..

طارت أمي..

مرت سنوات تحول الحزن إلى غضب وتحول الغضب إلى
لا مبالاة إلى فجوات، من الشك، عدم الأمان.. لو أنني رأيت جسدها.. لا.. لا.. في أحلامي تأتيني فاردة ذراعيها، تصطدم بزجاج النافذة وتسقط، تتحول في الصباح إلى يمامة، جافة، ميتة من الارتطام الصادم في زجاجنا العاكس.

وكلما كبرت بقي هذا المشهد وتنوعت تفاصيله، وزادت وتراكمت طبقات فوق طبقات من منسوجات أمي، تتحول لعشرات الطيور البيضاء.. الطيور تشبه الملائكة، أمي من الملائكة.

عندما مرضت مدام يولند ذهبت لزيارتها في شقتها، قابلت والدتها، لم ألاحظ أي شبه، أبي من تحدث عن هذا الشبه.. بحثت عن صورة أمي في خيالي في ذاكرتي، لا أصدق أبي.. ولا أحد يصدقني..

عندما أبحث عن صورة أمي في خيالي وهذا قليلا ما يحدث.. أرى حمامة، طاووسا، ملائكة.. فراشة، دائما هناك ريش وجناحان يخفيان وجه أمي، أفر من كهف الذكريات سريعا قبل أن أصرخ ويبتل ما بين ساقيّ كما حدث ذات يوم عندما طارت أمي.

أحيانا أشعر بشيء ينقض عليّ، ينشب مخالبه في كتفي، يرفعني نحو متر، لا أتحمل الدوار، أحرر نفسي وأسقط.. أسقط وقد تحطمت عظامي، دائما أخذل أمي، رغم أنني أعرف أنها لا تحب أن أكون يوما بهلوانة أو لاعبة في سيرك.. أدرك بمرور الوقت أن أمي لا تمتلك مخالب قوية بما يكفى كي ترفع أوزانا يزداد ثقلها يوما بعد يوم.

لا أحد يصدقني..

ربما حصل هذا في الحلم، أكاد أصدق أنه حلم، لولا الندبة الصغيرة المحفورة بتعرجات عشوائية في أعلى جبهتي اليسرى، أتحسسها أمام المرآة عندما أربط شعري للخلف، لا سر لوجودها سوى ما حدث، يقولون أنني فعلا وقعت، لم أتحمل سقوط أمي ميتة أمامي، وظللت أصرخ حتى أغمي عليّ.

ربما في زمن آخر، ربما في كون آخر كانت أمي ستعيش، وأنا لم تكن ستكون لديّ فوبيا الرحيل، فأتشبث بالإصرار على البقاء والمحافظة على ما بيدي، حتى وإن كان سرابا.. لا أتحمل أن يستيقظ ابني فلا يجدني بجواره، لكن حماتي كانت تأخذه مني، وكنت أبقى كي لا تتحقق مخاوفه بغيابي، أزيح توقعاته الحزينة الوجلة بحضني وتربيتي على شعره بحكايات بعيدة عن الخيال والأساطير، بحكايات عن رجال ونساء حقيقيين لا يطيرون عندما يأتي المساء.

هذا الفقد ظل هوة سحيقة شكلت روحي وجعلت لديّ احتياجا دائما للحب.. أعترف، أحببت كل الرجال الذين قابلتهم، انجذبت إليهم كما تنجذب الفراشات للضوء، كما تنجذب الحياة للموت، في الرجال سحر لا أستطيع الفكاك منه، فجوة سوداء تمتصني، فأذوب وأتلاشى ولا يبقى من كينونتي شيء، تتبعثر خلاياي، أفقد السيطرة عليها، أصبح كليا في منطقة الأفعال اللا إرادية، أصاب بحالة بله أو صرع حيث تفقد الأجزاء الأمامية من مخي السيطرة على جسدي وروحي وأتوه، منومة أنا مغناطيسيا في حضرة الرجال، أمنحهم هالات من نور، وأجنحة ملائكة، أقدم لهم قرابين من روحي، من دمي، لا أمارس إغواء أو ابتذالا بل توهانا، ليس ذلك لرجل معين أو محدد ولكن لكل الرجال. عفوا، ليس كل الرجال في اللحظة ذاتها ولكن كل الرجال حتى أقع في شرك أحدهم وأتوه منه في دوامة اندهاشي.

أنجذب للرجل الذي يبتسم لي ويطلب يدي، ساعتها وقبل المتاهة أغلق التفرعات المتنوعة للسد الهادر لبوابات السد ولا يصبح هناك غير مجرى

ربما في زمن آخر، ربما في كون آخر كانت أمي ستعيش، وأنا لم تكن ستكون لديّ فوبيا الرحيل، فأتشبث بالإصرار على البقاء والمحافظة على ما بيدي، حتى وإن كان سرابا.. لا أتحمل أن يستيقظ ابني فلا يجدني بجواره، لكن حماتي كانت تأخذه مني، وكنت أبقى كي لا تتحقق مخاوفه بغيابي، أزيح توقعاته الحزينة الوجلة بحضني وتربيتي على شعره بحكايات بعيدة عن الخيال والأساطير، بحكايات عن رجال ونساء حقيقيين لا يطيرون عندما يأتي المساء.

هذا الفقد ظل هوة سحيقة شكلت روحي وجعلت لديّ احتياجا دائما للحب.. أعترف، أحببت كل الرجال الذين قابلتهم، انجذبت إليهم كما تنجذب الفراشات للضوء، كما تنجذب الحياة للموت، في الرجال سحر لا أستطيع الفكاك منه، فجوة سوداء تمتصني، فأذوب وأتلاشى ولا يبقى من كينونتي شيء، تتبعثر خلاياي، أفقد السيطرة عليها، أصبح كليا في منطقة الأفعال اللا إرادية، أصاب بحالة بله أو صرع حيث تفقد الأجزاء الأمامية من مخي السيطرة على جسدي وروحي وأتوه، منومة أنا مغناطيسيا في حضرة الرجال، أمنحهم هالات من نور، وأجنحة ملائكة، أقدم لهم قرابين من روحي، من دمي، لا أمارس إغواء أو ابتذالا بل توهانا، ليس ذلك لرجل معين أو محدد ولكن لكل الرجال. عفوا، ليس كل الرجال في اللحظة ذاتها ولكن كل الرجال حتى أقع في شرك أحدهم وأتوه منه في دوامة اندهاشي.

أنجذب للرجل الذي يبتسم لي ويطلب يدي، ساعتها وقبل المتاهة أغلق التفرعات المتنوعة للسد الهادر لبوابات السد ولا يصبح هناك غير مجرى واحد متدفق قوي عنيف يصب في اتجاه هذا الرجل، جاذبية اللحم، الضلع الناقص المخلوع من القفص الصدري، بمحض إرادتي أنساق وأنساق، أنسحق، وأنسحق وأنا أعي انسحاقي.. كل الذين فسخت خطوبتي معهم أقاموا خارج البلاد. تنتهي الخطوبة دون سبب واضح لي، كأنهم يمرون بكافيه يشربون فيه الشاي، الشاي فحسب دون انتظار للغداء، أحيانا أقول: لو أن أحدا منهم أحبني.

أول خُطابي كان حسام الأعسر، لديه إقامة أمريكية، قابلته بالصدفة وأنا في طريقي للمتحف، تطوعت أن أصحبه في الجولة هو وصديقاته.. رغم أنهم مصريون طلبوا أن يكون الشرح باللغة الإنجليزية، عملي بالمتحف عادة يكون في الخلفية وفي معامل الترميم، ولكن تطوعت رغبة في تحسين صورة المتحف.. تبادلنا التليفونات، وأثنى على معلوماتي، واحدة من صديقاته، بدت أنها المقربة إليه، طلبت رقم تليفوني.. تعددت لقاءاتنا.

ما زالت والدته وإخوته في أمريكا لكنه عزم على الاستقرار.. يقول بخفة دم: حسام الأعسر ممكن تسميني حسام «ليفت»، إذا لم يعجبك أغيره يبقى حسام رايت، كان كريما جدا، ساهم بشكل كبير في تعريفي بعالم المولات والكافيهات الجديدة في مدينة نصر وفي مصر الجديدة.. يعرف قصة كل مول، وينوي افتتاح مشروع تجاري.. لم يستقر عليه وكل مشروع يفكر فيه أبحث له عن تفاصيله وجدواه. يتخذ خطوات ثم يتوقف عند المكان.. سيؤجره، الأسعار مرتفعة لا يستطيع أن يشتري محل تمليك، لم أكن أعرف هل هو غني أم فقير ماذا لديه؟ كانت لديه أحدث النكت.. «سمعتي دي؟».

عندما تقدم لخطبتي، لم يطلب أبي شبكة معينة، اشترى لي خاتما وأسورة، طلبهما عندما فسخ الخطوبة، قالت عمتي إن حقي أن أبقيهما.

لكنه أرسل لي رسالة يطالبني فيها برد الشبكة لأن ما بيننا كان خطبة، ولم يكن عقد قرآن، وهدايا الخاطب ترد له وفقا للشرع، لم يكن يعرف شيئًا عن الدين الإسلامي وعندما عرف، سافر لأمريكا.

دكتور وليد جابر قابلته وهو يستعد للسفر لبريطانيا لاستكمال شهادة الدكتوراه.. أكثر شخص شعرت أن حياتي ستكون منسجمة معه.. نمط شخصيته كان مريحا بالنسبة لي؛ عاقل رصين، مثقف، تصرفت على سجيتي.. تخيلت حياتي معه، كيف سيكون بيتي، لكن لم أسافر أبدا للندن، وهو تزوج وأنجب هناك.

جاءتني سفرية مهمة إلى أبو ظبي لزيارة متحف لوفر أبو ظبي، بعد وضع حجر أساسه وبداية إنشائه، أنهت الوزارة كل إجراءات السفر.. وحددوا لنا بدل السفر بالدولار، مائة دولار في اليوم.

سأل سامر:

- هل ستحتاجين كل هذه النقود؟ ما فائدة السفر إذا لم ندخر من البدل؟

خشيت إن أغضبته أن يتدخل بشكل ما ويفسد عليّ السفر، وأنا كنت أحتاج إلى هذه الرحلة للطيران بعيدا، كنت أحتاج أن أتنفس أن أختزن كمية من الأكسجين تساعدني في الأيام الصعبة.

ترك معي مائة دولار فقط، قبل السفر بيوم، جاء المحاسب إلى مكتبي وأعطاني 200 دولار. قال: أنا عارف إنه سيسألك عن قيمة البدل، وأنت لا تكذبين، وممكن يكون أخد منك البدل، هذا ملحق للبدل.. وبالتأكيد ستحتاجين النقود في الغربة. أعطاني الظرف وعاد لمكتبه..

انهمرت دموعي إلى هذا الحد وضعي مكشوف للجميع، إلى هذا الحد أنا مستلبة. في تلك اللحظة قررت أنني لن أستمر في هذه الحياة الجهنمية.

لنا بدل السفر بالدولار، مائه دولار في اليوم.

سأل سامر:

- هل ستحتاجين كل هذه النقود؟ ما فائدة السفر إذا لم ندخر من البدل؟

خشيت إن أغضبته أن يتدخل بشكل ما ويفسد عليّ السفر، وأنا كنت أحتاج إلى هذه الرحلة للطيران بعيدا، كنت أحتاج أن أتنفس أن أختزن كمية من الأكسجين تساعدني في الأيام الصعبة.

ترك معي مائة دولار فقط، قبل السفر بيوم، جاء المحاسب إلى مكتبي وأعطاني 200 دولار. قال: أنا عارف إنه سيسألك عن قيمة البدل، وأنت لا تكذبين، وممكن يكون أخد منك البدل، هذا ملحق للبدل.. وبالتأكيد ستحتاجين النقود في الغربة. أعطاني الظرف وعاد لمكتبه..

انهمرت دموعي إلى هذا الحد وضعي مكشوف للجميع، إلى هذا الحد أنا مستلبة. في تلك اللحظة قررت أنني لن أستمر في هذه الحياة الجهنمية.

يسري صالح

في وسط الانشغال بمتابعة قضية تعويضات الشهداء، جاءت الرسالة التي انتظرتها سنين «أد الأمانة لمن ائتمنك» وتأكد تفسيري من مواقع الأخبار: نيابة أمن الدولة العليا تخاطب جهاز الأمن الوطني، لتقديم تحرياته والمعلومات المتوافرة له، حول علاقة جماعة الإخوان المسلمين...

جرت عيناي حتى وصلت إلى ما كنت أنتظره.. قضية الهروب من سجن وادي النطرون.

جاءت ساعة رد الاعتبار للجهاز الذي أرادوا تمزيقه وبعثرة أشلائه، لكنه سيكون عصا موسى التي تبتلعهم.

يظنون أن الأوراق تم فرمها، وأن الضباط حرقوا المستندات خوفا مما يدينهم أو يحيلهم لمحاكمات، لا شيء في الأوراق يديننا، كل ما في التحقيقات يكشف ضلالهم وغيهم وأنهم عملاء وخونة ضد الوطن، المستندات تم تجميعها، أوراقنا لن يحميها غيرنا.. نحن مسئولون عن هذا الجهاز وكل ما فيه، وسيأتي يوم ويرد اعتبارنا وشرفنا وأنهم يستحقون ما حصل لهم وأكثر.

حضرت الأوراق، في كراتين وسط علب حلويات نادي الشرطة بالزمالك، وسط علب الساليزون والتورت والجاتوهات والشيكولاتة في زحمة الحفل الكبير لنجاح أروى وحصولها على شهادة «الباك».

يسري صالح

في وسط الانشغال بمتابعة قضية تعويضات الشهداء، جاءت الرسالة التي انتظرتها سنين «أد الأمانة لمن ائتمنك» وتأكد تفسيري من مواقع الأخبار: نيابة أمن الدولة العليا تخاطب جهاز الأمن الوطني، لتقديم تحرياته والمعلومات المتوافرة له، حول علاقة جماعة الإخوان المسلمين...

جرت عيناي حتى وصلت إلى ما كنت أنتظره.. قضية الهروب من سجن وادي النطرون.

جاءت ساعة رد الاعتبار للجهاز الذي أرادوا تمزيقه وبعثرة أشلائه، لكنه سيكون عصا موسى التي تبتلعهم.

يظنون أن الأوراق تم فرمها، وأن الضباط حرقوا المستندات خوفا مما يدينهم أو يحيلهم لمحاكمات، لا شيء في الأوراق يدينا، كل ما في التحقيقات يكشف ضلالهم وغيهم وأنهم عملاء وخونة ضد الوطن، المستندات تم تجميعها، أوراقنا لن يحميها غيرنا.. نحن مسئولون عن هذا الجهاز وكل ما فيه، وسيأتي يوم ويرد اعتبارنا وشرفنا وأنهم يستحقون ما حصل لهم وأكثر.

حضرت الأوراق، في كراتين وسط علب حلويات نادي الشرطة بالزمالك، وسط علب الساليزون والتورت والجاتوهات والشيكولاتة في زحمة الحفل الكبير لنجاح أروى وحصولها على شهادة «الباك».

لسنوات لم أستطع مغادرة الفيلا لسفر طويل، كان عليّ حراسة السر وحفظ الأمانة، لم يكن سر كلفني بحفظه مدير الجهاز السابق، هو ليس سره وليست أوراقه الشخصية لكنها أوراق البلد، جزء من الذاكرة التي تتشوش من كل اتجاه، في سرية تامة تم نقل أرشيف جهاز أمن الدولة بمجرد إعلان تنحي الرئيس مبارك، ليلا قبل مهاجمة مقرات مدينة نصر وأكتوبر، توزع الأرشيف على عدة أماكن، لا يعرف خريطتها غير المدير الأسبق للجهاز، كل التعليمات والأوامر شفهية، وتقلبت الأمور ويبدو أن الكل نسي هذه الصناديق، لا أحد يتذكرها، دعها مدفونة، فأسرارهم ومؤامراتهم ستنكشف يوما بعد يوم، النبتة العفنة التي تم غرسها بيد «حسن البنا»، تتحول لجثة تتحلل وتتسرب في باطن الأرض وتعود في أوراق الأشجار، في الغبار الذي ينقض علينا ويظل يتسرب وينتشر.. أرقام وحكايات، صرخات ومؤامرات، تجبر وخديعة، من كل شيء، ومن كل الفضلات والبقايا يتناثر الغبار حاملا رائحة وطعم كل ما حدث.

منذ استقرت الصناديق الخشبية في غرفة مغلقة في البدروم، لم أحاول أن أراها.. فقط أخذت على عاتقي أن أحمي كل هذه التحقيقات، كل هذه الأسئلة، كل هذه الحقائق، وقد صارت شيئا يتناساه الجميع رغما عنهم، التاريخ يتآكل، ونحن
لا نبقي على شيء.

ورغم استدعائي أكثر من مرة للإدارة الجديدة فلم ألمح لأي شيء، تابعت الاجتماعات والمنتديات والموائد المستديرة من الحقوقيين والإعلاميين وأعضاء الحركات السياسية لتقديم المقترحات لتطوير قطاع الأمن الوطني الجديد. البعض منها رسمي معلن أمام الإعلام، والأكثر أهمية وفاعلية هي الاجتماعات غير الرسمية بين القيادات السابقة من الضباط الذين يشتهرون بعدم استخدامهم للعنف والذين يحملون مؤهلات عليا في القانون إلى جانب الدراسات الشرطية. تتم الاجتماعات بعيدا عن أعين الإخوان، ودون ترتيب معهم، رغم محاولاتهم المستميتة للتلصص والتدخل، حرصت الإدارة الجديدة للجهاز على تسكينهم فأخذت تستقبلهم رسميا وتتلقى اقتراحاتهم، وتظهر لهم الود، لكن العمل المؤسسي الحقيقي ظل يتم بعيدا عن العيون، في جلسات خاصة في فنادق التجمع، أو شاليهات السخنة.. استقر المجتمعون على أن يتم تغيير اسم «جهاز أمن الدولة» إلى «قطاع الأمن الوطني»، مع التأكيد أن القطاع الجديد ليس إصلاحا لجهاز أمن الدولة وإنما هو «أحدث قطاعات وزارة الداخلية» وهو قطاع جديد يبدأ عمله بفلسفة جديدة وضباط وعاملين أغلبهم جدد، أما ضباط أمن الدولة الذين سيستمر عملهم في القطاع الجديد، فهم من لم تثبت في حقهم مخالفات في الماضي وسيتلقون تدريبا متخصصا على تفريغ ضغوط ما بعد الأزمة.

أوكلوا لي التفاوض مع عدد من الجهات المانحة لتمويل دورات التدريب والتأهيل خاصة في مجال حقوق الإنسان، وبالفعل تواصلت مع برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، مع مكتب الأمم المتحدة للمخدرات والجريمة، مع الاتحاد الأوروبي لتمويل دورات تدريبية داخل القطاع وإرسال ضباط القطاع لدول أوروبية للتدرب هناك.. هدفنا تطوير الجهاز، لن نترك البلد في يد هؤلاء الخونة وأحسن ما فيهم بالنسبة لي ذاكرتهم الضعيفة وأنهم لا يتعلمون وربما لا يقرأون.

يظنون أنني حزين لأنه لم يتم ترقيتي رئيسا للجهاز، وأن الوزير أوكل لي تنظيم قطاع جديد، وهو قطاع الضباط كي يتم التخلص مني وللخروج على المعاش مساعدا للوزير، لكنني كنت محظوظا بحصولي على درجتي الماجستير والدكتوراه في القانون، وبالعمل بالمحاماة. في اللحظة المناسبة كنت الوجه الذي يحتاجه البلد في مواجهة هؤلاء التتار.

أعدت قراءة الرسالة «أد الأمانة لمن ائتمنك» بدت لغة الرسالة غريبة، في اليوم التالي وصلت رسالة ثانية: «هل يمكن تحديد موعد للمقابلة في مكتبك غدا صباحا؟».

اتصلت بالمدير الأسبق للجهاز، خرج من الحبس بعد إثبات براءته، استعدنا ذكريات مشتركة، كررت في كلامي عبارة الأمانة، لكنه لم يذكر العبارة

أوكلوا لي التفاوض مع عدد من الجهات المانحة لتمويل دورات التدريب والتأهيل خاصة في مجال حقوق الإنسان، وبالفعل تواصلت مع برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، مع مكتب الأمم المتحدة للمخدرات والجريمة، مع الاتحاد الأوروبي لتمويل دورات تدريبية داخل القطاع وإرسال ضباط القطاع لدول أوروبية للتدرب هناك.. هدفنا تطوير الجهاز، لن نترك البلد في يد هؤلاء الخونة وأحسن ما فيهم بالنسبة لي ذاكرتهم الضعيفة وأنهم لا يتعلمون وربما لا يقرأون.

يظنون أنني حزين لأنه لم يتم ترقيتي رئيسا للجهاز، وأن الوزير أوكل لي تنظيم قطاع جديد، وهو قطاع الضباط كي يتم التخلص مني وللخروج على المعاش مساعدا للوزير، لكنني كنت محظوظا بحصولي على درجتي الماجستير والدكتوراه في القانون، وبالعمل بالمحاماة. في اللحظة المناسبة كنت الوجه الذي يحتاجه البلد في مواجهة هؤلاء التتار.

أعدت قراءة الرسالة «أد الأمانة لمن ائتمنك» بدت لغة الرسالة غريبة، في اليوم التالي وصلت رسالة ثانية: «هل يمكن تحديد موعد للمقابلة في مكتبك غدا صباحا؟».

اتصلت بالمدير الأسبق للجهاز، خرج من الحبس بعد إثبات براءته، استعدنا ذكريات مشتركة، كررت في كلامي عبارة الأمانة، لكنه لم يذكر العبارة التي وردت بالرسالة، انتظرت تلميحا، إشارة. أخبرته سأكون في مكتبي. شيء ما أقلقني في هذه الرسالة، شيء جعلني أرغب في مشاركة أحد السر الذي احتفظت به سنوات وهو الآن أخف من احتمالات تفسيري لهذه الرسالة.

لم أستطع النوم، نزلت البدروم فتحت صندوقا، اطلعت على الأوراق على مهل.. ليس بها جديد لا أعرفه، لكنها الآن حقائق مسجلة ومكتوبة، ليست مجرد مرويات شفاهية يمكن إنكارها والتشكيك فيها، أوراق تثبت -باليوم والساعة- تحركاتهم ولقاءاتهم بقيادات «حماس» قبل وخلال ثورة 25 يناير 2011، وعدد الاجتماعات التي عقدها أعضاء الجماعة مع قيادات الحركة ونوعياتها، قائمة تضم 34 متهما من قيادات الجماعة الذين فروا من وادي النطرون.

هل للرسالة علاقة بإعادة فتح قضية الهاربين من وادي النطرون؟ هذه هي الأوراق الأهم، الباقي ملفات بأسماء الإخوان منذ عام 54، الذين تم إعدامهم والذين هربوا خارج مصر ومن سقطت عنهم الجنسية وقوائم الذين تمت مساعدتهم من عام 1966، حاولت الدولة عبر سنوات احتضان الإخوان واستيعابهم وفتح قنوات حوار معهم، لكنهم لم يعترفوا أبدا بأخطائهم، أعادت الجنسية لمن أسقطت عنهم، وأصدرت قانونا بقرار جمهوري لكي يأخذ كل المعتقلين رواتبهم، إلا من صدر قرار باتهامهم في قضية يحصلون فحسب على نصف رواتبهم حتى يحكم فيها، من حصلوا على البراءة يستردون نصف رواتبهم التي أخذت منهم، من ثبتت إدانتهم لا يحصلون على رواتب، وقامت بتشغيل المعتقلين بمقابل مادي، حتى يكون لديهم دخل يقدمونه لأسرهم، طلبت من وزارة الشئون الاجتماعية أن تدعم أسر المعتقلين من الإخوان، وبجهود شخصية من العديد من القيادات تم مساعدتهم للحصول على عمل كمصدر رزق، وهم يعرفون ذلك، لكنهم لا يعترفون أبدا سوى بما يملأ أدمغتهم.

هذه الأوراق لم تعد تخص الجهاز فحسب، هل توجد نسخة من هذه المستندات لدى زملاء آخرين؟ أو في أماكن أخرى. هل أخبر سلوى أو أروى بحقيقة هذه الأمانة؟ لا أريد أن أزعجهما، يكفي ما هما فيه من لخبطة وقلق.

بمجرد تسليمي، لهذه الأوراق سأكون قد أديت مهمتي، المكتب يسير بدون حاجة مني للإشراف، يمكنني أن أعتزل وأقيم في شاليه العين السخنة بعيدا عن البرامج التلفزيونية والتليفونات.

اتخذت طريقي للمكتب، وصلت لميدان طلعت حرب، طلبت من السائق أن يتوجه لجروبي عدلي أحتاج لفنجان قهوة، الساعة التاسعة صباحا، وما زالت المدينة تتحسس فراشها، لم تستيقظ كليا، استجاب بعض أعضائها لضوء الصباح بينما ما زالت البقية في خدر النوم، تلاعب المدينة الوقت، فيتوه في طرقاتها ولا ندري ما الذي تستجديه بطول السهر. حالة من الأرق المزمن والهروب من الوحدة ومواجهة النفس بافتعال مزيد من الصخب الفارغ.

لم أتوقع أن يكون أول ما يقابلني عاملة في ملابس سوداء تأخرت في ري الزرع في الحديقة. صدمني تجمع برك الماء على الأرضية الحجرية، فوضى تتجانس مع النافورة الراكدة، ومياهها العطنة والطحالب الخضراء المتجمعة حول قاعدة التمثال الخزفي.

جلست تحت أكبر شجرة، في مواجهتي تجسمت الواجهة الخلفية، بناء ستيني من الجص الأبيض، التصميم معتاد ومنتشر يشي بانضباط وتقشف روحي، والوحدات الزخرفية، مجرد تكرارات تشغل الفراغ ولا تملأه، يكفي أن تتأمل وحدة واحدة لتعرف شفرة بقية الوحدات، وحدة واحدة تكفي، ضعف وفقر في الخيال، حتى تنفيذها بمجرد قليل من الانتباه تدرك أنها مصبوبة في قوالب، فلا دفء أصابع مستها، ولا روح نفخت فيها، فظلت جمادا يؤكد الفراغ.. أين اختفت أشجار اللبلاب التي كانت تنتشر على الجدار وتتمدد معها الحياة فتغطي كل ما هو ميت أو زائد من مواسير الصرف، والطلاء المقشر، وتجاعيد الأيام.

جاءت النادلة، شابة قصيرة القامة، وجهها شاحب، مرهق، مجدب من تراكمات الشقاء والحاجة المعنوية والنفسية، شعر هائش، تجمعه للخلف وتربطه ذيل حصان فتتناثر أطرافه المقصفة التي تعاني من هشاشة تعكس نقصا في المغذيات الضرورية، ويصبح قصر القامة لا علامة أنوثة واكتناز

زالت المدينة تتحسس فراشها، لم تستيقظ كليا، استجاب بعض أعضائها لضوء الصباح بينما ما زالت البقية في خدر النوم، تلاعب المدينة الوقت، فيتوه في طرقاتها ولا ندري ما الذي تستجديه بطول السهر. حالة من الأرق المزمن والهروب من الوحدة ومواجهة النفس بافتعال مزيد من الصخب الفارغ.

لم أتوقع أن يكون أول ما يقابلني عاملة في ملابس سوداء تأخرت في ري الزرع في الحديقة. صدمني تجمع برك الماء على الأرضية الحجرية، فوضى تتجانس مع النافورة الراكدة، ومياهها العطنة والطحالب الخضراء المتجمعة حول قاعدة التمثال الخزفي.

جلست تحت أكبر شجرة، في مواجهتي تجسمت الواجهة الخلفية، بناء ستيني من الجص الأبيض، التصميم معتاد ومنتشر يشي بانضباط وتقشف روحي، والوحدات الزخرفية، مجرد تكرارات تشغل الفراغ ولا تملأه، يكفي أن تتأمل وحدة واحدة لتعرف شفرة بقية الوحدات، وحدة واحدة تكفي، ضعف وفقر في الخيال، حتى تنفيذها بمجرد قليل من الانتباه تدرك أنها مصبوبة في قوالب، فلا دفء أصابع مستها، ولا روح نفخت فيها، فظلت جمادا يؤكد الفراغ.. أين اختفت أشجار اللبلاب التي كانت تنتشر على الجدار وتتمدد معها الحياة فتغطي كل ما هو ميت أو زائد من مواسير الصرف، والطلاء المقشر، وتجاعيد الأيام.

جاءت النادلة، شابة قصيرة القامة، وجهها شاحب، مرهق، مجدب من تراكمات الشقاء والحاجة المعنوية والنفسية، شعر هائش، تجمعه للخلف وتربطه ذيل حصان فتتناثر أطرافه المقصفة التي تعاني من هشاشة تعكس نقصا في المغذيات الضرورية، ويصبح قصر القامة لا علامة أنوثة واكتناز ولكن دلالة فراغ وحالة تخوخ. عندما اقتربت ظهر لي خط الشعر المتراجع عن الجبهة، وانتشرت رائحة نفاذة فضحت مع اللمعة العاكسة رداءة ماركة الكريم الذي تستخدمه الفتاة.

ما هذه الفوضى؟ كيف ظهر هؤلاء؟

عملت في تأسيس قطاع الضباط، ولم تظهر عليهم أية ميول أو موالاة. التقية؛ من كان يتصور أن يصل اختراقهم للأجهزة الأمنية لهذه الدرجة، جميعنا ساند اللواء «محمد ابراهيم» في موقفه «طول ما أنا وزير داخلية مفيش ضابط ملتحٍ عندي حتى لو حكموا عليَّ بالحبس»، 74 ضابطًا و32 أمينًا، ولكن رفض الوزير طلبهم وقرر وقفهم عن العمل «مش هدَخّل ملتحٍ للوزارة». لن أقبل أبدا أخونة الوزارة، و«لو فشلتُ سأستقيل، إحنا هيئة مدنية ولما دخلنا الكلية ارتضينا الالتزام بالمظهر، إحنا كنا بنحلق دقننا في الصباح والمساء».

يعتقدون أنهم يمكن أن يعودوا للعمل بعودة الإخوان، هؤلاء الملاعين لا يتغيرون، لا أستطيع أن أصدق الإخوان، هم أيضا لم يصدقوني في لقاءاتنا القصيرة، ما بيننا ثأر، دم. ما زلت من الشرطة، ما زلت شرطيا، نعم.. رغم عملي بحقوق الإنسان ومشاركتي في مطالبات لتحسين أوضاع السجون واتباع إجراءات أقل عنفا مع المعتقلين، لا يعني أن أكون شرطيا أن أخالف القانون، لا أستطيع أن أقف معهم في خندق واحد، أنا أعرفهم.. أعرفهم جيدا أعرف ابتساماتهم ومهادناتهم، أعرف صراخهم وغضبهم، لكن الشيء الوحيد الذي لم أجده ولم ألمسه فيهم هو الإحساس بالندم أو الألم.

اختفى الضباط الملتحون، مثلما ظهروا فجأة بعد ثورة 25 يناير، في أعقاب حكم الجماعة الإرهابية للبلاد.

طلبت قهوة سادة دبل، لا شيء يناسب حالة الفقد التي أشعر بها سوى المر الغامق، لم تكن النادلة نتوءا شاذا يمكن استئصاله، أو معالجته.. فقد ظهرت نادلة أخرى من باب جانبي للبار لا تختلف عنها كثيرا: شعر متجمع تحت إيشارب أزرق رخيص القماش، جيب طويلة كالحة، حذاء أسود يتناسب مع خطوات زاحفة وأقدام دهسها الفلات فوت، نظرات زائغة لا تتطلع لطموح، لا أمل بل مزيد من تكريس وتكديس الإحباط.

قدمت القهوة دون مناديل، نظرت للأرض الحجرية التي تحتاج لجلي، ودعم لمناطق التصدع والهبوط، حاولت التثبت من صوت المطرب الذي يتردد في الهواء، «عمرو دياب»، جاهدت لترديد عبارة من الأغنية «كلنا بنقول هننسى، واحنا لسه مانسيناش».

دخلت شابة مع خطيبها، لا تفرق الشابة كثيرا عن النادلة، غير أنها بدينة، هناك خلط غير مفهوم، لا حدود أو معالم تفصل بين الزبونة والنادلة، صاحب السيارة والسائق، هناك خلط، اضطراب، فجاجة.. تدنٍ في الذوق والرشاقة والأناقة.

الغرباء يجلسون على طرف العالم، في انتظار حافلة تأخذهم لطرف أبعد، تتمدد الأطراف ويظلون على الهامش، يتغير متن العالم وتنتقل مراكز الثقل، لكن حافلات الأطراف لا تغير خطوط سيرها، مشدودة برباط خفي لخطوط الطول والعرض.

هذا يكفي. طلبت الحساب، قدمت حافظة الفاتورة ويداها تقطر بالماء، تكاد تجفف يديها في مريلتها السوداء الكالحة، دفعت الحساب، أعادت باقي النقود وعلى الحافظة الجلدية تركت أصابعها المبللة بالماء بصمات لا تشجع على قراءتها أو تتبع خطوطها.

لم يتبق من هذا المكان غير ذكرياتي.. غيرت فكرة أن أصحب أروى إليه.. سأخسر عالمي الذي لن يصمد أمام عالمها.

بقي شيء واحد عليّ تجربته.. الحمام.. نزلت الدرجتين، المناديل والمواد المطهرة على طاولة بيضاء، علامة للرجال للداخل على عكس معظم دورات المياه التي تجعل جزء حمام النساء في الداخل.. المكان نظيف، لكنه ليس براقا أو أنيقا، مكان يفي بالعرض دون دعوة للإطالة.

ألا يكفي هذا؟

يدفعني التردد إلى دخول الصالة الكبرى، أشتري من بائعة متجولة السفاري، سألتني عن التوصيل كثيرا، وددت لو أعاملها بود، واحدة من

دخلت شابة مع خطيبها، لا تفرق الشابة كثيرا عن النادلة، غير أنها بدينة، هناك خلط غير مفهوم، لا حدود أو معالم تفصل بين الزبونة والنادلة، صاحب السيارة والسائق، هناك خلط، اضطراب، فجاجة.. تدنٍ في الذوق والرشاقة والأناقة.

الغرباء يجلسون على طرف العالم، في انتظار حافلة تأخذهم لطرف أبعد، تتمدد الأطراف ويظلون على الهامش، يتغير متن العالم وتنتقل مراكز الثقل، لكن حافلات الأطراف لا تغير خطوط سيرها، مشدودة برباط خفي لخطوط الطول والعرض.

هذا يكفي. طلبت الحساب، قدمت حافظة الفاتورة ويداها تقطر بالماء، تكاد تجفف يديها في مريلتها السوداء الكالحة، دفعت الحساب، أعادت باقي النقود وعلى الحافظة الجلدية تركت أصابعها المبللة بالماء بصمات لا تشجع على قراءتها أو تتبع خطوطها.

لم يتبق من هذا المكان غير ذكرياتي.. غيرت فكرة أن أصحب أروى إليه.. سأخسر عالمي الذي لن يصمد أمام عالمها.

بقي شيء واحد عليّ تجربته.. الحمام.. نزلت الدرجتين، المناديل والمواد المطهرة على طاولة بيضاء، علامة للرجال للداخل على عكس معظم دورات المياه التي تجعل جزء حمام النساء في الداخل.. المكان نظيف، لكنه ليس براقا أو أنيقا، مكان يفي بالعرض دون دعوة للإطالة.

ألا يكفي هذا؟

يدفعني التحنان إلى دخول الصالة الكبيرة، أشتري علبة من بسكويت السفاري الإيطالي، سألت عن التروا كوشو، مدت العاملة يدها بواحدة سحبتها من رف الفريزر، غلاف العلبة ملصوق بشكل خاطئ.. أيس كريم فراولة، تراجعت عن طلبه، طلبت رغيفين من خبز الباجيت بالطماطم المجففة، نصف كيلو سفرجل مسكر، تركت العاملة الطلبات أمام «الكاشير» كأني سأحملها فكرت للحظة للانصياع للواقع وخاصة أن العلبتين خفيفتا الوزن، لكني لم أفعل، وأمرتها أن تجعل أحد العمال يحملهما إلى السيارة.

كنت قد جعلت السائق ينصرف فانتظرته أمام سور الحديقة. وظل العامل واقفا بجواري. وهو يتململ حتى ظهرت السيارة.

في الطريق للمكتب أقرأ ملف قضية الكمسري الذي تم تحويله إلى النيابة بتهمة القتل العمد؛ أجبر شابين على القفز خارج القطار رقم 934 بسبب تذكرة ثمنها 70 جنيها ليلقى أحدهما مصرعه أسفل عجلات القطار، ويصاب زميله بجروح خطيرة وينقل إلى مستشفى طنطا العام، تعاطفت مع الكمسري وطلبت من المكتب الدفاع عنه، غضبت أروى:

- يا جدو كيف تدافع عن هذا القاتل؟

- أستطيع أن أتفهم دوافعه، هو يرى أمثالهم يقفزون من القطار عندما يطالبهم بالتذكرة ويتنقلون من قطار لآخر دون دفع تذكرة، لو أنهم مواطنون عاديون كان يسلمهم لشرطة السكة الحديد في المحطة التالية، لكنه يعرف أنه باعة سريحة، ليس وحده المتهم، كثيرون من يحتاجون المحاكمة، الفهلوة، عدم احترام القانون.

وصلت رسالة ثالثة: «عرفنا من مصادرنا بما لديك من أوراق، ونريدها».

أي أوراق؟ لا أعرف عما تتكلمون، لقد تركت الجهاز من عشر سنوات.

ليسوا متأكدين وإلا لكانوا اقتحموا الفيلا في ليلة الخميس. إخوان، عصابات، مافيا، لا أعرف.

ربما هي رسالة عشوائية، جس نبض.. فاتت فترة طويلة، فجأة برق في ذهني: بعد فوز مرسي، صاروا في السلطة.. ماذا إن تم اتهامي بسرقة هذه الأوراق؟

في الثمانينيات.. عندما بدأت الأصوات تتصاعد، وأصبحت حقوق الإنسان بضاعة رائجة، تناقشنا في الجهاز، الدولة ستوافق على هذه المنظمات ولكن يلزم أن نكون على علم بكل شيء وألا يخرج الأمر عن أيدينا، سيكون هناك أكثر من مركز حقوقي نثق في مؤسسيه، أسس مكتب محاماة وتقدم لطلب مؤسسة حقوقية، ونحن سنسهل لك كل شيء.. كل ما تحتاجه للبداية تسهيل الاتصالات مع المنظمات الحقوقية الدولية، السفر والمشاركة في المؤتمرات، جمع المعلومات، تقديم التقارير.

القرار بتجميد وإغلاق منظمات المجتمع المدني في يناير 2012، لم تكن تعني لي سوى غلق جزء من نشاط شركة المحاماة التي أصررت أن يكون الأساس فيها ممارسة مهنة المحاماة وبجانبه نشاط حقوق الإنسان واخترت الاهتمام بالمساعدة القانونية للمحتجزين والمتهمين، لم تصلني دعوة للمشاركة أو تنظيم احتجاجات. حملات غلق مكاتب منظمات المجتمع المدني، اعتبروها تصفية حسابات، ولم ينسوا أنني جزء من النظام، منذ هذه اللحظة سيكون الارتجال وفرض الأمر الواقع فيحلف نواب أول برلمان بعد الثورة اليمين ويضيفون ما يريدون من تعبيرات تستميل أنصارهم أو تلائم صورهم في أولى جلسات البرلمان «بما لا يخالف شرع الله» «احترام شهداء ثورة 25 يناير». لا فرق في المخالفة كلها متاجرة.

في التمانينيات.. عندما بدات الاصوات تتصاعد، واصبحت حقوق الإنسان بضاعه رائجه، تناقشنا في الجهاز، الدوله ستوافق على هده المنظمات ولكن يلزم أن نكون على علم بكل شيء وألا يخرج الأمر عن أيدينا، سيكون هناك أكثر من مركز حقوقي نثق في مؤسسيه، أسس مكتب محاماة وتقدم لطلب مؤسسة حقوقية، ونحن سنسهل لك كل شيء.. كل ما تحتاجه للبداية تسهيل الاتصالات مع المنظمات الحقوقية الدولية، السفر والمشاركة في المؤتمرات، جمع المعلومات، تقديم التقارير.

القرار بتجميد وإغلاق منظمات المجتمع المدني في يناير 2012، لم تكن تعني لي سوى غلق جزء من نشاط شركة المحاماة التي أصررت أن يكون الأساس فيها ممارسة مهنة المحاماة وبجانبه نشاط حقوق الإنسان واخترت الاهتمام بالمساعدة القانونية للمحتجزين والمتهمين، لم تصلني دعوة للمشاركة أو تنظيم احتجاجات. حملات غلق مكاتب منظمات المجتمع المدني، اعتبروها تصفية حسابات، ولم ينسوا أنني جزء من النظام، منذ هذه اللحظة سيكون الارتجال وفرض الأمر الواقع فيحلف نواب أول برلمان بعد الثورة اليمين ويضيفون ما يريدون من تعبيرات تستميل أنصارهم أو تلائم صورهم في أولى جلسات البرلمان «بما لا يخالف شرع الله» «احترام شهداء ثورة 25 يناير». لا فرق في المخالفة كلها متاجرة.

علي قنديل

أكتب على صفحتي على فيس بوك اقتباسا من «إنجيل سري راما كريشنا»:

« لقد صنع الله ديانات مختلفة لكي تكون صحيحة لأناس مختلفين، لأزمنة وبلدان مختلفة، العقائد كلها مجرد طرق، الواحدة مثل الأخرى، والطريق ذاتها لا يمكن أن تكون الإله ذاته، في الحقيقة يمكن للإنسان أن يصل إلى أية واحدة من هذه الطرق عندما يسلك مع العطاء الكامل».

تنهال التعليقات: «كنت بحبك، لكن الكلام ده مريب»، «إن الدين عند الله الإسلام»، «خاف على نفسك يا شيخ»، «وقانا الله شر الفتنة»، «إيه الخرا ده؟»، «ده عند أمك».

لا يفاجئني كم الرسائل على الخاص من محبين: «ليه يا شيخ تستعين بغير القرآن؟ القرآن والحديث يكفينا».

ترسل أروى: لازم تراجع مع القناة، ما تكتبه على صفحتك.

لم تعلق رحاب لكنها وضعت علامة «لاف»، أرسلت لها على الواتس بشفرتنا التي لا يعرفها سوانا:

- ؟؟

أكتب على صفحتي على فيس بوك اقتباسا من «إنجيل سري راما كريشنا»:

« لقد صنع الله ديانات مختلفة لكي تكون صحيحة لأناس مختلفين، لأزمنة وبلدان مختلفة، العقائد كلها مجرد طرق، الواحدة مثل الأخرى، والطريق ذاتها لا يمكن أن تكون الإله ذاته، في الحقيقة يمكن للإنسان أن يصل إلى أية واحدة من هذه الطرق عندما يسلك مع العطاء الكامل».

تنهال التعليقات: «كنت بحبك، لكن الكلام ده مريب»، «إن الدين عند الله الإسلام»، «خاف على نفسك يا شيخ»، «وقانا الله شر الفتنة»، «إيه الخرا ده؟»، «ده عند أمك».

لا يفاجئني كم الرسائل على الخاص من محبين: «ليه يا شيخ تستعين بغير القرآن؟ القرآن والحديث يكفينا».

ترسل أروى: لازم تراجع مع القناة، ما تكتبه على صفحتك.

لم تعلق رحاب لكنها وضعت علامة «لاف»، أرسلت لها على الواتس بشفرتنا التي لا يعرفها سوانا:

- ؟؟

أجابت:

- المهم، تكون مقتنعا، ومستعدا للدفاع عن اقتناعك.

أردت دعمها:

- ؟؟

ردت الكرة لملعبي:

- هل ستدخل معركة أم ستنسحب؟

في البوست التالي كتبت عن أهمية تعدد مصادر ثقافة المؤمن، وأنها جميعها تصب في مجرى إيمانه.

أرسلت أروى: حريف.

ولم تعلق رحاب.

تترك الكرة في ملعبي، تراقب في صمت وكأنها تعرف كل خطواتي، وتظهر تخوفا عميقا من الشهرة والميديا، لديها تصور عني كمفكر، صاحب مشروع إصلاحي.

- الإسلام يحتاج مفكرين، تقدميين، أنت عندك رؤية نقدية.

لكني لا أرى في نفسي تصورها، أنا رجل أمتلك بلاغة، وقدرة على الجدال، واستعراض الحجج، لا بأس ببعض المقالات التي تتطالب بالإصلاح، فأكتب في مقالي الأسبوعي عن ضرورة رفع معدلات درجات القبول في الثانوية الأزهرية.. لا يعقل أن تكون الكليات التي تخرج من يحددون للناس الحرام والحلال، والمطلوب منهم تجديد الخطاب الديني لمواجهة مستجدات العصر تقبل طلاب المجاميع الضعيفة، تم رفع درجات قبول الكليات المدنية في حين بقيت كلية الشريعة مفتوحة أمام الدرجات المنخفضة، فأصبحت وكرا للفاشلين أو محدودي الذكاء ممن لم يتمكنوا من حيازة المعدل المطلوب لدخول الكلية التي يرغبون أو من تلك التي يمكن أن تؤهلهم لمستقبل مهني أو اجتماعي أفضل. ويغدو الدين بالنسبة لهم مجرد وسيلة عيش.

إن الأجيال الجديدة من رجال الدين هم عادة من الطلاب الفاشلين في دراساتهم، ومحدودي الذكاء، وبعضهم من الذين قضوا طفولتهم ومراهقتهم على هامش الحياة يتنقلون بين أعمال وأفعال ومهن متواضعة أو من تلك التي تتميز باعتمادها على الشطارة والفهلوة واستغلال طيبة الآخرين لبيعهم بضائع سيئة بأغلى الأسعار.

بمرور الوقت تختلف قراءاتي، أقرأ تفسير القشيري، منطق الطير، الشريعة جامدة، لا تقبل التجديد، ما نقوم به مجرد نقل لاجتهادات سابقة مطمورة، أين اجتهاداتنا؟! تتغير أفكاري وقناعاتي، أعيد القراءة.. أجد تشجيعا من رحاب. كيف أضعت عمري في الكتب البالية؟ وهناك هذه الكتب التي تملأ الإنسان وتأخذ بيده وإنسانيته.

تكتب لي: «اعمل الواجب، لا تنتظر نتيجة ما تفعله، لا تظل منتظرا الثمار، ازرع، اعمل اللازم الصحيح، كأن عملك هو فريضتك وليس نافلة، ساعتها ستكافح دون قلق وأنت حر من أن ترى نفسك. يُقبل عملك عندما لا ترى نفسك، ستكافح دون قلق وأنت حر من الأمل والذاتية».

ما تكتبه لي يكشفني أمام نفسي: «إذا الإنسان مع الله.. ساعتها يكون عينه التي يرى بها ويده التي يبطش بها، وينساب الخير وتسيل البركة من بين يديه، سواء أكان ملكا أو داعية أو طبيبا أو كنّاسا في الشارع. اعمل.. لا شيء في هذا العالم يذهب هباء، إنه يتحول، إنه يجدد وجهه».

تدخول الحلبة التي يرغبون أو من تلك التي يمكن أن توهلهم لمستقبل مهني أو اجتماعي أفضل. ويعدو الذين بالنسبة لهم مجرد وسيلة عيش.

إن الأجيال الجديدة من رجال الدين هم عادة من الطلاب الفاشلين في دراساتهم، ومحدودي الذكاء، وبعضهم من الذين قضوا طفولتهم ومراهقتهم على هامش الحياة يتنقلون بين أعمال وأفعال ومهن متواضعة أو من تلك التي تتميز باعتمادها على الشطارة والفهلوة واستغلال طيبة الآخرين لبيعهم بضائع سيئة بأغلى الأسعار.

بمرور الوقت تختلف قراءاتي، أقرأ تفسير القشيري، منطق الطير، الشريعة جامدة، لا تقبل التجديد، ما نقوم به مجرد نقل لاجتهادات سابقة مطمورة، أين اجتهاداتنا؟! تتغير أفكاري وقناعاتي، أعيد القراءة.. أجد تشجيعا من رحاب. كيف أضعت عمري في الكتب البالية؟ وهناك هذه الكتب التي تملأ الإنسان وتأخذ بيده وإنسانيته.

تكتب لي: «اعمل الواجب، لا تنتظر نتيجة ما تفعله، لا تظل منتظرا الثمار، ازرع، اعمل اللازم الصحيح، كأن عملك هو فريضتك وليس نافلة، ساعتها ستكافح دون قلق وأنت حر من أن ترى نفسك. يُقبل عملك عندما لا ترى نفسك، ستكافح دون قلق وأنت حر من الأمل والذاتية».

ما تكتبه لي يكشفني أمام نفسي: «إذا الإنسان مع الله.. ساعتها يكون عينه التي يرى بها ويده التي يبطش بها، وينساب الخير وتسيل البركة من بين يديه، سواء أكان ملكا أو داعية أو طبيبا أو كنّاسا في الشارع. اعمل.. لا شيء في هذا العالم يذهب هباء، إنه يتحول، إنه يجدد وجهه».

ما تكتبه يجعلني كثيرا ما أرغب في الهرب من مواجهتها، من المرآة التي أرى نفسي فيها دون تضخيم أو هالة تبجيل وتقدير وإعجاب، وهذا ما أجده عند أروى التي تنبهر بكل ما أقول، ولا تناقش حالي أو قناعاتي.

الأهم الترند، وأعداد المتابعين وعدد ساعات المشاهدة.

أتحدث عن الله الذي يريدون، أما أنا فعلاقتي به مضطربة، أؤمن برحمته ومغفرته، لكن أؤمن أيضا أنه مل العالم وهجره وأعطاه ظهره وإلا لماذا كل هذه الكوارث والضحايا والامتهان للأرواح والأجساد لبشر ضعاف ليس لهم من أمرهم شيء، ولا يستطيعون لما يصيبهم دفعا؟

لا أمتلك شجاعة أن أترك هذه المهنة.. ماذا أعمل؟ في أي وظيفة؟ كيف يمكن بعد هذا العمر أن أبدأ من جديد، ماذا أدرس؟ الحياة ليس لها نهاية، لكن الحياة بها نظام وقواعد، كيف يتكيف الإنسان؟ كيف تتحور الجذور المدفونة في أعماق التربة؟ فتكتسي السيقان بالصدف الكلسي، بالحراشيف، للحماية من الخارج، والدفاع عن النفس؟

ذات يوم التهبت عيني فأخذني أبي معه للطبيب في القطار إلى الإسكندرية، سألت الطبيب بعد أن فحص عيني: ممكن مشلول يخف؟

- الطب كل يوم بيتقدم.

- يعني الدكاترة يعرفوا؟

- حاليا، لا.

- وربنا يعرف لهم علاج؟

هز رأسه مستنكرا السؤال:

- طبعا.

قاطعنا أبي بضيق، وقد تنبه لمغزى أسئلتي:

- يعرف أو لا يعرف، المهم أن صباح لا علاج لها.

دائما ما تفسر أمي حدة أبي: من الضغط والإجهاد الذي يسببه قيادته للقطار، هي مسئولية كبيرة، محتاجة تركيز شديد، أرواح ناس متعلقة في رقبته.

رغم عدم توافقي مع أبي ظل هاجس موته في حادثة يطاردني في طفولتي، أحرص على معرفة مواعيد ورديات، ولا أطمئن إلا حين يعود في نهايتها.

نادرا ما طلبت منه نقودا لشراء لوازم لي، والدراسة بالأزهر أعفتني من مصاريف الدروس، والزي الموحد ستر الحاجة لملابس جديدة، وأشبع نهمي للقراءة جلستي عند عم جابر بائع الجرائد والكتب في المحطة، يفرش فرشته بجوار مدخل المحطة، ومعرفته لأبي تجعله يثق بي، فيعطيني ما أريد من كتب ومجلات، أقرأها وأعيدها له، وأحيانا أجلس مكانه لحراسة الفرشة عندما يذهب لقضاء صلاة الظهر أو العصر.

معانٍ جديدة، أجدها عند محمد أركون، محمد شحرور، أقرأ كتاب سبعة أوجه للبطل: البطل العائد من الرحلة لا يجب أن يلمس الأرض مباشرة، يذكرني بقصة إسماعيل بطل رواية «قنديل أم هاشم»، إذا عدت دون استعداد للعودة، فقد تضل طريقك وتتخبط.

أقرأ في كتاب «مقاصد الشريعة» للشاطبي الأندلسي «لقد بلغ الورع بهؤلاء الأئمة الأعلام أن استصغروا أنفسهم عن الاجتهاد المطلق فظلوا أتباعا لأئمة المذاهب الأربعة». هل هذا ورع أم جبن أم تحجر عقل؟ «لكن الخوف من التقدم إلى الاستقلال بالفتوى

- يعرف او لا يعرف، المهم ان صباح لا علاج لها.

دائما ما تفسر أمي حدة أبي: من الضغط والإجهاد الذي يسببه قيادته للقطار، هي مسئولية كبيرة، محتاجة تركيز شديد، أرواح ناس متعلقة في رقبته.

رغم عدم توافقي مع أبي ظل هاجس موته في حادثة يطاردني في طفولتي، أحرص على معرفة مواعيد ورديات‌ه، ولا أطمئن إلا حين يعود في نهايتها.

نادرا ما طلبت منه نقودا لشراء لوازم لي، والدراسة بالأزهر أعفتني من مصاريف الدروس، والزي الموحد ستر الحاجة لملابس جديدة، وأشبع نهمي للقراءة جلستي عند عم جابر بائع الجرائد والكتب في المحطة، يفرش فرشته بجوار مدخل المحطة، ومعرفته لأبي تجعله يثق بي، فيعطيني ما أريد من كتب ومجلات، أقرأها وأعيدها له، وأحيانا أجلس مكانه لحراسة الفرشة عندما يذهب لقضاء صلاة الظهر أو العصر.

معانٍ جديدة، أجدها عند محمد أركون، محمد شحرور، أقرأ كتاب سبعة أوجه للبطل: البطل العائد من الرحلة لا يجب أن يلمس الأرض مباشرة، يذكرني بقصة إسماعيل بطل رواية «قنديل أم هاشم»، إذا عدت دون استعداد للعودة، فقد تضل طريقك وتتخبط.

أقرأ في كتاب «مقاصد الشريعة» للشاطبي الأندلسي «لقد بلغ الورع بهؤلاء الأئمة الأعلام أن استصغروا أنفسهم عن الاجتهاد المطلق فظلوا أتباعا لأئمة المذاهب الأربعة». هل هذا ورع أم جبن أم تحجر عقل؟ «لكن الخوف من التقدم إلى الاستقلال بالفتوى
لا يريدون أن يكونوا مسئولين أمام الله تعالى عن القول في دم أو مال أو عرض بما لا يرضي الله سبحانه وتعالى». ما هذا الكلام؟ الله خلق الإنسان وحمله الأمانة من أجل هذا، لكي يكون مسئولا. ما هي الأمانة؟ إن لم تكن تحمل المسئولية، وإرشاد الناس إلى ما فيه صالح دنياهم وآخرتهم، ما هذه الأقاويل التي تبرر كل ما قد يبدو في العقيدة متنافيا مع العقل خاضعا للنقل.

إن الله يرزق المؤمن وغير المؤمن، وإن الله يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب! وإذا رزق الله المؤمن فإنه يرزقه بسبب تقواه وصلاحه ونسكه ومحياه وعبادته! وإذا رزق الله الكافر فإنه يرزقه لكي يمد له في كفره كي لا يرتدع عنه أو لكي يرتدع عن كفره! هذا كلام أردده على المنبر، ولكن حين أفكر فيه أجده يهدم الإنسان، يورثه الذل والخنوع والكسل.

كلام الخطباء والدعاة يستهتر بمشاعر العمال يستغل سذاجة الناس وبساطتهم ويصور الله على أنه يكيل للعمال بمكيالين وليس بمكيال واحد.

فماذا سيستفيد المؤمن من تعذيب الكافر يوم القيامة؟

ما الذي سيستفيده الفقراء من تعذيب الأغنياء يوم القيامة؟

أحيانًا تجد نفسك في دوامة هى خليط من الدهشة، السخط، الإنكار.. فلا تجد نجاة لك غير أن تستريح قليلًا، وتبحث في ذاكرتك عن مرفأ تركن له.. وفى معظم الأحوال يكون مرساي على ضفة الشاشة الكبيرة، عالمي السري الذي عشت في حيواتها أكثر وأعمق مما عشت في الحقيقة.

في فيلم «لون الجنة». يؤلمنى الوجع الذي يملأ وجه الصبي الصغير الكفيف، ونتبادل مواقعنا، وأمسح دموعًا لا تنضب من نبع أساه وهو يقول: «الآن قد بدا لي أني غير مرغوب فيه ولست محبوبًا، وحتى جدتي لا تحبني، لأني ضرير.. الكل يهرب من بين يدي، لو لم أكن ضريرًا لذهبت إلى المدرسة مع أطفال القرية، ولكن بسبب حالتي عليّ أن أذهب إلى مدرسة خاصة للذين هم مثلي، بمكان بعيد جدًا عن أهلي وقريتي. قال المعلم مرة إن الله يحب الضرير أكثر لأننا لا نرى.. ولكني سألته: لو كان كذلك إذًا لماذا خلقنا أضرارًا؟ هل خلقنا هكذا حتى لا نراه؟ أجابني: إن الله لا تدركه الأبصار، إن الله في كل مكان تستطيع أن تراه بإحساسك، تستطيع أن ترى قدرته عندما تلمس الأشياء بيديك، ومنذ ذلك الحين وأنا أتلمس الأشياء.. إلى أن يأتي اليوم وتلمس يدي يده، لكي أخبره بكل شيء وبكل ما في قلبي من ألم وحزن».

جئت من هذا العالم حيث لا يوجد شيء تفتخر به، لا جدود
ولا تاريخ ولا صور، هذه التفاصيل لم تكن تشغل بال أبي وأمي، كل ما يهمهما كيف يتم تدبير الحياة حتى يأتي موعد القبض الجديد، وتوزيع جنيهات المرتب على الضروريات الأساسية.

كنت محظوظا عندما تمت ترقيتي بعد حصولي على الماجستير لأكون إماما لمسجد صلاح الدين، في حي المنيل، وجدت العائلات التي يعود تاريخها لتاريخ هذه الجزيرة التي اختارها الملك الصالح مقرا لجنود البحرية، أشجار النسب تورق فروعها وتزهر بتشبيكات تتداخل منتسبة لشرف نبوي أو قبلي. كلهم يعرفون أين ذهبت نُطف أجدادهم، تحفظها الصور، الذكريات.

انجذبت لحالة أروى، لما تمثله، للعالم الذي لم أنتم له، تقديري لها كان مرتفعا، كأنهم لا يخطئون وكل أخطائهم مبررة. أتتبع صفحتها، والروابط التي تضعها على صفحتها، أعبر لها عن تقديري لثقافتها، ثم أسجل إعجابي، وأتتبع كل بوستاتها وصورها، تعجبني هذه الثقافة الواسعة والمعرفة المتنوعة، رغم أن بعضها صادم كالحقيقة كما في نصيحة فيلم «إمبراطورية الشمس»: «العالم ليس مثل أمك، تغضب عليها وتصرخ في وجهها في النهار، وفي نهاية اليوم تناديك للعشاء.. العالم سيتركك تموت جوعًا!».

وبعضها شاذ وغريب، لا يتناسب مع ما تظهر من روح متعاونة، متفهمة:

جئت من هذا العالم حيث لا يوجد شيء تفتخر به، لا جدود ولا تاريخ ولا صور، هذه التفاصيل لم تكن تشغل بال أبي وأمي، كل ما يهمهما كيف يتم تدبير الحياة حتى يأتي موعد القبض الجديد، وتوزيع جنيهات المرتب على الضروريات الأساسية.

كنت محظوظا عندما تمت ترقيتي بعد حصولي على الماجستير لأكون إماما لمسجد صلاح الدين، في حي المنيل، وجدت العائلات التي يعود تاريخها لتاريخ هذه الجزيرة التي اختارها الملك الصالح مقرا لجنود البحرية، أشجار النسب تورق فروعها وتزهر بتشبيكات تتداخل منتسبة لشرف نبوي أو قبلي. كلهم يعرفون أين ذهبت نُطف أجدادهم، تحفظها الصور، الذكريات.

انجذبت لحالة أروى، لما تمثله، للعالم الذي لم أنتم له، تقديري لها كان مرتفعا، كأنهم لا يخطئون وكل أخطائهم مبررة. أتتبع صفحتها، والروابط التي تضعها على صفحتها، أعبر لها عن تقديري لثقافتها، ثم أسجل إعجابي، وأتتبع كل بوستاتها وصورها، تعجبني هذه الثقافة الواسعة والمعرفة المتنوعة، رغم أن بعضها صادم كالحقيقة كما في نصيحة فيلم «إمبراطورية الشمس»: «العالم ليس مثل أمك، تغضب عليها وتصرخ في وجهها في النهار، وفي نهاية اليوم تناديك للعشاء.. العالم سيتركك تموت جوعًا!».

وبعضها شاذ وغريب، لا يتناسب مع ما تظهر من روح متعاونة، متفهمة:

«إلى أي حد هو مقرف وسخيف

سطحي وعديم الجدوى

يبدو لي السعي في هذا العالم

سحقا سحقا له، يا له من حديقة مجدبة

تنغمر فيها بذور الفساد

ليطفح فيها عشب ينز بالقبح

فإلى هذا سيكون المآل».

انتقل التواصل بيننا من العام إلى الخاص، وصرنا نتواصل وتحكي لي عن عائلتها، مشاكلها مع والدتها، سفرياتها، تعمقت علاقتنا، وصار اتصالنا عادة لا أستطيع الفكاك من أسرها، تبدي إعجابا كبيرا بطريقة تقديمي، بعد كل حلقة تشيرها على اليوتيوب، تجمع مقالاتي، تعيد نشرها على صفحة البرنامج، تطور الحديث: إلى خد بالك من نفسك، كُل كويس، أنت تشغل كل تفكيري، لا أستطيع أن أتنفس بعيدا عنك، أنت وحدك في هذا الكون من يفهمني، أنت راحتي.

تماديت معها، مأخوذا باهتمامها، تتحاشى أن تتحدث عن علاقتها بزوجها، وعندما أشير له، لا تقول غير عبارة: أنا أتعس واحدة. وتغلق الاتصال.. يشغلني حالها وبؤسها وفي الصباح أجد ابتسامتها ورسالتها التي أنتظرها: صباحك سكر. أحبك، فأرد عليها: صباحك سكر، أحبك جدا.

اقترحت: لازم تجعل رحاب ترتدي الحجاب.. كونها لا ترتدي الحجاب سيجعل الكثيرين من متابعيك لا يقبلون على الصفحة، سيقلل من شعبيتك.

وفي بغتة قالت: الأحسن تطلقها.

اندهشت من جرأتها، وتهاون قيمة العلاقات في نظرها.

في اليوم التالي غيرت رأيها:

- عارف، عدم حجابها سيجعلك مثارا للجدل.. الشيخ وزوجته غير المحجبة، هاشتاج سيتصدر الترند.

ضايقني الطرح: ابعدي رحاب عن هذه الدائرة.

- أليست مستفيدة مما أنت فيه؟ ونقلتم أول السنة لفيلا دريم.

- ما زلت أدفع أقساطها، وهذا كان اقتراحك.

- وأنت استفدت منه.

لا أستطيع أن أبتعد عن رحاب، كوني لم أعد أحبها كما كنا، أو لم أعد أستطيع التفاهم معها، ونقاط اختلافنا صارت عديدة، فلأنني تغيرت، تغيرت للأسوأ، رحاب تحت جلدي، لن أقطع جسوري، هي جسري، كما أنني لن أستمر في هذا الطريق طويلا.. أنت تضحك على نفسك، لم يسلك أحد طريقا وعاد منه، كل طريق يؤدي إلى نهايته.

تختفي أروى لأيام، ثم تعود رسائلها على الماسنجر:

في اليوم التالي غيرت رأيها:

- عارف، عدم حجابها سيجعلك مثارا للجدل.. الشيخ وزوجته غير المحجبة، هاشتاج سيتصدر الترند.

ضايقني الطرح: ابعدي رحاب عن هذه الدائرة.

- أليست مستفيدة مما أنت فيه؟ ونقلتم أول السنة لفيلا دريم.

- ما زلت أدفع أقساطها، وهذا كان اقتراحك.

- وأنت استفدت منه.

لا أستطيع أن أبتعد عن رحاب، كوني لم أعد أحبها كما كنا، أو لم أعد أستطيع التفاهم معها، ونقاط اختلافنا صارت عديدة، فلأنني تغيرت، تغيرت للأسوأ، رحاب تحت جلدي، لن أقطع جسوري، هي جسري، كما أنني لن أستمر في هذا الطريق طويلا.. أنت تضحك على نفسك، لم يسلك أحد طريقا وعاد منه، كل طريق يؤدي إلى نهايته.

تختفي أروى لأيام، ثم تعود رسائلها على الماسنجر:

«لا أحد يحبني في الدنيا مثلك، ولا أحب أحدا في الدنيا مثلك، حضّرت حفلة لعيد ميلادك».

في قاعة الاجتماعات بالقناة، تورتة كبيرة عليها صورتي، مجات وأقلام، تذكارات...

تتصل رحاب كي لا أتأخر كي نحتفل معا.

- لن أتأخر، اجتماعات سأنتهي منها.

تبتسم أروى بضيق: رحاب؟

بمرور المواقف يظهر هذا الضيق الذي تداريه، لكنها انفجرت صارخة في وجهي، بعد أن أخطأت وأنا أتحدث معها: نعم يا رحاب.

- أنا أروى، أروى. خسارة فيك كل ما فعلته من أجلك.

أدركت أن أروى لم تكن تحبني، كل ما تكتبه أروى أو تفعله يحتاج لبعض التدقيق لعين بصيرة، لأكتشف روحها المدمرة، الزيف الذي يغلفها، ادعاء الاهتمام، والحب، الرغبة في الاستحواذ، الابتزاز، مخلوقة مريضة، سلطها الله على نفسها وعلى الآخرين، تسعى للخراب، تحيا على الصخب والضوضاء، كشجرة لبلاب كريهة.

هي لا تحبني، وهذا يخفف من شعوري بأي ذنب نحوها، هي تكره زوجتي، الاهتمام بأخبارها، محاولة الوقيعة المستمرة بيننا، محاولة إزعاجها، ومضايقتها، لا يكفيها اهتمامي بها، تنسى أنها متزوجة، فلماذا الإصرار على تشويه رحاب؟ لقد حرصت على ألا تعرف شيئا، لكنها تشعر أن هناك امرأة في حياتي، بعد عامين من علاقة مبتورة، أتساءل هل كانت هناك امرأة في حياتي، أم أنه لم يكن لي حياة ليكون فيها أحد، مجرد فوضى مخطط لها؟

يا الله انظر لي، ارحم روحا تتخبط، امنحني فرصة، علامة.

فادي

الوحش يبتلع الجميلة..

سأغمض عينيّ كي لا أراك..

سأغلق فمي كي لا ينطق اسمك..

لكني سأبقي أذنيّ مشرعتين كي تلتقطا حفيف صوتك.

خيباتي الكبيرة لم أبح بها، غرستها في قلبي، فنمت وأزهرت، أشجارا وثمارا ووردا حمراء خدعتني وأنستني جذورها، الورود والتفاحات الحمراء التي ترتوي من دمي، كانت نهمة، شرهة، وجسدي الذي فقد أوردته استوى مرجا أخضر تحت نافذتي.

أحطك من كل جهة، دون أن أعرف أنك تعجزين عن النظر للداخل، يبدو وكأن لا جدران لك ولا أعمدة تستطيعين ترتيبها. ذاكرتك ثقوب.. مرت منها كل همساتي، لمساتي دون أثر. والوقت قماشة عريضة لا تعرفين كيف تطوينها، أو تفصلين منها فساتين مزركشة، فتظلين تتأرجحين في التكرار، وتحملينه رايات لمعارك خاسرة. كل المعارك صلصلة خاوية، وأنت لا تستطيعين دفن موتاك أو تطبيب نزف المجروحين.

فادي

الوحش يبتلع الجميلة..

سأغمض عينيّ كي لا أراك..

سأغلق فمي كي لا ينطق اسمك..

لكني سأبقي أذنيّ مشرعتين كي تلتقطا حفيف صوتك.

خيباتي الكبيرة لم أبح بها، غرستها في قلبي، فنمت وأزهرت، أشجارا وثمارا وورودا حمراء خدعتني وأنستني جذورها، الورود والتفاحات الحمراء التي ترتوي من دمي، كانت نهمة، شرهة، وجسدي الذي فقد أوردته استوى مرجا أخضر تحت نافذتي.

أحطك من كل جهة، دون أن أعرف أنك تعجزين عن النظر للداخل، يبدو وكأن لا جدران لك ولا أعمدة تستطيعين ترتيبها. ذاكرتك ثقوب.. مرت منها كل همساتي، لمساتي دون أثر. والوقت قماشة عريضة لا تعرفين كيف تطوينها، أو تفصلين منها فساتين مزركشة، فتظلين تتأرجحين في التكرار، وتحملينه رايات لمعارك خاسرة. كل المعارك صلصلة خاوية، وأنت لا تستطيعين دفن موتاك أو تطبيب نزف المجروحين.

كم تمنيت أن تذكريني، تمنيت أن تفكري فيّ، قد يكون الإثبات الوحيد لوجود كائن ما أن يفكر فيه شخص واحد فقط، أن أشغل حيزًا من تفكيرك، هذا نفي لعدميتي، أنا موجود لأنك تفكرين فيّ.

هذه أشياء تخيف المرء حقًا:

ماذا إن اعتدت أن أضبط هندامي في عينيك كل يوم؟!

ماذا إن كانت بوصلتي لا تعرف من الاتجاهات الأربعة سواك؟!

ماذا إن كانت السكينة لا تأتي إلا من أنفاسك؟!

ماذا إن اعتدت الإقامة في أرض الترحال؟!

أشعر بك حين تفكرين فيّ، دبيب يسري في خلاياي فأنشط، كأن أشعة دافئة من شمس حانية تسقط على جلدي المتجمد، فتتنفس مساميّ وتبدأ عملياتي الحيوية بعد سكون، كأني شجرة، تتحدر جذورها وتتشعب في أعماق أرض بعيدة، وأنت تهدهدينني وتلتقط أوراقي الشعاع الصادر من روحي فتبدأ في الإزهار.

أجمع كل تنهيدات الصالحين، كل صدى الحروف الطيبة أصرها في منديل أبيض، أعصب به رأسي فتسكن الأجراس وتكف عن الدق، يتسع رأسي للزحام، للصخب، وتضيق بأرض خالية الوفاض.

حين تفكرين فيّ أعرف أنك ترين ما بداخل الروح، ما هو أعمق من حراشيف الزواحف. من الشوارع التي لا تعرفها الخرائط، من المدن التي لا يكفيها 70 قرصًا من الأسبرين كي تنتحر، من الكلمات التي لا تكتسي بالحروف بل تسكن الوجد. أؤمن أنك حين تفكرين بي سيستيقظ الضفدع من سباته الشتوي، وأخرج من بركتي، وتضعين التاج على رأسي. فأعود أميرًا.

فكري فيّ، كي أتنفس، كي أمضي في الطريق المرسوم، فكري فيّ لأني بدونك لا معنى ولا هدف، بدون ذكرك تفقد المدارات انحناءاتها فينزاح الكون.. يتمدد.. ينفجر..

اذكريني.. كيف يمكن أن أصبح إلهًا إن لم أرد على خاطرك.

أحتاج إلى عمر ثانٍ، أحتاج إلى معجزة كي أنساك، أحتاج أن أنساك، أن أُقطم منك، أن أبتعد كثيرا، قليلا، أن أدور في مداري، لعلي حين أبتعد عنك، يتكون لديّ مدار، أنا الذي كنت دائما في مدار الآخرين، ماذا أنا؟ لا شيء، وجودي، صمتي، غيابي، حنيني، لا شيء، أحتاج أن أبعد كي أراك، وأعرف تفاصيلك التي لفرط شغفي بك أنكرها، أحتاج أن أبعد كي أراك، أرى الوجه الآخر الذي لا أعرف، أراك بعيون غير التي اعتادتك، اعتادت عيناي أن تلمع لمرآك، أحتاج عينين لا يحجبهما حنين دائم إليك، أحتاج إلى أصابع لم تلمسك، إلى شفاه لا تختلج لك، أحتاج إلى رغبة لا توقظها خصلة من شعرك، أو ميلاد غمازتين في خدك.. أحتاج إلى عمر جديد، ولكن ليس هناك وقت. لا، سأستسلم وآخذك بين ذراعي، وسأنام، وسأبتهل ألا تأتيني في أحلامي، فاليقظة تكفيني، اليقظة كافية جدا لاحتراقي.

يا حنونة.. سأقول أحبك وأغلق فمي، أطبق فمي، أتلبس صمتي، فأي كلام غير هذه العبارات، هرطقات، تبريرات، توهان، ترديدات، فروع، أحبك هذا هو الأصل، صليبي تجربتي، محنتي، جحيمي، فردوسي.. حنونة.. كنت أناديك.

هل أقول لك سرا! أمي لم تعد تحبك، منذ سكنت قلبي، منذ صرت بوصلتي ومحبتك قدري، لم تصرح لي أبدا بذلك، لكني أعرف وجهها حين تبتسم لمن لا تحب، حين تجاهد روحها لترد الضغينة، حين تجبر نفسها على المحبة، حين تطلب المغفرة لأن روحا خلقها الرب، لا تتوافق مع روحها، أرقب

اذكريني.. كيف يمكن أن أصبح إلهًا إن لم أرد على خاطرك.

أحتاج إلى عمر ثانٍ، أحتاج إلى معجزة كي أنساك، أحتاج أن أنساك، أن أُقطم منك، أن أبتعد كثيرا، قليلا، أن أدور في مداري، لعلي حين أبتعد عنك، يتكون لديّ مدار، أنا الذي كنت دائما في مدار الآخرين، ماذا أنا؟ لا شيء، وجودي، صمتي، غيابي، حنيني، لا شيء، أحتاج أن أبعد كي أراك، وأعرف تفاصيلك التي لفرط شغفي بك أنكرها، أحتاج أن أبعد كي أراك، أرى الوجه الآخر الذي لا أعرف، أراك بعيون غير التي اعتادتك، اعتادت عيناي أن تلمع لمرآك، أحتاج عينين لا يحجبهما حنين دائم إليك، أحتاج إلى أصابع لم تلمسك، إلى شفاه لا تختلج لك، أحتاج إلى رغبة لا توقظها خصلة من شعرك، أو ميلاد غمازتين في خدك.. أحتاج إلى عمر جديد، ولكن ليس هناك وقت. لا، سأستسلم وآخذك بين ذراعي، وسأنام، وسأبتهل ألا تأتيني في أحلامي، فاليقظة تكفيني، اليقظة كافية جدا لاحتراقي.

يا حنونة.. سأقول أحبك وأغلق فمي، أطبق فمي، أتلبس صمتي، فأي كلام غير هذه العبارات، هرطقات، تبريرات، توهان، ترديدات، فروع، أحبك هذا هو الأصل، صليبي تجربتي، محنتي، جحيمي، فردوسي.. حنونة.. كنت أناديك.

هل أقول لك سرا! أمي لم تعد تحبك، منذ سكنت قلبي، منذ صرت بوصلتي ومحبتك قدري، لم تصرح لي أبدا بذلك، لكني أعرف وجهها حين تبتسم لمن لا تحب، حين تجاهد روحها لترد الضغينة، حين تجبر نفسها على المحبة، حين تطلب المغفرة لأن روحا خلقها الرب، لا تتوافق مع روحها، أرقب ابتسامتها التي تقوس خديها، ضميرها المعذب، تفتقد سلام روحها وتضطرب حين أحكي عن لقائنا، وحين تراك معي، تحاول أن تمحو الخطيئة التي تحملها تجاهك.. إشارات الخطر كانت كثيرة.

روت لي أمي: «في منامي.. سقطت مني إبرة كنت أمسكها وانهمرت دموعي دافقة، شعرت بحرارتها تكوي رحمي، كأني وقعت في بئر فارغة، وتنهيدات البحر الموحش تصم أذنيّ، قتلت الأسود ولكن بياض قطتي هرب.. اختفى.. تلاشى.. كيف يتلازم الأبيض والأسود؟ ماذا فعلت لها؟ ألم أستجب لها؟ ألم أنقذها؟ هل تأخرت؟ هل توقعت مني رعاية وحماية لا تعرضها لخطر المضايقة؟ أدرك متأخرا، أن الله يتحدث مع الآثمين أكثر مما يتحدث مع المؤمنين.

وفجأة ظهرت «متشا» تتلوى وتصرخ كما تفعل عندما أدوس خطأ على ذيلها، لم تتمسح كعادتها في ساقي، لكنها تتلوى وتدور حول نفسها، والخادمة تصرخ: الفأر يا مدام.. فأر أي فأر؟ إنه ليس مجرد فأر بل هو فأر تعرفه الخادمة وتحدده بلام التعريف، جزعت من فكرة وجود فأر في بيتي.. كيف سأعيش في بيت به فأر؟ متى جاء؟ وأين كنت؟ هممت أن أغادر وأترك البيت، لكني نظرت للقطة، فلمحت بقعة سوداء متحركة بين فروها الأبيض الكثيف بقعة صغيرة كخنفسة، ثم تضخم السواد وصار حقيقة.. ورأيت فأرا أسود متشبثا بأظافره وأسنانه بساق قطتي، والقطة مستسلمة، تتحرك حنجرتها فحسب وتهتز بصراخ وجع وقلة حيلة.

حاولت أن أصرخ فلم أجد صوتي، أمسكت بشيء صلب؛ حجرا أم حذاء، لا أعرف، لكنه كان ثقيلا ويملأ كفي، أخذت أضرب الفأر في حركات متوالية على ظهره ورأسه حتى أفلت القطة، وتكومت «متشا» مصابة، مقضوم لحمها، وتساقط الفأر على الأرض، لم أكف عن ضربه حتى تحول لما يشبه الخفاش.. لم أصدق أني قتلت فأرا.. كنت سعيدة، سعيدة حتى استيقظت وتنبهت.. ما هذا؟! هل تأكل الفئران القطط؟ المفروض العكس، الطبيعي القطط هي التي تأكل الفئران.. انقبض قلبي وبقي ظل الفأر الأسود جاثما على روحي، وخوفي على قطتي «ميتشا» يتصاعد كلحن جنائزي حزين.

تكمل أمي محاولات استمالتي إلى عالمها.

لم يسبق أن قتلت فأرا في أحلامي، لكني قتلت في يقظتي ثعبانا حاول دخول شقتنا.. كنت عائدة من المدرسة مرتدية زي الكشافة بلوزة بيضاء وجيب زرقاء، وعلى رأسي كاب نبيتي، وشارة على ذراعي الأيمن. ممتلئة بالزهو للزي الذي يظهر أنوثة تطل باستحياء، خوفا من الراهبات واتهام بالإغواء والغواية، فنراوغ الطبيعة ونزوغ منها، ونتركها لتتملكنا في بعض الأوقات.

على بسطة السلم، وقفت أخلع حذائي ورأيته يزحف هابطا سلالم البيت، قادما من الدور العلوي، ثعبان أسود متوسط الطول.. اقترب وأنا أفكر ماذا أفعل، حتى انتهى من درجات السلم وتمدد جسدا أسود كمسبحة من الخطايا والذنوب، ككل الضحكات والبسمات التي تملأ صدر شابة عندما تسمع صوتا خشنا يصيح: قمر. كتموجات الفرحة لعبارة: يا أرض اتهدي. وتصفيقة بكفين: يا صلاة النبي، وكل من له نبي يصلي.

أمسكت حذائي.. حذاء بكعب متوسط وجلد صناعي، ورود محفورة، تحتاج رعاية خاصة، لتجمع التراب على الورود البارزة أكثر من الجلد الأملس، اقترب برأسه، عاجلته بخبطات محمومة، فاقدة للسيطرة على التتابع المتسارع، بكل الخوف من الشر الذي يسببه ثعبان في بيت، فلا تعرف في أية قطعة أثاث اختبأ، ومن أي مكمن سيلدغك.. تجسد الشرير على عتبة الشقة.. وتلبستني روح القديس أنطونيس وهو يحارب شياطينه.. وفي داخلي ترددت صيحة السيد: بئس العبد.. الرب يمتحن العبد، والعبد لا يمتحن الرب..

هشمت رأسه، تمزق، انعجن، لم أكف عن الضرب حتى تجمع أمامي من كان بالبيت.

فرح أبي، زغردت أمي، صار ما أسماه الجميع «شجاعتي» مثلا وحكاية، لا أستطيع أن أدعي أنها شجاعة، لم أفعل سوى ما كان يجب على شخص

زرقاء، وعلى رأسي خاتم نبيلي، وساره على ذراعي الأيمن. ممتلئة بالزهو الزري الذي يظهر الوجه نطل باستحياء، خوفا من الراهبات والهام بالإغواء والغواية، فنراوغ الطبيعة ونزوغ منها، ونتركها لتتملكنا في بعض الأوقات.

على بسطة السلم، وقفت أخلع حذائي ورأيته يزحف هابطا سلالم البيت، قادما من الدور العلوي، ثعبان أسود متوسط الطول.. اقترب وأنا أفكر ماذا أفعل، حتى انتهى من درجات السلم وتمدد جسدا أسود كمسبحة من الخطايا والذنوب، ككل الضحكات والبسمات التي تملأ صدر شابة عندما تسمع صوتا خشنا يصيح: قمر. كتموجات الفرحة لعبارة: يا أرض اتهدي. وتصفيقة بكفين: يا صلاة النبي، وكل من له نبي يصلي.

أمسكت حذائي.. حذاء بكعب متوسط وجلد صناعي، ورود محفورة، تحتاج رعاية خاصة، لتجمع التراب على الورود البارزة أكثر من الجلد الأملس، اقترب برأسه، عاجلته بخبطات محمومة، فاقدة للسيطرة على التتابع المتسارع، بكل الخوف من الشر الذي يسببه ثعبان في بيت، فلا تعرف في أية قطعة أثاث اختبأ، ومن أي مكمن سيلدغك.. تجسد الشرير على عتبة الشقة.. وتلبستني روح القديس أنطونيس وهو يحارب شياطينه.. وفي داخلي ترددت صيحة السيد: بئس العبد.. الرب يمتحن العبد، والعبد لا يمتحن الرب..

هشمت رأسه، تمزق، انعجن، لم أكف عن الضرب حتى تجمع أمامي من كان بالبيت.

فرح أبي، زغردت أمي، صار ما أسماه الجميع «شجاعتي» مثلا وحكاية، لا أستطيع أن أدعي أنها شجاعة، لم أفعل سوى ما كان يجب على شخص أن يفعل.. من ينام وفي بيته ثعبان؟!

ومرت الأيام، ورأيت منها الكثير ولكن أعجبه وما لم أتوقعه أبدا أن تخذلني وتمرر أيامي».

لا تنتهي حكايات أمي وتفسيراتها «لم يكن هناك شيء، أنا من تمنيت، أنا من نسيت، أنا من فسرت بما يوافق هوى نفسي».

نادرة زياراتها إلينا.. تبتسم: هازورك لما تخلف.

هل تريد أن أنجب؟ كنت أظن أنك تحبين الأطفال، لكني لم أضبط يوما طفلا في حضنك أو بين ذراعيك، الأطفال الذين رأيتك تبتسمين لهم، كلهم في الصور، تنفرين من رائحة الأطفال، من ضجيجهم.

فى الحياة أشياء كثيرة غير مرئية، قد نستطيع أن نرى النجوم والكواكب. لكننا لا نستطيع رؤية القوى التي تبقيها بعيدة عن بعضها، أو ما تقربها من بعضها.

يقول أبونا سمعان: «إن الله نادرا ما يعطينا إجابات مباشرة وواضحة. إن الله يعطينا الفرصة للاختيار. إن القرار الوحيد الذي لا يريدنا الله أن نتخذه هو أن نخطئ أو نسعى ضد إرادته. إن الله يريدنا أن نتخذ قرارات تتفق مع إرادته. كيف تعرف ما هي إرادة الله لك؟ إذا كنت تعيش حياتك مع الله وتطلب إرادته في حياتك سيغرس الله رغباته في حياتك. المفتاح هو أن تريد مشيئة الله وليس مشيئتك أنت. تلذذ بالرب فيعطيك سؤل قلبك».

الكلمات التي طعنت الهواء وأحرقت روحي، ما زالت في أذني، والهواء المغدور الذي يخرج من شفتي يشعل الحزن الرابض في قلبي، لا أريد أن أسمع، لا أريد أن أرى، أريد أن أفقد الذاكرة، أن أتوه، أريد أن أجرب خفة الذين لا ينتظرون شيئا، الذين لا يثقون إلا في جراحهم، الذين لا يملكون ترابا يغويهم فيبذلون الروح ثم لا يجدون شيئا.

هذا الوجه، هذا الصوت، هذا الغضب يحررني من كل الخوف، من كل القلق، من كل المشاعر التي حملتها لك. أوثقت نفسي بك، رغما عني، المحبة أرغمتني، المحبة أغوتني، ووعدتني بانسياح الروح في الروح، الطبيعة خدعتني، الحكايات خدرتني. الحبل السري الذي بيننا لم يخنقك، لكنه سمم دمي..

البنت التي لم تحب أمها وأطلقت عليها السيدة التي تسكن الغرفة المجاورة كانت تكون في قصص الرعب، في الخرافات، لم أكن أعرف أنها يمكن أن تكون البنت التي تسكن روحي وتحتل قلبي.

تصرخين في وجهي: ماذا تعرف؟

الاتهام الذي يرفعه أحدهم في وجهك، كي يقلل من كل ما تقدمه أو تفعله، الأمر أعمق من مجرد ابتزاز نفسي، ماذا تعرف عني؟ لا أعرف سوى ما تظهرين لي، لا أتجسس عليك ولا أفتش خلفك، وأصدق كل ما تقولين، وفي الوقت الذي أتقرب إليك تبتعدين، تختلقين أعذارا وتضعين مهام ومشاكل كي تظلي بعيدة، تتخبطين بلا قواعد، لا تعرفين كيف تتصرفين، ما هو الصواب وما هو الخطأ؟

ظل وجودك ملتهبا، صاخبا، مقلقا، كنت أتوق إلى اضطرابه بدلا من سكون عالمي، اعتقدت أنها الحيوية المتدفقة، النار الباعثة للحركة والحياة، مع عمق اقترابي وطول التداني أصبت بالدوار من الحركات العشوائية، من الفوضى، فوضى الأفعال رغم حبك الشديد للنظام والترتيب ولكنك ترتبين الأشياء؛ الأشياء الجامدة، تسيطرين على ما هو مسيطر عليه أصلا، مجرد رغبة في السيطرة والتحكم، في حين لا تبالين بقراراتك المتضاربة واختياراتك العشوائية في الدراسة، في الحب، في الطعام، في الملابس. نظامك، ترتيبك الدقيق المموه يخفي سرا، حقيبة يدك، مفاتيح دولابك التي لا

دمي..

البنت التي لم تحب أمها وأطلقت عليها السيدة التي تسكن الغرفة المجاورة كانت تكون في قصص الرعب، في الخرافات، لم أكن أعرف أنها يمكن أن تكون البنت التي تسكن روحي وتحتل قلبي.

تصرخين في وجهي: ماذا تعرف؟

الاتهام الذي يرفعه أحدهم في وجهك، كي يقلل من كل ما تقدمه أو تفعله، الأمر أعمق من مجرد ابتزاز نفسي، ماذا تعرف عني؟ لا أعرف سوى ما تظهرين لي، لا أتجسس عليك ولا أفتش خلفك، وأصدق كل ما تقولين، وفي الوقت الذي أتقرب إليك تبتعدين، تختلقين أعذارا وتضعين مهام ومشاكل كي تظلي بعيدة، تتخبطين بلا قواعد، لا تعرفين كيف تتصرفين، ما هو الصواب وما هو الخطأ؟

ظل وجودك ملتهبا، صاخبا، مقلقا، كنت أتوق إلى اضطرابه بدلا من سكون عالمي، اعتقدت أنها الحيوية المتدفقة، النار الباعثة للحركة والحياة، مع عمق اقترابي وطول التداني أصبت بالدوار من الحركات العشوائية، من الفوضى، فوضى الأفعال رغم حبك الشديد للنظام والترتيب ولكنك ترتبين الأشياء؛ الأشياء الجامدة، تسيطرين على ما هو مسيطر عليه أصلا، مجرد رغبة في السيطرة والتحكم، في حين لا تبالين بقراراتك المتضاربة واختياراتك العشوائية في الدراسة، في الحب، في الطعام، في الملابس. نظامك، ترتيبك الدقيق المموه يخفي سرا، حقيبة يدك، مفاتيح دولابك التي لا تضيع، تنظيم محفظة النقود.

عباراتك الملغزة على صفحتك على فيس بوك: «احترس من الباب الذي لديه مفاتيح كثيرة»، هذه العبارة الغامضة الملتبسة، مثل التعليمات المكتوبة على وصفة الأدوية المستوردة ومكملات التغذية، وحبوب التخسيس، مثل حديث الشعراء عن بحور الشعر الخليلية؟ عن العروض.. الحقيقة أني لم أفهم أبدًا هذه العبارة. هل هذه المفاتيح الكثيرة ستكون منتشرة في أيدى أشخاص مختلفين؟ هل هذا الباب يشير إلى الباب أم الحارس الذي يمكن شراؤه أو رشوته؟ هل المفاتيح الكثيرة هى الحيلة والخديعة والمساومة والمهادنة؟ وهل المفتاح الواحد هو الاستقامة؟ ألا يرمز المفتاح الواحد الممدوح هنا إلى المركزية، السيطرة، التحكم. هل الباب سر؟ والمفاتيح الكثيرة، الآذان التي تسمعه والألسنة التي ترددة؟

ما الحكاية التي يمكن أن تحدث خلف باب مفاتيحه كثيرة؟ أتخيل أن الباب ذا المفاتيح الكثيرة هو باب يؤدي إلى رواق، طرقة، فراغ مستطيل أو أسطواني ينتهي بشرفة على بحر، على حديقة خلفية لمبنى مهجور، جفت أغصان أشجاره. هل الحكاية خلف الباب أم أمامه؟ في الأصابع الكثيرة التي تحمل نسخًا من مفتاح ليس له خصوصية، ويتم تداوله من فرد لفرد؟ المفتاح لا قيمة له في ذاته بل هو وسيط، عملة معدنية أو ورقية، قيمتها في ما نشتريه بها، فتتأرجح القيمة ما بين العجز والتضخم.

هكذا أنا أفكر في كل ما تكتبين، كل ما تقولين، أحلله، أحاول تفسيره، قبلت منك كل تقلباتك، أفهم دوافعك، أتعاطف مع ندبات روحك، وأتحمل أظافرك الطويلة وخدوش روحي.. طوبى للمتراحمين، طوبى للمصلحين بين الناس، طوبى للمتواضعين في الدنيا، طوبى للمساكين، طوبى للمحزونين، طوبى للمسبوبين من أجل الطهارة فإن لهم ملكوت السماء، طوباكم إذا حسدتم وشتمتم وقيل فيكم كل كلمة قبيحة كاذبة حينئذ فافرحوا وابتهجوا فإن أجركم قد كثر في السماء.. لكنه لم يقل طوبى للمخدوعين، هل قال طوبي للمغفلين؟ هل قلت يا يسوع؟

يسوع.. أنت لا تريد أن تتركني.. لا تريد أن تخرج من روحي، زهدك، مقاومتك لكل المغريات، الروح التي نفخت منها، الأثيرية والتسامي، اللا تعلق بشيء، لهم الحق أن يفتنوا بك، أن يظنوك إلها، أنت أحييت الموتى، أبرأت المرضى، أنت أشعلت الروح.. لكنك تقول كلاما ساذجا، لا ينم عن تجربة، أنت لست للحياة، كل أتباعك لم يلتزموا بما قلت، من التزم بـ«صِلوا من قطعكم، وأعطوا من منعكم، وأحسنوا إلى من أساء إليكم، وسلموا على من سبكم، وأنصفوا من خاصمكم، واعفوا عمن ظلمكم، وسلموا على من أعرض عنكم، اسمعوا قولي، واحفظوا وصيتي، وارعوا عهدي، كيما تكونوا علماء فقهاء»؟!

لا أنكر ما يحدث للنفس من تحولات، من سأم، من نفور، لكن ذلك التغير يظل محكوما بطباع الشخص وإيمانه، فالعالم كان وسيبقى دائما مليئا بالخير والشر، وذلك لأن الخير والشر هما النقيضان المكونان لحياة البشر. لقد كان لوسيفر هو المَلَك المفضل عند الرب. أليس معنى اسمه النور و«نجمة الصبح»، وبعدما عصى الرب هبط إلى الجحيم، لكن أبواب الجحيم لم تغلق جيدا، فخرج الشرير يتلاعب بالبشر.. كيف يمكن فهم تحولات الإنسان؟

ظللت أهرب من القيود.. من التصورات المرسومة عني.. لكني لم أتوقع خيانتها.. هذه ليست خيانة.. لم أجبرها على أن ترتبط بي ولم يكن هناك ما يلزمها، من أجلها قطعت العلاقة بعالمي، كانت شاهدا على الصراع الكبير بيني وبين أمي.. بيني وبين أبونا. كل الآباء.. كل أصدقائي.. رفاق مدرسة الأحد.. مسيحيتي كانت جلدي وأنا سلخت هذا الجلد ولم ينزع هذا الجلد بالهوينى.. أجزاء من لحمي من شراييني ملتصقة به.. المشكلة مشكلتي، أريد أن أكون بجوارها، لديها القدرة على إشعاري باحتياجها إليّ.. وكأن عالمها لن يكون.. سيتوقف بدوني.. أو على أقل تقدير سيكون به خلل كبير. لا ترى سوى نفسها، كأن لديها الحق في استغلال الآخرين، وتعزيز الشعور بالذنب لديهم، كنت أتفهم ألمها وأتعاطف مع دوافعها وخوفها من الوحدة، وميلها للاكتئاب واليأس اللذين تغطيهما بالغضب والتذمر الدائمين.

قلت لها: عايز نرتبط.

علماء فقهاء»؟!

لا أنكر ما يحدث للنفس من تحولات، من سأم، من نفور، لكن ذلك التغير يظل محكوما بطباع الشخص وإيمانه، فالعالم كان وسيبقى دائما مليئا بالخير والشر، وذلك لأن الخير والشر هما النقيضان المكونان لحياة البشر. لقد كان لوسيفر هو المَلَك المفضل عند الرب. أليس معنى اسمه النور و«نجمة الصبح»، وبعدما عصى الرب هبط إلى الجحيم، لكن أبواب الجحيم لم تغلق جيدا، فخرج الشرير يتلاعب بالبشر.. كيف يمكن فهم تحولات الإنسان؟

ظللت أهرب من القيود.. من التصورات المرسومة عني.. لكني لم أتوقع خيانتها.. هذه ليست خيانة.. لم أجبرها على أن ترتبط بي ولم يكن هناك ما يلزمها، من أجلها قطعت العلاقة بعالمي، كانت شاهدا على الصراع الكبير بيني وبين أمي.. بيني وبين أبونا. كل الآباء.. كل أصدقائي.. رفاق مدرسة الأحد.. مسيحيتي كانت جلدي وأنا سلخت هذا الجلد ولم ينزع هذا الجلد بالهوينى.. أجزاء من لحمي من شراييني ملتصقة به.. المشكلة مشكلتي، أريد أن أكون بجوارها، لديها القدرة على إشعاري باحتياجها إليّ.. وكأن عالمها لن يكون.. سيتوقف بدوني.. أو على أقل تقدير سيكون به خلل كبير. لا ترى سوى نفسها، كأن لديها الحق في استغلال الآخرين، وتعزيز الشعور بالذنب لديهم، كنت أتفهم ألمها وأتعاطف مع دوافعها وخوفها من الوحدة، وميلها للاكتئاب واليأس اللذين تغطيهما بالغضب والتذمر الدائمين.

قلت لها: عايز نرتبط.

ضحكت كأننا نهرج: لا يجوز. لازم تسلم الأول.

- عادي.. هعلن إسلامي.

- بطل تهريج.. هو الإسلام سهل كده!

لا يمكن القول أو التأكيد أن حبي لها هو السبب في إسلامي.. كما أنها لم تكن متدينة أو حريصة على أداء الشعائر الإسلامية.

تبدو الأمور طبيعية ومسلم بها وتظل سائرا في الطريق منوما حتى تلقى طوبة صغيرة في البحيرة الراكدة.. عندما كنت صغيرا بهرتني فكرة أن المسيح إله.. المخلص تجسد لإنقاذ البشرية. هذه الصورة تختلف عن صورة زيوس أو أمون، لعل صورته أقرب ما تكون لسيزيف.. وليس ابن إله.. هو معجزة.. دليل قدرة.

يصيح بي أصدقائي: كيف تترك ملكوت الرحمة وتذهب للقسوة، للغلظة، للعنف؟

تسخر: تعرف أنت ناصح جدا. الإسلام دين ذكوري بامتياز.. كل المزايا للرجال. لا أريد الزواج.

- لا تريدين الزواج في المطلق؟ أم لا تريدين الزواج مني؟

- علاقتنا لطيفة.. لماذا نعقدها بالزواج؟

لم أنتبه لذلك، ما الفائدة والكل محكوم بالخسارة؟!

مقام الترحال

يسري صالح

لم أتوقع موتي أبدا، ولم أفكر في الطريقة التي يمكن أن تنتهي بها حياتي حتى في أشد اللحظات كربا، حينما كان معظم زملائي معرضين لخطر الاغتيال، لم يكن من المقلق ورود اسمي في كشوف الاغتيالات، فلم أكن وجها معروفا، كنت قبل قمة الهرم قليلا، وعلاقاتي بزملائي في الجهاز ظلت مقتصرة على العمل، وأداء الواجب والمجاملات في أضيق الحدود، فلم تجمعنا مناسبات عائلية أو مشاركة في الإجازات والمصايف.

أراقب التحقيقات الأولية مع المتهم، ويحضر لي المعتقل وهو راغب في الاعتراف، في الحديث بكل شيء وعن أي شيء، حتى بالكذب، هذا الكذب والخلط بين الخيال والحقيقة، كثيرا ما أوقعنا في تجاوزت، لكن أية تجاوزات لا قيمة لها في سبيل حماية البلد.

هكذا لسنوات استقر العالم على حالة بدت عصية على التفكيك، لكن التغيير يحدث دائما، القانون الأساسي أن يتغير العالم، هذا هو الثابت في كل المتحولات، وكل متغير يقود خلفه متغيراته، ضوابطه، فوضاه، وفي كل المتغيرات كنت متواجدا بطريقة ما، أحيانا أكون مشاركا، أحيانا أكون شاهدا، أحيانا أكون متفرجا، لا أستطيع أن أرصد بسهولة كيف تغيرت أدواري، يحتاج هذا إلى كثير من الوقت، الصبر، الحكمة، وكلها أشياء لم تكن لي، لكني اكتسبتها واكتسيتها بمرور الأيام.. تغيرت فيّ صفات كثيرة وتأقلمت مع قوانين وقواعد، لكني لم أتخل يوما عن أن أكون رجل شرطة.

أنظر باندهاش لقدرتي على الانضباط وأراقب نفسي في أيام كثيرة، وأكون ممتنا لهذا الشرطي الذي أدعي أنه حافظ على توازن روحي رغم كل

يسري صالح

لم أتوقع موتي أبدا، ولم أفكر في الطريقة التي يمكن أن تنتهي بها حياتي حتى في أشد اللحظات كربا، حينما كان معظم زملائي معرضين لخطر الاغتيال، لم يكن من المقلق ورود اسمي في كشوف الاغتيالات، فلم أكن وجها معروفا، كنت قبل قمة الهرم قليلا، وعلاقاتي بزملائي في الجهاز ظلت مقتصرة على العمل، وأداء الواجب والمجاملات في أضيق الحدود، فلم تجمعنا مناسبات عائلية أو مشاركة في الإجازات والمصايف.

أراقب التحقيقات الأولية مع المتهم، ويحضر لي المعتقل وهو راغب في الاعتراف، في الحديث بكل شيء وعن أي شيء، حتى بالكذب، هذا الكذب والخلط بين الخيال والحقيقة، كثيرا ما أوقعنا في تجاوزت، لكن أية تجاوزات لا قيمة لها في سبيل حماية البلد.

هكذا لسنوات استقر العالم على حالة بدت عصية على التفكيك، لكن التغيير يحدث دائما، القانون الأساسي أن يتغير العالم، هذا هو الثابت في كل المتحولات، وكل متغير يقود خلفه متغيراته، ضوابطه، فوضاه، وفي كل المتغيرات كنت متواجدا بطريقة ما، أحيانا أكون مشاركا، أحيانا أكون شاهدا، أحيانا أكون متفرجا، لا أستطيع أن أرصد بسهولة كيف تغيرت أدواري، يحتاج هذا إلى كثير من الوقت، الصبر، الحكمة، وكلها أشياء لم تكن لي، لكني اكتسبتها واكتسيتها بمرور الأيام.. تغيرت فيّ صفات كثيرة وتأقلمت مع قوانين وقواعد، لكني لم أتخل يوما عن أن أكون رجل شرطة.

أنظر باندهاش لقدرتي على الانضباط وأراقب نفسي في أيام كثيرة، وأكون ممتنا لهذا الشرطي الذي أدعي أنه حافظ على توازن روحي رغم كل شيء ولا يكون لي غير مرافقته واتباع عاداته والحرص عليها.

فحرصًا على أن تكون لي عادات ثابتة وطقوس تنظم فوضى الأيام، اعتدت الخروج للتمشية مرتين في اليوم، في الصباح والمساء.. وجعلت موقع الشمس علامة لتحديد مسار تمشيتي، ففي الصباح عندما تكون الشمس ساطعة فوق البحر، أتحرك من الشاليه إلى الحدود الشمالية لقرية «العين» حيث بوابة الدخول، يجيء حرس القرية الذين يؤدون التحية الميرى: اتفضل يا باشا الشاي.

أشكرهم بتربيتة يدي اليمنى على صدري، وبخطوتي الرسمية ألتفت لأعود إلى الممر نفسه، يستغرق الوصول لنقطة الحراسة عشرين دقيقة، وتزيد خمس دقائق عند العودة، فقد يحدث أن أتخذ جانبًا من الطريق منتظرًا عبور طفل في دراجته الثلاثية، أو مرور خادمة إفريقية تجر في يدها ثلاثة كلاب ضخمة من نوع الراعي، وهي تحاول التحكم في سرعتها، لم أفكر يومًا في اقتناء أي نوع من الكلاب، تربية الكلاب مسئولية ولم أكن فارغًا يومًا من المسئولية.. أستمر في طريقي حتى أعود للشاليه.

قبل الغروب بساعتين أسير في الاتجاه المعاكس إلى البوابة الحدودية الجنوبية للقرية، وقتها تكون الشمس معلقة على قمة الجبل، مستغرقة في صعودها ما يزيد على التسع ساعات، أحتفظ دائمًا بالشمس على يميني في رحلة الذهاب، وعن يساري في رحلة العودة.. هل هناك فرق؟ لا فرق.. مجرد رغبة في ضبط الأشياء، بعض من التفكير نستغرقه قبل بداية وضع الخطة لتنفيذ شيء ثم تسير الأمور بعد ذلك بآلية لا تغيرها إلا التغيرات الجوية المفاجئة فيما يكون الجو رائقًا، والشمس ساطعة، فجأة يحدث تحول في الجو ويمتلئ الهواء برائحة التراب وتظهر غيمة صفراء تنتشر أمام جسم الجبل، فتكوِّن حجابًا عالقًا يبعث الرهبة والترقب كنذير لقادم لا يعرف أحد كنهه، لا يحدث هذا في تمشية الصباح، بل تكون تمشية المساء هي المعرضة لهذه التغيرات، فالصباح ككل الأشياء الجديدة، لديه من القوة ما يجعله يفرض سطوته، لكن المساء المنهك بحمولات وانكسارات العمر والأيام يسمح للأمور أن تتفلت، فتعيث الرياح، وتأخذ أمواج البحر في التدافع والتصارع للوصول إلى الشاطئ، يأخذ منقذو البحر في الصفير لتنبيه السباحين للعودة للشاطئ، وتسرع الأمهات بمساعدة الدادات في جمع لعب الأطفال، وسحبهم بعيدًا عن الشاطئ نحو الشاليهات، فيما يهم العمال بغلق الشماسي وقلب الكراسي وتمديدها على الأرض خوفًا من قوة الهواء وتمكنها من إسقاط الشمسيات، والتسبب في أذى رواد الشاطئ.

في هذا المساء لم أرغب في الاستكانة أو الاختباء والدخول للشاليه، فجلست في حديقته الأمامية حول البحيرة التي كونتها شلالات متدفقة بمناسيب مختلفة، تبعث التأمل في قدرة الإنسان على تقليد الطبيعة واستدعاء مظاهرها الجمالية، كي يتمتع بها من يستطيع أن يتحمل تكاليفها.

اشتدت سرعة الهواء، وبدت السحب وكأنها قادمة من خلف الجبل، وليس من عمق البحر كما يمكن للإنسان أن يتصور، بعد انسحاب من كانوا على الشاطئ، لم يعد أمامي غير السفن الرابضة منذ أيام، لا أعرف عددها، حيث تتشابه ألوانها التي لا يظهر منها غير اللونين الأزرق والطوبي. كلها سفن بضاعة، تنتظر دورها للدخول أو الخروج من الميناء الذي تتزايد أضواؤه مع تزايد تكاثف السحب.

حول جلستي أخذت الطيور تحوم بشكل محموم، تحط في تخبط على سطح البحيرة الصناعية ثم تعود للصعود المنخفض والدوران في دوائر وخطوط بيضاوية، فيما تشكل بعض الأسراب أشكالًا نجمية متعددة الزوايا والأضلاع، كأنها تحذر من شيء، خطر محدق قادم لا نراه، وهي وحدها تشعر به.

مضى الوقت وأنا في جلستي، لم يعد هناك غير السفن البعيدة التي أضاءت نورها، ما زلت أندهش من قدرة مولدات هذه السفن على توليد كل هذه الإضاءات، نظرت للشاليه، الظلمة تحيط به وتتبع من داخله، أين رافع؟ لقد تأخر الوقت كثيرا، ذهب للصيد، لكنه تأخر، دخلت الشاليه، أضأت الأنوار، في المطبخ كل أطباق الغداء مغسولة، كل شيء نظيف، أين ذهب؟ أريد فنجان قهوة، طلبته على الموبايل، خارج نطاق الخدمة، خرجت للحديقة، فتحت باب غرفته، فوجئت به راقدا في السرير، لم يكن مستغرقا في النوم، لكن وجهه محتقن، كأن حمى أصابته.. ماذا حدث؟ أشار لساقه، رفع الغطاء، بدت

مختلفة، تبعث التأمل في قدرة الإنسان على تقليد الطبيعة واستدعاء مظاهرها الجمالية، كي يتمتع بها من يستطيع أن يتحمل تكاليفها.

اشتدت سرعة الهواء، وبدت السحب وكأنها قادمة من خلف الجبل، وليس من عمق البحر كما يمكن للإنسان أن يتصور، بعد انسحاب من كانوا على الشاطئ، لم يعد أمامي غير السفن الرابضة منذ أيام، لا أعرف عددها، حيث تتشابه ألوانها التي لا يظهر منها غير اللونين الأزرق والطوبي. كلها سفن بضاعة، تنتظر دورها للدخول أو الخروج من الميناء الذي تتزايد أضواؤه مع تزايد تكاثف السحب.

حول جلستي أخذت الطيور تحوم بشكل محموم، تحط في تخبط على سطح البحيرة الصناعية ثم تعود للصعود المنخفض والدوران في دوائر وخطوط بيضاوية، فيما تشكل بعض الأسراب أشكالًا نجمية متعددة الزوايا والأضلاع، كأنها تحذر من شيء، خطر محدق قادم لا نراه، وهي وحدها تشعر به.

مضى الوقت وأنا في جلستي، لم يعد هناك غير السفن البعيدة التي أضاءت نورها، ما زلت أندهش من قدرة مولدات هذه السفن على توليد كل هذه الإضاءات، نظرت للشاليه، الظلمة تحيط به وتتبع من داخله، أين رافع؟ لقد تأخر الوقت كثيرا، ذهب للصيد، لكنه تأخر، دخلت الشاليه، أضأت الأنوار، في المطبخ كل أطباق الغداء مغسولة، كل شيء نظيف، أين ذهب؟ أريد فنجان قهوة، طلبته على الموبايل، خارج نطاق الخدمة، خرجت للحديقة، فتحت باب غرفته، فوجئت به راقدا في السرير، لم يكن مستغرقا في النوم، لكن وجهه محتقن، كأن حمى أصابته.. ماذا حدث؟ أشار لساقه، رفع الغطاء، بدت بقعة حمراء على ساقه، بقعة حمراء جرداء محاطة بباقي شعر الساق، همّ بالنهوض.. «سأجهز لك القهوة». «لا استرح». «حاسس بتكسير في جسمي». «سأبحث لك عن مسكن».

صعدت إلى الدور العلوي حيث غرف النوم، غرفة سلوى، وغرفة أروى مغلقتان، في كل مرة أسافر تجهز سلوى لي علبة حقيبة جلدية تضع بها أدويتي مع ورقة بالمواعيد، ومع أدويتي، أدوية البرد، المغص، المسكنات، بحثت في الحقيبة، وجدت علبة بنادول، أخذتها ونزلت، وقفت على باب الغرفة التي تضم دولابا وتسريحة وسريرين صغيرين، نام رافع على أحدهما، تذكرت الماء فعدت للمطبخ، «ستكون أحسن». «وجع صغير يا باشا، حقك عليّ إني تعبتك. العشا سيكون في موعده».

أطفأت النور، أغلقت الباب.. رافع الذي يأتي معي كي يخدمني، ها أنا أخدمه، لم يكن لديّ وقت من قبل لأداوي أحدا أو أطببه، فتحت التليفزيون.. لم يستيقظ، نهضت وأحضرت علبة بسكويت. كيف تقضي سنواتك الزائدة عن حاجة الآخرين لك؟!

- تفتكر يا باشا هذا عقاب من ربنا؟

- عقاب؟ هل ظلمت أحدا؟ أتحدث معه بنفس اللهجة.

- كنت أنفذ الأوامر.

- تحب ترجع بيتك؟

- لا أريد أن أعود للبيت، سأبحث عن مكان آخر.

ما يؤرقه أن تعذيبه للمعتقلين قد وجد هوى في نفسه، تمسح في طاعة الأوامر، فصار يتفنن في الأذى والإيلام الروحي والجسدي، وبعد كل حفلة تعذيب تتدفق معلومات، اعترافات، تكشف وتفسر، هناك دائما شيء يخفونه، ويكون التعذيب وحده الكفيل بكشفه، فكيف يمكن لي أن ألومه! استيقظ ضميره بعد ثورة يناير، ربما لم يكن ليتأثر وينهار جسده لولا ما حدث، الساعات التي أفلتت فيها قبضة الشرطة، عاشها قرونا نخرت في لحمه وعظمه، الخوف من الحساب أو الانتقام، كلما نشر معتقل تجربته، أوغل في خوض مستنقع ذكرياته، نبهته أنه كان مقنّع الوجه..

- عارفين الأسماء يا باشا، وجدت اسمي وعنواني في القوائم التي نشروها.

يدخل على فيس بوك ويخرج بتهديد ورعب جديد، نشرت أم شاب، «لنا عند الله شهيد، مات بنزيف شرجي، ظل ينزف حتى تحول إلى خرقة شاحبة»..

- ليست كل القصص حقيقية، توجد لجان إلكترونية تؤلف القصص والحكايات.

لم تكن لعنة المعتقلين هي ما أصابته، لكنها لعنة الانفصام الذي حصل بين عقله وجسده، سيطر عليه هاجس العقاب والتكفير عن الذنب، ونفذ جسده العقاب.

أخذت الحفرة التي أصابت ساقه، في الاتساع والعمق وتحولت من اللون الأحمر القاني إلى اللون الأسود، وبدأت تصدر منها رائحة كريهة، مثل كلب ميت، مثل ذنوب مكتومة، مثل الخبايا والرطوبة، العطن والعفن، أشار الطبيب الذي فحصه لضرورة نقله للمستشفى، يحتاج لبتر ساقه، قبل أن تصل الغرغرينة إلى الفخذ، لم يجزع للقرار.

- لا بد من عقاب في الدنيا، وأنت يا باشا أنقذت نفسك بالاستقالة.

وعشقه للحروف من الكتاب أو الإعلام. كنت أشعر بشغف كبير وأنا في مواقف مشابهة لكن ليس بهذا الحجم..

- عارفين الأسماء يا باشا، وجدت اسمي وعنواني في القوائم التي نشروها.

يدخل على فيس بوك ويخرج بتهديد ورعب جديد، نشرت أم شاب، «لنا عند الله شهيد، مات بنزيف شرجي، ظل ينزف حتى تحول إلى خرقة شاحبة»..

- ليست كل القصص حقيقية، توجد لجان إلكترونية تؤلف القصص والحكايات.

لم تكن لعنة المعتقلين هي ما أصابته، لكنها لعنة الانفصام الذي حصل بين عقله وجسده، سيطر عليه هاجس العقاب والتكفير عن الذنب، ونفذ جسده العقاب.

أخذت الحفرة التي أصابت ساقه، في الاتساع والعمق وتحولت من اللون الأحمر القاني إلى اللون الأسود، وبدأت تصدر منها رائحة كريهة، مثل كلب ميت، مثل ذنوب مكتومة، مثل الخبايا والرطوبة، العطن والعفن، أشار الطبيب الذي فحصه لضرورة نقله للمستشفى، يحتاج لبتر ساقه، قبل أن تصل الغرغرينة إلى الفخذ، لم يجزع للقرار.

- لا بد من عقاب في الدنيا، وأنت يا باشا أنقذت نفسك بالاستقالة.

يروج تلاميذي أني قدمت استقالتي، لم أقدم استقالتي، تم إحالتي للتقاعد دون نقصان أو زيادة يوم، لكن شائعة تقديم الاستقالة الآن، تضفي هالة ولا أحد يهتم بتصويب معلومة، في كل الحكايات، كلمة حقيقية وعشرات الكلمات المضللة، امنحني واقعة حقيقية وسأصنع لك منها ألف حكاية متضاربة ومعضدة، التشابكات والتعقيدات، عشرات الخيوط المغزولة من بطن دودة قز واحدة، أنثى عنكبوت في وسط شبكة جهنمية من التداخلات، والمصالح والتقاطعات والتضارب.

أخلاق الناس صارت متساهلة، أخلاق انتهازية، الطموحات الكبرى اختفت، ربما تكون موجودة لكن العمل على تحقيقها بجد غير موجود. ما أحدثته الثورة أنها جعلت كل شيء سهلا، ممكنا، دون بذل جهد حقيقي.. الاستهلاك يتضخم، والتطلعات تصبح احتياجات، ما كان يرضى به الصغار من الموظفين والعمال، لم يعد يكفيهم، الأفواه مفتوحة دائما، والسخط يزداد، ولا شيء يكفي، كثقب أسود تم قذفه في الفضاء يلتهم كل محاولة للتقارب، للتسوية، لكن لا رضى وسلام، حالة نهم وشره، أصابت الكل.. تزداد الرغبة في الاستحواذ، كأننا شعب يرتد إلى أيام الطفولة حيث الحرص فقط على تلبية الحاجات الغرائزية، والأنا ما زالت ضامرة، ينتشر الجهل، يتسرب التراخي، هل العمل أسهل أم الدراسة؟ بذل قوة بدنية، التعليم عملية معقدة، مملة، يبدو ألا طائل منها.. حتى تعلم الحرف.. هو يريد أن يبيع، صناعة الموبيليا، العملية، تجارة بيع وشراء فقط. لا يوجد إنتاج.

اختفت صفة المجتمع الكادح.. الترفيه غاية، الاستخفاف منهج حياة، الذين يكسبون الملايين الآن لا يمتلكون غير وقاحة الفراغ، الهراء يؤدي إلى مزيد من الهراء، والكل يكسب من لا شيء، من يستطيع أن يكون أكثر تفاهة يكسب أكثر، لا يوجد حد لهذا المنزلق.. كل ما لديك يتحالف لصالحك، وكل ما تفتقده، يتحالف ضدك. وكل ما لدينا هو الهراء.

يحضر شريف لمكتبي، «جدو سأبدأ مشروعا جديدا، وأحتاج منك مساعدتي بمليون دولار».

أعلم أنه طلب من سلوى المساعدة، وأعطته، وطلب من أروى وأعطته، لن أستطيع الوقوف في وجهه وصده، دائما يتهمني بالانحياز لأروى وأنني تركته لعائلة أبيه، ليس أمامي غير محاولة فرملة توقعاته.

- هل ستكون شراكة؟

- سأرده لك يا جدي.. مشروع مكسبه مضمون.

- لماذا؟ ستبيع مخدرات؟

- توجد الآن تجارة لنوع جديد من العملات الإلكترونية.

- الاستيراد أصبح بلا معنى.

- يا جدو لا يوجد استيراد. التجارة الإلكترونية، سهلت كل شيء وجعلت كل بضائع العالم ملك يديك.

هذه التغيرات تجعلني أحرص على السفر والإقامة لأيام هنا في شاليه السخنة، لا أريد العودة إلى القاهرة، لا شيء يثبت على حاله، هذه الجبال التي تم شقها والطرق التي تمتد، لتلتهم الصمت والسكون.

هذه الجبال قد تكون خامتها صلدة أو رملية، مفتتة، أرى على وجه الجبال وجوها تصرخ، وأجسادا مصلوبة، الزمن إزميل نحات، لوحة طبيعية محفورة في الجبل، لوحات من البازلت الأسود.

تسيل من الجبال أنهار من الألوان المتداخلة، جداول من اللون الأخضر الرمادي مع النحاسي والأزرق، تغطي الألوان بعض القمم، أشكال الجبال

- سأرده لك يا جدي.. مشروع مكسبه مضمون.

- لماذا؟ ستبيع مخدرات؟

- توجد الآن تجارة لنوع جديد من العملات الإلكترونية.

- الاستيراد أصبح بلا معنى.

- يا جدو لا يوجد استيراد. التجارة الإلكترونية، سهلت كل شيء وجعلت كل بضائع العالم ملك يديك.

هذه التغيرات تجعلني أحرص على السفر والإقامة لأيام هنا في شاليه السخنة، لا أريد العودة إلى القاهرة، لا شيء يثبت على حاله، هذه الجبال التي تم شقها والطرق التي تمتد، لتلتهم الصمت والسكون.

هذه الجبال قد تكون خامتها صلدة أو رملية، مفتتة، أرى على وجه الجبال وجوها تصرخ، وأجسادا مصلوبة، الزمن إزميل نحات، لوحة طبيعية محفورة في الجبل، لوحات من البازلت الأسود.

تسيل من الجبال أنهار من الألوان المتداخلة، جداول من اللون الأخضر الرمادي مع النحاسي والأزرق، تغطي الألوان بعض القمم، أشكال الجبال أيضا متغيرة بعضها حاد الاستقامة، بعضها منحدر بميل يوحي بيسر الصعود أو التسلق، بعض الجبال تكون قريبة من الطريق تزاحم عرضه، وبعضها يكون بعيدا حيث يوجد أمامه وادٍ فسيح. الوادي الرمادي أتخيله مسرحا لقصة، رواية..

تتناقض الروايات هذه الأيام حتى أنني أحتاج وقتا طويلا لفحصها، لا أستوعب ما سمعته من سلوى عن رغبة أروى في الانفصال عن فادي، لم أصدق ما يقال.. بهذه البساطة! أريد أن أعرف فيما تفكر وماذا تريد.

كتبت لها على الواتس: مساء الخير.

- مساء الفل يا حبوب.

- صحيح ما سمعته؟

- سمعت ماذا؟

- يا بنت أبوك، أين زوجك؟

- عنده زيارة مع طنط.

- وأنت في شقتك بمفردك؟

- نعم يا جدي.

- وصحيح ما قالته ماما؟

- تقريبا.

- وما السبب؟

- بدون سبب.

- لا يوجد شيء بدون سبب.

- أبدا، لا أرغب في الاستمرار معه.

- هل بدر منه ما يهينك؟

- الموضوع خاص بي وأنا ظلمته.

- ما الذي يحدث؟ الكل يريد الانفصال، الطلاق، وهل أخبرت فادي؟

- لا.

- وماذا ستفعلين؟ ما خطوتك التالية.

- أفكر في القيام بجولة في إفريقيا لإنتاج أفلام تسجيلية.. أنا المنتج المنفذ، ممكن الجولة تأخذ ستة شهور، سنة.

- أجلي القرار لحين عودتك. هل هناك شخص آخر في حياتك؟

- نعم. ولا.

- لا يوجد شيء بدون سبب.

- أبدا، لا أرغب في الاستمرار معه.

- هل بدر منه ما يهينك؟

- الموضوع خاص بي وأنا ظلمته.

- ما الذي يحدث؟ الكل يريد الانفصال، الطلاق، وهل أخبرت فادي؟

- لا.

- وماذا ستفعلين؟ ما خطوتك التالية.

- أفكر في القيام بجولة في إفريقيا لإنتاج أفلام تسجيلية.. أنا المنتج المنفذ، ممكن الجولة تأخذ ستة شهور، سنة.

- أجلي القرار لحين عودتك. هل هناك شخص آخر في حياتك؟

- نعم. ولا.

- لا أفهم!

- سأقول لك يا جدي عندما ترجع.

- لا تتصرفي، أو تخبري أحدا بشيء قبل أن أجلس معك.

بطريقة غير واعية كنت أدعم زواج أروى من فادي، صحيح أنني رفضت الموضوع في البداية، لكن أروى سألتني:

- ممكن أعرف يا جدو لماذا ترفض؟

- ولماذا أوافق؟

- لأني أريد هذا الزواج، بعد إذنك.

- حقا؟!

- حضرتك لا توافق لأن فادي مسيحي؟

- طبعا، وهل هذا أمر سهل؟

- لكنه سيشهر إسلامه.

- وعائلته ستوافق؟ يا بنتي الجواز نسب وعائلة.

كانت معارضتي أخلاقية، بعيدة عنهما، مرتبطة بالشرع ورأي الناس، لكن في داخلي ما زلت أراهما متكافئين، شيء في داخلي يراهما قريبين.

نبهتني أروى للشبه الكبير بين جدتها نجاة وفيوليت والدة مدام يولند، لم أعر الأمر اهتماما كبيرا في الظاهر، لكن شيئا ما كان يذكرني بها، أردت التحقق، عرفت من أروى أنها ستحضر مع سلوى عيد ميلاد زميلها فادي، عيد الميلاد مقام في النادي الأهلي، أخبرت سلوى أن لديّ موعدا مع أحد العملاء ويمكن أن أوصلهما معي وأن أنتظرهما لحين انتهائهما من الحفل. رحبت سلوى وأروى بالفكرة.

في المساء دخلت حجرة أروى وسألتها عن الهدية التي اشترتها لـ«زميلها» سألتها:

- ما اسم زميلك؟

- فادي يا جدو.

- ماذا اشتريت له؟

- أنت قديم جدا يا جدو.

- يا غلسة، وماما ماذا اشترت؟

- يا جدو بتدفع لمحل مبلغ والواحد يشتري ما يريده. بقيمة الكارت أو تزود.

فكرت ماذا أشتري له لم يكن هدفي الولد، فغرضي التعرف على جدته، فاشتريت له مجموعة قصص العهد الجديد بالفرنسية.

ورأيت جدة فادي، ارتج قلبي، رأيت نجاة تسند ذراعيها على المنضدة، تعلقت بوجهها، هي نجاة، لكن أكبر سنا، تهدل قليل في خطي الابتسامة، انتفاخ في العينين، تغيرات طفيفة، قصرت تسريحة شعرها، ظلت عيناي معلقتين بعينيها، وعندما تصافحنا لم أستطع تركها بدها، بشكل اضطررت

في المساء دخلت حجرة أروى وسألتها عن الهدية التي اشترتها لـ«زميلها» سألتها:

- ما اسم زميلك؟

- فادي يا جدو.

- ماذا اشتريت له؟

- أنت قديم جدا يا جدو.

- يا غلسة، وماما ماذا اشترت؟

- يا جدو بتدفع لمحل مبلغ والواحد يشتري ما يريده. بقيمة الكارت أو تزود.

فكرت ماذا أشتري له لم يكن هدفي الولد، فغرضي التعرف على جدته، فاشتريت له مجموعة قصص العهد الجديد بالفرنسية.

ورأيت جدة فادي، ارتج قلبي، رأيت نجاة تسند ذراعيها على المنضدة، تعلقت بوجهها، هي نجاة، لكن أكبر سنا، تهدل قليل في خطي الابتسامة، انتفاخ في العينين، تغيرات طفيفة، قصرت تسريحة شعرها، ظلت عيناي معلقتين بعينيها، وعندما تصافحنا لم أستطع ترك يدها، بشكل اضطررت للاعتذار عنه، جلست على الكرسي المواجه لها، قدمت لي طبقا ورقيا: تفضل التورتة.

لم تكف عن الكلام والضحك، حيويتها مغوية، لكنها ليست نجاة، وإلا ما أكملت حياتها، حكت عن عملها في الميرديديو، سألت عن أصولها، قالت من الظاهر، تمت بصلة قرابة للأب «حبيب جرجس»، مؤسس مدارس الأحد.. لم أرغب في مواصلة الحديث معها، خشيت من انجذابي لها، احتفظت بكل أسئلتي عن نجاة وأصلها، هل كان لها شقيقة توأم تاهت في طفولتهما؟ ما فائدة المعرفة ونجاة نفسها لم تعد موجودة؟ أتذكر مفكرة نجاة، يدفعني الفضول، وأنا ألمح الصفحات التي تمتلئ بالحبر.

- تكتبين قصصا؟

- الفيض قليل.

تغلق «الأجندة»، وتضمها لصدرها.

- هل هي مذكرات؟

- لا مجرد خواطر، أحاسيس، أنا أكتب كي لا أنسى، كي أعرفني.

من يعرفك يا نجاة؟ هل أنت سر أم أنك حقيقة من شدة وضوحها تلتبس عليّ.. بعد خطبتنا استأذنت المأمور أن أصطحبها لتزور جدتي، في طريقنا، مررنا بمقهى من خوص، قطعت نجاة صمتها: ممكن أشرب، وقفت أمام المقهى، أسرعت نحونا غجرية، قدمت لنجاة كوبا من الماء، لم ترفع عينيها عنها، وعندما ردت لها نجاة الكوب، أمسكت بكفها، فزعت نجاة للحظة.

- والنبي يا بيك أقرا كف الست. نهرتها، لكن نجاة نظرت لي: دعها تقرأ.

- كفك مليان قلوب وفرح وخير، أمامك طريق طويل، وعيشة كلها نعمة.

لم تفرح نجاة بما قالته الغجرية، لكن وجهها صار ساهما وامتلأت صفحته بحيرة غائمة، كأنها تستجمع ذكرى بعيدة، أو تصارع أشباحا تشعر بها ولا تراها، أخرجت ريالا أعطيته للغجرية، رفضت الغجرية أن تأخذه، وقبلت كف نجاة وهي تقول لي:

- حافظ عليها وراعها.

سألت نجاة: هل تعرفينها؟

همست ساهمة: لا أستطيع التذكر.

للحظة برق خاطر في نفسي، لكن طريقة نجاة في الكلام، ابتسامتها المرسومة بعفوية، حركاتها المحسوبة برقة آثرة، بشرتها البيضاء التي لم تعرف قيظ الشمس، مسحت أي خاطر بوجود صلة بينها وبين الغجرية التي توارت عن ناظرنا ونحن نكمل الطريق للسراي، لكنها عادت بعد سنوات للظهور، قابلناها في سيرك البالون، ذكرتنا بنفسها وقد اختلفت ملابسها وتحولت لبائعة للمسليات ترتدي إيشاربا صغيرا وفستانا طويلا، واختفت ضفائرها الطويلة، تباسطت نجاة معها حتى أنها احتضنتها وقالت: ابقي زورينا، فيلتنا في المنيل. تعالي اقري الكف لبنتي سلوى.

بدأت الغجرية التي أصبحت دادة سهاد تتردد على البيت، وبعد وفاة نجاة ترجتني أن ترعى سلوى وانتقلت للإقامة معنا. ترفعت أن أسألها عن صلتها بنجاة وهل كانت تعرف أهلها؟

خشيت مما أبعد من السر الذي أخفته عن والدتي وعائلتي، أبعد من الحكاية التي حكاها حماي مأمور مغاغة، عندما وجد نجاة في إحدى قنوات الري

تراها، اخرجت ريالا اعطيته للغجرية، رفضت الغجرية ان تاخذه، وقبلت كف نجاة وهي تقول لي:

- حافظ عليها وراعها.

سألت نجاة: هل تعرفينها؟

همست ساهمة: لا أستطيع التذكر.

للحظة برق خاطر في نفسي، لكن طريقة نجاة في الكلام، ابتسامتها المرسومة بعفوية، حركاتها المحسوبة برقة آثرة، بشرتها البيضاء التي لم تعرف قيظ الشمس، مسحت أي خاطر بوجود صلة بينها وبين الغجرية التي توارت عن ناظرنا ونحن نكمل الطريق للسراي، لكنها عادت بعد سنوات للظهور، قابلناها في سيرك البالون، ذكرتنا بنفسها وقد اختلفت ملابسها وتحولت لبائعة للمسليات ترتدي إيشاربا صغيرا وفستانا طويلا، واختفت ضفائرها الطويلة، تباسطت نجاة معها حتى أنها احتضنتها وقالت: ابقي زورينا، فيلتنا في المنيل. تعالي اقري الكف لبنتي سلوى.

بدأت الغجرية التي أصبحت دادة سهاد تتردد على البيت، وبعد وفاة نجاة ترجتني أن ترعى سلوى وانتقلت للإقامة معنا. ترفعت أن أسألها عن صلتها بنجاة وهل كانت تعرف أهلها؟

خشيت مما أبعد من السر الذي أخفيته عن والدتي وعائلتي، أبعد من الحكاية التي حكاها حماي مأمور مغاغة، عندما وجد نجاة في إحدى قنوات الري فاقدة للوعي، وعندما عاد لها وعيها، ظلت فاقدة للذاكرة، وفاقدة للنطق لفترة، فقام المأمور بتبنيها، وأطلق عليها نجاة، وتقدمت لخطبتها، ولم تعرف والدتي وجدتي عن نجاة سوى ما أردتهما معرفته، خاصة بعد انتقال المأمور من قسم مغاغة إلى قسم حلوان.

يحتاج رافع إلى الانتقال لمستشفى، تواصلت مع مستشفى الشرطة بالعجوزة، ومن موبايله حصلت على رقم ابنه، مهما كانت الخلافات عميقة، فساعة الجد لن يكون لك سوى أهلك لحمك ودمك، تابعت حالته، تم بتر ساقه، وعدته بتوفير ساق صناعية، اندهشت من تقبله لحالته: أنا أخذت عقابي، ربنا العدل لا يعاقب مرتين.

بعد مغادرة رافع وبقائي بمفردي تزايد داخلي شعور بالحنين لنجاة، توق للعودة للمنيا، للكف عن المراوغة، ماذا لديّ لأخسره، ما الذي أخاف من مواجهته. الأوراق تم تسليمها ومرسي تم الحكم عليه بالإعدام، لكنني غير سعيد، شيء من التواطؤ، الخوف، شيء
لا أستطيع مواجهته، دبيب خوف من القادم، كل ما يحدث ضروري، لكنه قد لا يكون الصواب أو الأحسن.. التعديل الدستوري الجديد، لم أتمن حدوثه، لديّ توجس من قدرية الدائرة التي ندور فيها والعودة بعد كل تصحيح للمربع نفسه.

وحدها نجاة بما تملكه من حدس قوي كانت قادرة على زرع الطمأنينة في روحي.. لديّ حنين للتجول في الأرض والأماكن التي مرت بها قبل أن أعرفها. نادرا ما قدت السيارة خلال السنوات الأخيرة، رافع كان يصحبني في كل سفرياتي ومشاويري، تحركت في طريقي للمنيا، عند مغاغة، أخذت طريقا جانبيا للوصول لدير الأنباء صمويل المعترف، في هذه المنطقة وجد المأمور نجاة، بماذا أمني نفسي، كأني أتنسم رائحتها، أحاول التقرب منها، قد أنجح في التواصل مع طيفها، أحسن مما فعلت في حضورها المادي.

على بوابة الدير سألت عن الأنبا باسيليوس أمين الدير، قادني شاب مكرس لمكتب الأنبا، استقبلني كعادته بالأحضان، كثيرا ما حضرت احتفالات أعياد الميلاد، وأعياد القيامة، وشعرت كيف كانت تزيد الفرحة مع حضور الرئيس.

لم أره منذ ترهبن وترك العالم، تزاملنا في الجزويت وبعدها درس الهندسة في جامعة الإسكندرية، وعمل فترة في الفيوم، لم يخسر روح زميلي سامي ملاك ميخائيل أسأله: الهندسة ولا الدير؟

فيجيب ضاحكا: التمرحنة.

- الغداء معي اليوم، عندي طقس عمادة طفل وعائلته موجودة، جاءوا من سوهاج.

- موافق، بعدها أتحرك على طول.

ضغط على ذراعي:

- أريد أن أتكلم معك، تحب تنتظرني هنا أم تحضر طقس التعميد؟

- أحضر طبعا.

دخلت كنيسة الدير، وقفت أمام صورة العذراء، أضأت شمعة من أجل نجاة أشعر بها تتكثف رائحتها، مزيج من الفانيليا الحلوة والليليام الغامض، تحيط بي كما كانت تفعل عندما أعود محملا بإرهاق وغضب وسخط من التحقيقات ولعبة القط والفأر، الضغط والإجهاد الذي يحتاج لغسيل الروح، كانت طيبتها هي المعادل لشرور العالم، الكل مدان، ولا شيء خالص؛ المتهمين والمحققين، الآثام والكذب، التواطؤ من أجل البقاء.

صارحني الأنبا باسيليوس: نحتاج تأمينات زيادة.

فيجيب ضاحكا: التمرحنة.

- الغداء معي اليوم، عندي طقس عمادة طفل وعائلته موجودة، جاءوا من سوهاج.

- موافق، بعدها أتحرك على طول.

ضغط على ذراعي:

- أريد أن أتكلم معك، تحب تنتظرني هنا أم تحضر طقس التعميد؟

- أحضر طبعا.

دخلت كنيسة الدير، وقفت أمام صورة العذراء، أضأت شمعة من أجل نجاة أشعر بها تتكثف رائحتها، مزيج من الفانيليا الحلوة والليليام الغامض، تحيط بي كما كانت تفعل عندما أعود محملا بإرهاق وغضب وسخط من التحقيقات ولعبة القط والفأر، الضغط والإجهاد الذي يحتاج لغسيل الروح، كانت طيبتها هي المعادل لشرور العالم، الكل مدان، ولا شيء خالص؛ المتهمين والمحققين، الآثام والكذب، التواطؤ من أجل البقاء.

صارحني الأنبا باسيليوس: نحتاج تأمينات زيادة.

- سأبلغهم، ربنا يسلم أعرف ما تعرضت له الأديرة والكنائس من اعتداءات، الوضع صعب، والداخلية تبذل أقصى جهدها، ربنا يسهل.

لا مفر من المشاكل، خرجت من الدير، تعطلت السيارة، لم أخبر أحدا أني سافرت.

في أثناء انتظاري خرجت العائلة التي تم تعميد طفلها، رآني والد الطفل، تقدم للسلام عليّ.

- يا باشا أنت نورتنا، وتشرفيك تعميد مينا على رأسنا.

شعرت بالحرج من بساطة الرجل وفرحته، نزلت من السيارة، وسلمت عليه وباركت له .

نظر إلى السيارة، لا بد من تغيير العجلة لم يكن لديّ «استبن».

- إذا حضرتك تحب تركب معنا حتى أول الطريق، أو نوصلك للسرايا.

وقفت حائرا، خرجت مجموعة أخرى من زوار الدير وتوجهت لأتوبيسها.

همس: تفضل، حصلت لنا البركة.

جلست في الكرسى الأمامي، شكرتهم.

- يا باشا حضرتك فخر لينا، عائلة شهاب كابر عن كابر.

أخذت النساء تزغرد وتحتفي بالطفل الذي تم تعميده، أخرجت من محفظتي ألف جنيه.

- نقوط المقدس الصغير.

- لا يصح يا باشا. رفضت الأم، لكن زوجها نهرها: يا بنت الأصول، يد الباشا ما تترد.

فجأة انحرفت السيارة، سقطت النقود من يدي وسمعت صوت انفجار العجلات، اصطدم شيء بخدي، تعالت طلقات رصاص، تحسست خدي، سائل دافئ.. أنظر لكفي.. لون أحمر.. نقترب من الجبل، يطبق الظل على السيارة، أندفع نحو القلب الصلد، تبتلعني دوامات ألوانه النحاسية والزرقاء والخضراء، أتوه في المرج الأخضر، وحمامة بيضاء تجلس على مقدمة السيارة المقلوبة. طلقة ثانية، جاءت نجاة: جئت من أجلك، ابتسمت: أعرف. مدت يدها، اختفى ذهولي، وأسلمت لها روحي.

والخضراء، أتوه في المرج الأخضر، وحمامة بيضاء تجلس على مقدمة السيارة المقلوبة. طلقة ثانية، جاءت نجاة: جئت من أجلك، ابتسمت: أعرف. مدت يدها، اختفى ذهولي، وأسلمت لها روحي.

سلوى

مات أبي..

دوامة من حيرة وأسئلة بلا أجوبة، أين مات؟ تسلمنا جثته من مشرحة المنيا، حكوا لنا أن السيارة انقلبت في الطريق لمغاغة، لكني لمحت ثقبا في خد أبي، هذه ليست كدمات أو جروح بسبب انقلاب السيارة، الإجراءات السريعة لدفنه في مقابر شهاب الدين، والعزاء الذي تم في المنيا، وبعده العودة والعزاء في عمر مكرم، لم تمنحني فرصة للتفكير فيما حدث.

والآن.. أزاحت الدوامة كل الحواجز التي تمركزت خلفها، كي
لا أواجه ذاتي..

عارية.. وجدت نفسي في مواجهة مرآتي، انهارت كل أسبابي، تلاشت كل العلل التي تحججت بها كي أتغافل عن الأصوات التي تملأ رأسي، الصور والحكايات البعيدة عن أبي، أمي..

صور غائمة تنفجر في رأسي فجأة.. دادة سهاد وهي جالسة على حافة سريري، تمسك صورة أمي، تحكي حكايات غير مترابطة، عن رضيعة وجدتها بحوار دير صوتها الخافت المخنوق بالدموع كنت أحتاج النهار وجاءت في الوقت المناسب تماما، رأيتها عطية، هبة، منة من السماء،

سلوى

مات أبي..

دوامة من حيرة وأسئلة بلا أجوبة، أين مات؟ تسلمنا جثته من مشرحة المنيا، حكوا لنا أن السيارة انقلبت في الطريق لمغاغة، لكني لمحت ثقبا في خد أبي، هذه ليست كدمات أو جروح بسبب انقلاب السيارة، الإجراءات السريعة لدفنه في مقابر شهاب الدين، والعزاء الذي تم في المنيا، وبعده العودة والعزاء في عمر مكرم، لم تمنحني فرصة للتفكير فيما حدث.

والآن.. أزاحت الدوامة كل الحواجز التي تمركزت خلفها، كي
لا أواجه ذاتي..

عارية.. وجدت نفسي في مواجهة مرآتي، انهارت كل أسبابي، تلاشت كل العلل التي تحججت بها كي أتغافل عن الأصوات التي تملأ رأسي، الصور والحكايات البعيدة عن أبي، أمي..

صور غائمة تنفجر في رأسي فجأة.. دادة سهاد وهي جالسة على حافة سريري، تمسك صورة أمي، تحكي حكايات غير مترابطة، عن رضيعة وجدتها بجوار دير.. صوتها الخافت المخنوق بالدموع: كنت أحتاج إليها، وجاءت في الوقت المناسب تماما، رأيتها عطية، هبة، منة من السماء، أرضعتها ولم أجعلها تبتعد عن عيني، تمسكت بها كحبل نجاة لغريق فأسميتها نجاة.

أسألها: كاسم ماما؟

فتنتبه: ماما ست الأميرات.

في ليلة أخرى تحكي عن ابنتها التي فقدتها: كان نفسي تبقى دكتورة، سفيرة، وزيرة، عبد الناصر عين وزيرة، وابنتي ذكية وجميلة، لكنها قليلة الكلام.. وفجأة اختفت.. غابت عني يومين كدت أفقد عقلي.. انفض مولد العدرا في جبل الطير، ولم تظهر. أخذت أبحث عنها.. قلت لزوجي لن أترك المنيا، بقيت عاما، عامين.. أقمت نصبة للشاي على الطريق العمومي، استمررت في التفتيش عنها، في صمت أتطلع في الوجوه، وأدخل البيوت لعلها تكون خلف أحد الأبواب، أقرأ الطالع، والودع، أتسمع لحكايات النساء.. النميمة، الهمسات، الغمزات، أغزل حكايات عن الفقد والغياب، حكايات أسترجعها من الذاكرة.. لعلي أسمع أي خبر عنها.

لم أسألها هل سمعت خبرا عن ابنتها؟ والأهم لم أسألها من ابنتها؟ خشيت من تزايد تقاربي منها، من تحذير عمتي هند لوالدي: معقول تترك بنتك الوحيدة تربيها واحدة لا نعرف لها أصل ولا فصل!

وهي أيضا حرصت على ألا تفرض وجودها في البيت، ونسيت حكاياتها، لكنها استردتها مع ميلاد أروى، وبعد أن عدت بها للبيت بعد طلاقي، حاولت أن تحكي للصغيرة عن الأميرة نجاة، لكن أروى كانت تضع يدها على فمها وتقول لها أنا سأحكي لك.

اختفت كل الحكايات، ولكن بقي أثرها، إحساس دائم بالطفو في الهواء، بعدم التوازن، بأن هناك ما خلف غلالة رقيقة من الضباب، أن هناك ما يمكن لأحد أن يهددك أو يبتزك به.

فتحنا وصية أبي، كان واضحا وحاسما وصريحا: لديكم رخصة جمعية أهلية، أريد إقامة دار رعاية مجانية للأطفال.. يتم تحويل الدور الأرضي لمكتبة عامة للقراءة، دار عرض سينمائي، دروس مبسطة عن العلوم، أهمية العلم، تعليم الاتيكيت، يتم اختيار أعمار متنوعة، ومن أطفال حي المنيل، ثم تتوسعون في الأحياء المجاورة، السيدة زينب، عين الصيرة، الجيزة، تعليم الرسم، التاريخ..

سيكون المشروع مقتصرا على أفراد العائلة؛ سلوى، هند، شريف، أروى، فادي. وسلوى هي المدير المسئول.

لماذا يحملني أبي هذه المسئولية؟ هل قابل إنسانا تغير؟ إنسانا أثرت فيه دروس التنمية البشرية؟ خلال سنوات عمري لم أقابل إلا نماذج جامدة تشكلت تماما في ميوعتها وصلابتها، تشغل مكانها في الجدول الدوري للعناصر دون تأثير أو تأثر لا أحد يتغير.. الفلزات، اللا فلزات، العناصر الخاملة والعناصر النبيلة. حتى الذين يتغيرون يكونون في طور التكوين.. الأطفال يتحولون لمراهقين أسوأ
لا يسمعون النصيحة، ولا يستجيبون للتوجيه. الشرير الذي يتحول إلى طيب أو الطيب الذي يتحول إلى شرير في الأفلام فحسب.

ولأنني أعرف هذه الحقيقة.. لم تغرني الصلابة التي غلفتني، ما إن تنجرح القشرة حتى تظهر الحقيقة الرخوة..

الأرض التي تهتز تحت قدميك..

تمور الأرض بما يختلجها..

تريد أن تعبر عن سرها..

لا أحد يرى ما في عمقها..

سيكون المشروع مقتصرا على أفراد العائلة؛ سلوى، هند، شريف، أروى، فادي. وسلوى هي المدير المسئول.

لماذا يحملني أبي هذه المسئولية؟ هل قابل إنسانا تغير؟ إنسانا أثرت فيه دروس التنمية البشرية؟ خلال سنوات عمري لم أقابل إلا نماذج جامدة تشكلت تماما في ميوعتها وصلابتها، تشغل مكانها في الجدول الدوري للعناصر دون تأثير أو تأثر لا أحد يتغير.. الفلزات، اللا فلزات، العناصر الخاملة والعناصر النبيلة. حتى الذين يتغيرون يكونون في طور التكوين.. الأطفال يتحولون لمراهقين أسوأ
لا يسمعون النصيحة، ولا يستجيبون للتوجيه. الشرير الذي يتحول إلى طيب أو الطيب الذي يتحول إلى شرير في الأفلام فحسب.

ولأنني أعرف هذه الحقيقة.. لم تغرني الصلابة التي غلفتني، ما إن تنجرح القشرة حتى تظهر الحقيقة الرخوة..

الأرض التي تهتز تحت قدميك..

تمور الأرض بما يختلجها..

تريد أن تعبر عن سرها..

لا أحد يرى ما في عمقها..

اللهيب والجحيم..

مرت سنوات طويلة منذ رحلت بعيدا عن زوجي السابق، ولكن الحقيقة الصادمة أنني رحلت جسديا، تحررت فيزيقيا، لكن طوال هذه السنوات ظللت أسيرة توابع هذه الحالة.. رفضت كل محاولات التقرب مني، أية إشارة لاهتمام أو حب من رجل أرفضها، أتغابى ولا أستجيب لها خوفا من فقداني لحضانة طفلتي، خضعت لابتزاز شريف ولم أفرض عليه أن يأتي ليعيش معي.

إحساسي بالذنب ظل عقدة لم أستطع الفكاك منها، في الظاهر حصلت على حريتي، رفضت الرجوع له وتابعت تطوري على المستوى الوظيفي، لكن على المستوى الإنساني ما زلت خائفة، أرتجف، إن عبر لي أحدهم عن إعجابه، وظللت أدور في فلك طفليَّ، علاقتي بشريف محددة، لم تستطع الأيام تغييرها، أما علاقتي بأروى فهي التي أضافت مزيدا من الأثقال لروحي.

كان لعلاقتي بسامر أن تنتهي مثل غيرها من علاقاتي السابقة لولا أنه لم يعرفني جيدا.. هم عرفوا حقيقتي، هم أحبوني، حينها أدركوا أن حقيقتي ستؤذي حقيقتهم، كانوا نبلاء وكانوا يرون نقاط ضعفهم وخطاياهم، في مرآتي الضخمة ويتردد صداها في فراغ نقائي، كنا نخاف عليك من طيبتك من حنانك الزائد، من غفلة لا تناسب هذا الوقت.. لكنه لم يكن يراني أو الأهم أنه لم يكن يرى نفسه في مرآة الآخر، فكان -بالنسبة لنفسه- كائنا أسطوريا مثاليا، لا يعرف غير صورته المثالية الظاهرية أمام المرآة التي تشغل الجانب الأيمن من الطرقة المؤدية لباب الشقة ولولا أنني كنت قد تغيرت وأصبحت مشوشة ومشوهة بدرجة تجعل كل ما أقوم به آليًا بلا روح، لفررت من عالمه أسرع.

الخذلان الذي يواجهك، الذي يصدمك تلتقيه أكثر من مرة بأكثر من وجه. يأتيك الخذلان، من بين أضلعك، لا أحد يخذلك خارجك.

أنضم لجلسات تأمل ينظمها النادي لهواة اليوجا.. نجلس في دائرة نمرر عصا الكلام فيما بيننا ويتحدث كل منا في دوره، يصغي واحدنا لكل شخص، تناسب من الذاكرة وقائع لا يمكن أن تروى، نكتشف كم أن الألم مشترك، وكل ما مررنا به، مر آخرون به، أن طرق الألم والجراح عديدة، الفضفضة، الحقيقة، الوحش الذي نتغافل عنه، نحاول ترويضه، نغمض أعيننا كي لا يرانا، نتعلم أن نفتح أعيننا ومسامنا وأن ندقق في خوفنا ونصرخ في وجهه حتى ينكمش ويختفي. الغضب والاستياء مرحلة ونعبر للنضج، لن يخبرنا أحد ماذا نفعل، لكننا سنتغير، التغيير يبدأ منا، من الجذور.

أنفتح على جراحي، أستطيع أن أحكيها، أحكي بعضها دون أن أبكي، أن أنهار، أن أخجل، هذه السيدة.. أنا كنتها، لكنها ليست هنا الآن، أعقد تحالفات مع صديقات، جديدات أجدد طاقتي، نستفيد من التكنولوجيا الجديدة.. جلسات التأمل تتم مع أصدقاء من مختلف دول العالم؛ الهند، أمريكا، ألمانيا، من مدن عديدة.. أعاود الاتصال بيولند، أحاول أن أستعيد صداقة وعشرة.. جلسات الشاي في جروبي على بعد خطوات من بيتها.. حكاياتي لها عن المدن التي حلمت بأن أسكنها وأن أعيش فيها.

مع كل لقاء تعارف، مع كل وعد بزواج، مع كل خطوبة، تظهر مدينة جديدة، سكنتني مدن كثيرة، أبحث عنها في الخرائط على جوجل، أحفظ أسماء شوارعها، ميادينها، أعرف مناخها، درجات الحرارة فيها صيفا أو شتاء، اشتريت ملابسها، مدن أصابتني بالدهشة ومدن أصابتني بالخيبة.. من أجل نيويورك، عرفت أسماء أحيائها الستة، حاولت أن أتغلب على برودة أطرافي، اشتريت الكثير من الشرابات الصوف، عليك أن تهتم بأطرافك، لأنه ويبدو وكما هو الحال مع الأوطان والبلاد فأطراف الإنسان في العالم الجليدي هي نقطة ضعفه التي يمكن للبرودة أن تهاجمك منها، الحدود، كل ما له تماس مع ما تخشى وما تحمي نفسك منه، عليك التعامل معه بحذر شديد، ودون استهانة، لا تسمح للتسريبات، للأنفاق، لا تسمح بالخذلان أن يمس قدميك، لا يكفي شراب صوفي واحد فليكن اثنين، ثلاثة، كلما كانت نقاطك وأطرافك حصينة فشل البرد أن يغزوك.

أعلم أنه سيتاح لي وقت كي أشتري كل ما أحتاج لكني اشتريتها كي أكون مستعدة، من أجل طوخ اشتريت عشرات الهدايا الصغيرة لفتيات ونساء

أنفتح على جراحي، أستطيع أن أحكيها، أحكي بعضها دون أن أبكي، أن أنهار، أن أخجل، هذه السيدة.. أنا كنتها، لكنها ليست هنا الان، أعقد تحالفات مع صديقات، جديدات أجدد طاقتي، نستفيد من التكنولوجيا الجديدة.. جلسات التأمل تتم مع أصدقاء من مختلف دول العالم؛ الهند، أمريكا، ألمانيا، من مدن عديدة.. أعاود الاتصال بيولند، أحاول أن أستعيد صداقة وعشرة.. جلسات الشاي في جروبي على بعد خطوات من بيتها.. حكاياتي لها عن المدن التي حلمت بأن أسكنها وأن أعيش فيها.

مع كل لقاء تعارف، مع كل وعد بزواج، مع كل خطوبة، تظهر مدينة جديدة، سكنتني مدن كثيرة، أبحث عنها في الخرائط على جوجل، أحفظ أسماء شوارعها، ميادينها، أعرف مناخها، درجات الحرارة فيها صيفا أو شتاء، اشتريت ملابسها، مدن أصابتني بالدهشة ومدن أصابتني بالخيبة.. من أجل نيويورك، عرفت أسماء أحيائها الستة، حاولت أن أتغلب على برودة أطرافي، اشتريت الكثير من الشرابات الصوف، عليك أن تهتم بأطرافك، لأنه ويبدو وكما هو الحال مع الأوطان والبلاد فأطراف الإنسان في العالم الجليدي هي نقطة ضعفه التي يمكن للبرودة أن تهاجمك منها، الحدود، كل ما له تماس مع ما تخشى وما تحمي نفسك منه، عليك التعامل معه بحذر شديد، ودون استهانة، لا تسمح للتسريبات، للأنفاق، لا تسمح بالخذلان أن يمس قدميك، لا يكفي شراب صوفي واحد فليكن اثنين، ثلاثة، كلما كانت نقاطك وأطرافك حصينة فشل البرد أن يغزوك.

أعلم أنه سيتاح لي وقت كي أشتري كل ما أحتاج لكني اشتريتها كي أكون مستعدة، من أجل طوخ اشتريت عشرات الهدايا الصغيرة لفتيات ونساء تعهدت أن أعلمهن القراءة والكتابة، وأخريات تعهدت بأن أعلمهن إعطاء الحقن، من أجل لندن.. استسغت السمك المقلي مع البطاطس.

استجمعت روائح المدن، روائح اليود والتراب والعوادم وزهر الليمون، لكني لم أسكن أي مدينة، ولم أغادر في حياتي منطقة المنيل، المدن تتغير أسرع مما يتغير أهلها، أدركت كم تغيرت مدينتي، بل كم تغير العالم عندما رأيت فرعا لمحلات التوحيد والنور في شارع القلعة.

تستوعب يولند رغم مثاليتها وانضباطها دهشتي وأنا أحكي لها ما لم أتصور رؤيته أبدا؛ فرع للتوحيد والنور في قلب المهندسين.. في شارع البطل أحمد عبد العزيز، هو نفسه بتصميمه الشعبي الرخيص وأدواره الخمسة، بعماله القرويين وقمصانهم الرمادية مع البنطلونات الزرقاء.. وصنادلهم الصيفية، وزبيبة الصلاة.. مستعمرة للعبيد القادمين من الدلتا، يوفر لهم صاحب المحلات النوم في أماكن مجمعة، ويسافرون لذويهم كل أسبوع، يظل محلا شعبيا نخشى شبهة الوقوف أمامه، كيف يستطيع السرطان أن ينتشر بهذه السرعة في الجسد؟ لن يصبح محلا راقيا مهما فتح له أفرعا في المعادي أو مصر الجديدة سيظل بهرجة رخيصة مثل وردة حمراء تضعها شابة قروية على فستان سواريه.

تتلقى يولند محاولاتي بصلابة متعمدة، تأبى أن تعود تلقائيتنا، دائما هناك فقد وخسارة، أفتقد براءتها وعفويتها وهي تحكي عن الحب الوحيد في حياتها، الشاب الذي تمنت أن يراها حبيبة، وانخدعت بالقميص والبنطلون وكلية الهندسة والسفر لكندا.. كأنه سافر من أجلي حتى أنهي دراستي الجامعية، لم أر مسوح الرهبنة وقد التصقت بجلده لكنه كرس نفسه لخدمة الرب، وأنا بالنسبة له واحدة من الرعية، نشترك في قرابة باعدت بينها أجيال فيشرح دروس الماث، باطل كل ما فعلت.. ما كان شيئا خالصا، كل خطواتي لخفية في نفسي، سافر، لم يرسل خطابا واحدا لى وهو يحضر الدكتوراه، أنا فحسب من كان ينتظر وأتلقط أخباره من عائلته.

- هل ترينه في أي قداس؟

- بحثت عنه، لم أره منذ وجدته على باب بيتنا يسأل أمي عني ويخبرها بنتيجتى في الثانوية 88%، بعد كل هذه السنين، ما زلت أتذكر ابتسامته صوته وهو يقول مبرووك يا بشمهندسة.

- هل دخلت كلية الهندسة؟

- نعم.

- من أجله؟

- نعم.

- والتدريس؟

- بعد معرفتي برهبانيته، في الصف الأول ساءت حالتي النفسية، لم أستطع إكمال الدراسة، حولت لكلية الآداب، قسم فرنسية.. وبعد التخرج اشتغلت في الميرديديو.

- والدكتور أسعد؟

تسترد تماسكها: أحسن إنسان في الدنيا، ربنا كرمني به، عماد مجرد حكاية من حكايات البنات.

كم أغبط يولند على تصالحها مع نفسها وأتمنى أن تعود مودتنا، توقعت أن ترفض زواج أروى وفادي، وقد أبلغتها بعدم موافقتي، لكن طلب أروى مباركتي وإصرارها عليه جاء في وقت كنت أحاول أن أحسن علاقتي بابنتي، بدت أروى قبلها بشهور وكأنها تخلصت من سنوات مراهقة أرهقتها وأرهقتنى، ولم أكن أستطيع تحمل مزيد من الشد والجذب، وفى محيطنا حدث أكثر من زواج بين مسلمة وأجنبى، يشهر إسلامه رسميا، لكن لا أحد

- ســم.

- من أجله؟

- نعم.

- والتدريس؟

- بعد معرفتي برهبانيته، في الصف الأول ساءت حالتي النفسية، لم أستطع إكمال الدراسة، حولت لكلية الآداب، قسم فرنسية.. وبعد التخرج اشتغلت في الميرديديو.

- والدكتور أسعد؟

تسترد تماسكها: أحسن إنسان في الدنيا، ربنا كرمني به، عماد مجرد حكاية من حكايات البنات.

كم أغبط يولند على تصالحها مع نفسها وأتمنى أن تعود مودتنا، توقعت أن ترفض زواج أروى وفادي، وقد أبلغتها بعدم موافقتي، لكن طلب أروى مباركتي وإصرارها عليه جاء في وقت كنت أحاول أن أحسن علاقتي بابنتي، بدت أروى قبلها بشهور وكأنها تخلصت من سنوات مراهقة أرهقتها وأرهقتني، ولم أكن أستطيع تحمل مزيد من الشد والجذب، وفي محيطنا حدث أكثر من زواج بين مسلمة وأجنبي، يشهر إسلامه رسميا، لكن لا أحد يكشف عما في الصدور.

أريد أن أقوم بدور إيجابي، أحتاج أن أحسن صورتي، أنا على استعداد لبذل أي جهد نفسي وبدني من أجل أن يراني أحد، من أجل أن يقدرني أحد، من أجل أن يتمنى أحد أن يكون مثلي، أن يتمنى أن تكون ابنته، زوجته، حبيبته مثلي.. من أجل أن يشعر بي شخص ليس قريبا مني، فيما مضى كنت أقوم بهذا الجهد وأفعل كل ما يطلبه مني الآخرون وأحاول دائما إرضاءهم دون أن أدرك لماذا أفعل ذلك.. الآن أنا أعرف؛ أتمنى أن يحبني ويتمناني أحد.. أبحث طوال الوقت عن مرآة تراني.

أدركت هذا الاحتياج.. كنا نجلس في فندق طابا ستراييند، تجمعت غربان أخذت تطوف قريبا منا، أخذت قطعة خبز، وبدأت في تفتيتها على منضدة خالية، أخذت الغربان، تتجمع وتلتقط الخبز المفتت، حتى الغربان يمكنني أن أطعمها، أخذ العاملون في المطعم يصرخون في الغربان كي تبعد، وقالوا إن شجعتها فسوف تهاجمنا شخصيا، ولن تكتفي بالطعام، هززت رأسي، لا شيء تبقى لأثبته، ولم يتبقَّ إلا القليل لأخسره، فما عدتُّ أتحلى بروح المجادلة تجاه أي شيء، فقط صرت أقل خوفا. وأفعل عندما يكون الصمت أكثر أمانا، كما صرت أتعلم كيف أتعامل مع إرهاقي، يمكنني أن أتصالح مع جسدي ولا أعتبرها خيانة، أعتبره تحذيرا، نذيرا وعليّ أن أستفيد من هذا الألم البسيط وأتعامل معه ولا أتركه يتراكم بتجاهلي له.. التجاهل، اللا مبالاة، النسيان الظلام الذي ننزلق فيه، لكن في كل الأحوال علينا أن نحمل مشعلنا وننتبه لكل علامة وإشارة.

بعد وفاة أبي، أشعر بيتم أروى، ليتني أستطيع أن أتصل بها وأخبرها أني معها في أي قرار تتخذه. وأنها ستظل حبيبتي وأن رباطنا لا ينفصم معنويا أو جسديا، زاد تباعدنا بعد معرفتي بتعلقها بالداعية الذي تنتج برنامجه.

- ما المشترك بينكما؟

- لا أستطيع الكف عن التفكير فيه، إنه إنسان رائع لم يعرفه أحد إلا أحبه.

- ما هذه المراهقة؟ وهو؟

- مبهووووور.

- هو مبهور بما يسمعه منك، أو أنت مبهورة بالعالم الذي لم تعرفيه، ما بينكما تجاذب حالتين متباعدتين.

- لا تعرفين كيف يعامل زوجته؟ وكيف يتكلم عنها؟

- آه، وأنت تريدين أن يعاملك مثلها ويتكلم عنك مثلها؟ أم تريدين شرخ هذه الصورة فحسب؟

لم تجب، لكنها أصبحت تتحاشى الاتصال بي، أو الجلوس بمفردنا، بدأت أروى المراهقة مبكرا، انفصلت عني بقطيعة غير مفهومة. استقلاليتها وخروجها عن المتوقع وإظهارها لعدم الحاجة للحب أو العطف أو النصيحة، يضخم افتقادي للحب، لم يمت احتياجي القديم للحب، ولكن الاحتياجات تم ضبطها، بمنطق برجماتي، عليّ أن أعتمد على نفسي، كل ارتباط هو تنازل عن جزء من نفسي لآخر قد يقدرها أو لا.

اقتربت على الخمسين، ما هو متاح أمامي علاقات عابرة، رجال متزوجون، من تبدو ظروفه مناسبة للارتباط، لديه أولاد يحتاجون لتربية وتوجيه، ليست لديّ هذه الطاقة، تم استنزافي، ربما في مرحلة تالية، عدت لمرحلة الارتباطات المتعددة، دون حزن أو بكاء أو ندم سأفعل فقط ما يرضيني، أحتاج لزوج تفصيل، مرح، حنون، ليس لديه أولاد، أرمل أو مطلق أو أولاده متزوجون، يرسلون صورهم وبياناتهم، أتسلى بها، أن يكون لك حق الاختيار، سلطة الاختيار، الحب تتغير أشكاله وصوره، أفتح صفحة على فيس بوك بعنوان حياتي أتلقى عليها كمّا كبيرا من المشاكل والتعليقات، أدرب نفسي على الحكمة والرد دون العاقلة

- هو مبهور بما يسمعه منك، أو أنت مبهورة بالعالم الذي لم تعرفيه، ما بينكما تجاذب حالتين متباعدتين.

- لا تعرفين كيف يعامل زوجته؟ وكيف يتكلم عنها؟

- آه، وأنت تريدين أن يعاملك مثلها ويتكلم عنك مثلها؟ أم تريدين شرخ هذه الصورة فحسب؟

لم تجب، لكنها أصبحت تتحاشى الاتصال بي، أو الجلوس بمفردنا، بدأت أروى المراهقة مبكرا، انفصلت عني بقطيعة غير مفهومة. استقلاليتها وخروجها عن المتوقع وإظهارها لعدم الحاجة للحب أو العطف أو النصيحة، يضخم افتقادي للحب، لم يمت احتياجي القديم للحب، ولكن الاحتياجات تم ضبطها، بمنطق برجماتي، عليّ أن أعتمد على نفسي، كل ارتباط هو تنازل عن جزء من نفسي لآخر قد يقدرها أو لا.

اقتربت على الخمسين، ما هو متاح أمامي علاقات عابرة، رجال متزوجون، من تبدو ظروفه مناسبة للارتباط، لديه أولاد يحتاجون لتربية وتوجيه، ليست لديّ هذه الطاقة، تم استنزافي، ربما في مرحلة تالية، عدت لمرحلة الارتباطات المتعددة، دون حزن أو بكاء أو ندم سأفعل فقط ما يرضيني، أحتاج لزوج تفصيل، مرح، حنون، ليس لديه أولاد، أرمل أو مطلق أو أولاده متزوجون، يرسلون صورهم وبياناتهم، أتسلى بها، أن يكون لك حق الاختيار، سلطة الاختيار، الحب تتغير أشكاله وصوره، أفتح صفحة على فيس بوك بعنوان حياتي أتلقى عليها كمّا كبيرا من المشاكل والتعليقات، أدرب نفسي على الحكمة والردود العاقلة.

القسوة تولد لديك نوعا من النفور، جزء في عقلك يتعطل، وهذا ما أصابني، عطب أصاب استجابتي الجنسية، فلم تعد ملحة، وتراكم التفاصيل حال بيني وبين رؤية أحد، أنا مثقلة، ما زلت أحتاج إلى أن أحنو على نفسي.

حالة من التواطؤ الكبير أعيشها، من في سني من الرجال منهكون، يحملون على أكتافهم بيتا وأسرة، وعائلة والشاب الذي يحاول التودد مني تكون أغراضه مفضوحة، وأنا قد تم استغلالي بما يكفي.

لديّ عدد كبير من الأصدقاء، الرفاق في مجال السياحة والآثار، سنوات التردد الطويلة قد تجعلك متهورا في الحسم. أقرأ «لفان فابريه»:

«أنا لا أرسم شجرة..

أنا أصبحت شجرة..

جلدي لحاء..

حفيف الأوراق على ذراعيّ اللذين أصبحا غصنين..

قدماي الجذور التي تشبثت بقوة بالأرض الباردة..

من أجل تقوية إعصار المتعة..

تحت شجرتي التي تمنح الأوكسجين..

أصبحت أنا آدم وحواء».

نظمت شركة سامر دعوة لزيارة ما وراء السد، جلسنا على مائدة واحدة، لم يكن هناك شيء، لا أسى، لا حزن، لا غضب، جاء محاولا التودد لي، لم أنفر منه، لم أرتجف اشمئزازا وقرفا ورعبا.

باغته: ما الذي ستقدمه لي؟

لم يرد.

ابتسمت: نصف الشركة باسمي، فيلا في التجمع الأول، شبكة مليون كاش، مؤخر صداق: 1000 جنيه.

نظر لي باندهاش: تغيرت!

ضحكت بصوت عال: جدا.

سألني: هل تتعلمين الغوص؟

- لم لا؟ أريد تعلم الغوص، نعم يمكنني ذلك.

- متى نبدأ؟

- بعد انتهاء رقصة «الصلصا».

أستخرج الاشتراك الذي حجزه أبي لي.. وبخطه المنمق أجده كتب لي: اخرجي، امرحي، تحركي، حاولي إعادة ترتيب عالمك.

[illegible]

لم يرد.

ابتسمت: نصف الشركة باسمي، فيلا في التجمع الأول، شبكة مليون كاش، مؤخر صداق: 1000 جنيه.

نظر لي باندهاش: تغيرت!

ضحكت بصوت عال: جدا.

سألني: هل تتعلمين الغوص؟

- لم لا؟ أريد تعلم الغوص، نعم يمكنني ذلك.

- متى نبدأ؟

- بعد انتهاء رقصة «الصلصا».

أستخرج الاشتراك الذي حجزه أبي لي.. وبخطه المنمق أجده كتب لي: اخرجي، امرحي، تحركي، حاولي إعادة ترتيب عالمك.

أروى

أي دافع يحرك التنين القابع في كهفه محاطا بالأمان، أن يخرج رأسه كي ينفث من ناره بعض ألعابه البهلوانية، فيهرب المارة فزعا، عدا الصغار الذين يدركون حقيقة الأشياء قبل أسمائها، وحده التنين يعرف من أين تستولد النار، كيف لكائن أن يبتلع الشمس ذات مساء، كيف يحتملها في جوفه؟

في قديم الزمان حينما كان هناك زوجان من كل شيء، عندما كان الكون مرآة، فكان كلٌّ يرى نفسه في الآخر رجلان وامرأتان، قمران، نهاران، وبقرتان وحصانان وكان الكل مكتمل حد الاكتفاء.

وكان من يدرك حقيقة التنين، الجالس في كهفه مستكفيا بحاله، يأتيه صوت أم كلثوم حاملا التساؤل الحائر دوما والذي يظل معلقا ولا يستقر على أرصفة الطرقات أو يجلس متئدا على كراسي المقاهي أين من عيني حبيب، فيه عز وجلال وحياء؟ فينفث لهيبا يخفف لوعته عمق المسافة ما بين الباطن والظاهر، فيزداد حر أغسطس ويتأخر مقدم الخريف لما بعد نوفمبر.

بوفاة جدي تتأخر كل الأشياء في حياتي ولا يأتي شيء في موعده المناسب، بوفاة جدي تختفي أساطيري، عالمي السحري الذي أنا فيه أميرة كل المرايا تظهر أجمل ما فيّ، بقدر ما كان جدي يعرف حقيقتي، بقدر ما كنت أتجمل من أجله وأحاول أن أحسن صورتي. أجمِّل باطني من أجله، كي يراني أجمل.

أي دافع يحرك التنين القابع في كهفه محاطا بالأمان، أن يخرج رأسه كي ينفث من ناره بعض ألعابه البهلوانية، فيهرب المارة فزعا، عدا الصغار الذين يدركون حقيقة الأشياء قبل أسمائها، وحده التنين يعرف من أين تستولد النار، كيف لكائن أن يبتلع الشمس ذات مساء، كيف يحتملها في جوفه؟

في قديم الزمان حينما كان هناك زوجان من كل شيء، عندما كان الكون مرآة، فكان كلٌّ يرى نفسه في الآخر رجلان وامرأتان، قمران، نهاران، وبقرتان وحصانان وكان الكل مكتمل حد الاكتفاء.

وكان من يدرك حقيقة التنين، الجالس في كهفه مستكفيا بحاله، يأتيه صوت أم كلثوم حاملا التساؤل الحائر دوما والذي يظل معلقا ولا يستقر على أرصفة الطرقات أو يجلس متئدا على كراسي المقاهي أين من عيني حبيب، فيه عز وجلال وحياء؟ فينفث لهيبا يخفف لوعته عمق المسافة ما بين الباطن والظاهر، فيزداد حر أغسطس ويتأخر مقدم الخريف لما بعد نوفمبر.

بوفاة جدي تتأخر كل الأشياء في حياتي ولا يأتي شيء في موعده المناسب، بوفاة جدي تختفي أساطيري، عالمي السحري الذي أنا فيه أميرة كل المرايا تظهر أجمل ما فيّ، بقدر ما كان جدي يعرف حقيقتي، بقدر ما كنت أتجمل من أجله وأحاول أن أحسن صورتي. أجمّل باطني من أجله، كي يراني أجمل.

دون أن أحدد أو أصرح كان جدي هو ترمومتري، حدي الأقصى لتجاوزاتي، لغضبي، لتمردي.. ردود فعل ماما لم تكن المعيار، دائما ما أراها تبالغ، لأنني ابنتها وتريد لي الكمال الأحسن، المثالية التي فشلت الأمهات في تحقيقها لأنفسهن، فيرغبن فيها لبناتهن، لكن جدي كان واقعيا ومتسامحا ورحبا، فإذا أظهر ضيقا أو أبدى انتقادا فيعني ذلك أني وصلت إلى أقصى ما يستطيع أحد أن يحتمل، فأتراجع وأنتبه للخطوط التي تجاوزتها أعدل زاويتي وأتراجع رويدا رويدا..

الآن، تتجسد حقيقتي أمام ذاتي أفقد ترمومتري فتتجدد رغبتي في الرحيل، تحاصرني، تضغط على حواسي، فتجعلني أرغب في الهرب من أصحابي، من العمل، من بيتي، أصبحت أعرف هذه الرغبة، أتحسس مقدماتها، وأعرف أنها سرعان ما ستزول، لو أنني طاوعت رغبتي في الرحيل لانتحرت منذ زمن بعيد.

لا أرض لي، لا انتماء، ولا وطن، أنا أرضي وأنا كل ما لي، لا شيء يربطني بالعالم، كل ما يجمعنا مع آخرين في لحظة معينة.. المصالح والعمل والظروف ليست روابط حقيقية، لكنها صلات، كابلات مرتبطة بأجهزة متنوعة يمكن لي أن أفصلها في لحظة، واستبدلها بوصلات أخرى من مصادر أخرى، مصادر الطاقة متعددة ومتنوعة، وأنا كائن طفيلي، تعتمد حياتي على طاقة الآخرين، أسحبها منهم رويدا رويدا دون أن أدعهم يسقطون في هوة الفناء فيكتشفون الأمر، مصاصة دماء لا تسمح لنهمها بأن يميت ضحاياها فتتسمم هي الأخرى وتتشرب موتهم.. أجد صعوبة في التعامل مع الآخرين في منطقة الندية والمساواة بمجرد أن أستحوذ على انتباهه، اهتمامه يصبح عبئا، أريد إسقاطه عن كتفي، يراني المحيطون لطيفة ودودة، لكني أعرف الحقيقة، ولا أريد لأحد أن يراها، لن أتحمل أن يرى أحد ما أراه من نفسي، شعوري بالخزي، خيبة الأمل، لن أقول الحزن.. أرغب في التخلص من كل هذا، أبحث عن طريق.

دون مقدمات، دون استعداد وبرغبة في الوجود، برغبة في الاستجابة لدافع غير ما أريد.. دخلت في التجربة، كنت أعي أنها تجربة، أطمع أن تصبح جزءا من حقيقتي أن أستطيع أن أمنح نفسي للآخرين، أن أذوب فيهم، دون حسابات.

رأيت الدخان من دوري العاشر، نزلت مسرعة، بين شقتي في قصر العيني ومحطة مصر.. دقائق، لا أعرف المحطة، هذه المرة الأولى لدخولي محطة مصر.. ركبت القطار في جنييف، باريس، روما،
هنا لا أعرف.. أين الرصيف؟ دلتني الرائحة عليه، دلني الجحيم عليه، دلني الموت عليه.

أجري، لا أعرف ماذا أفعل؟ كيف أساعدهم؟ لكنهم يتخبطون يصطدمون بكتفي، فتعلق قطع من جلدهم المهترئ بشعري ويتساقط رماد أجسادهم في طريقي، أضع قدمي موضع أحذيتهم المتفحمة، الحريق الذي طاردهم دفعهم نحوي، الجرار الذي خرج عن القضبان اصطدم بالصدادة الحديدية الموجودة على الرصيف، انفجر تنك الوقود، قنبلة حرارية، اشتعلت النيران في الجرار والعربة الأولى والثانية بالقطار، أتحرك كطفل صغير يعيق المرور، بحركاته المتخبطة.

أتخذ جانبا، أفسح الطريق لمن يقدرون على المساعدة، أحاول أن أستوعب، أو أنتظر أمرا أنفذه دون تفكير.. في ركن من المحطة حيث الجدران من الرخام الأبيض، أسند كتفي للرخام تلسعني السخونة، أنزلق، يحيط السواد بكل شيء، تفحم الرخام، الزجاج، الخشب، البشر، الركاب، العابرون. تتساقط الجثث متفحمة، مستلقية على ظهرها مفتوحة الفم يتيبس الفكان على صرخة أبدية، كل الجثث أذرعها مفرودة باستسلام، لكن الساقين، ساق منثنية وساق مفرودة، لا شيء، لا أمل، لا استسلام، تخبط. كم تعذبت حتى انتهى حريق الأعصاب، كم يحتاج الجسد البشري كي يتفحم؟

القطار الذي انفلت من قضبانه وخرج، اشتعل البنزين، انفجر، انفجر من الصدمة، حتى السقف أكلت النار أجزاء منه، فظهرت السماء كي تكون

محطه مصر.. رحبت القطار في جبيف، باريس، روما،

هنا لا أعرف.. أين الرصيف؟ دلتني الرائحة عليه، دلني الجحيم عليه، دلني الموت عليه.

أجري، لا أعرف ماذا أفعل؟ كيف أساعدهم؟ لكنهم يتخبطون يصطدمون بكتفي، فتعلق قطع من جلدهم المهترئ بشعري ويتساقط رماد أجسادهم في طريقي، أضع قدمي موضع أحذيتهم المتفحمة، الحريق الذي طاردهم دفعهم نحوي، الجرار الذي خرج عن القضبان اصطدم بالصدادة الحديدية الموجودة على الرصيف، انفجر تنك الوقود، قنبلة حرارية، اشتعلت النيران في الجرار والعربة الأولى والثانية بالقطار، أتحرك كطفل صغير يعيق المرور، بحركاته المتخبطة.

أتخذ جانبا، أفسح الطريق لمن يقدرون على المساعدة، أحاول أن أستوعب، أو أنتظر أمرا أنفذه دون تفكير.. في ركن من المحطة حيث الجدران من الرخام الأبيض، أسند كتفي للرخام تلسعني السخونة، أنزلق، يحيط السواد بكل شيء، تفحم الرخام، الزجاج، الخشب، البشر، الركاب، العابرون. تتساقط الجثث متفحمة، مستلقية على ظهرها مفتوحة الفم يتيبس الفكان على صرخة أبدية، كل الجثث أذرعها مفرودة باستسلام، لكن الساقين، ساق منثنية وساق مفرودة، لا شيء، لا أمل، لا استسلام، تخبط. كم تعذبت حتى انتهى حريق الأعصاب، كم يحتاج الجسد البشري كي يتفحم؟

القطار الذي انفلت من قضبانه وخرج، اشتعل البنزين، انفجر، انفجر من الصدمة، حتى السقف أكلت النار أجزاء منه، فظهرت السماء كي تكون شاهدة.

ماذا أفعل هنا؟ أتتبع الذين يجرون بجرادل المياه يصبونها على النيران الملتهبة، في أقدامهم، تتخبط الكتل المشتعلة بالنار، هذه الكاميرا ماذا تسجل ولمن؟ أصوات، صراخ، سرينة إسعاف، إغماءات، الأسود يلتهم ما يقابله.. الهباب، الدخان، الكربون، الذرة الأولى، الحلقة الأولى في التركيب، ليس التراب إنه الكربون أساس كل الأحياء، تتحور.. تتحول لماس، لحرارة، للحم، حيوان، إنسان، الحلقة السداسية.

ماذا أفعل؟

تبكي سيدة عجوز وتصرخ، ابني، أخذه الإسعاف، لا يسمحون لها بالركوب معه، أستطيع أن أساعدها، أتحرك بها نحو مستشفى الجلاء، آخذها: تعالي يا ست سأخذك عند ابنك.

المسعفون يتركون الجثث المتفحمة، تتراكم أكوام الكربون، في سوادها وحدادها السرمدي ونواحها، يحملون من أبقت النار على بعض منه.

أمسك يدها، أصابعها الخشنة، يمكنك أن تعرف شقى الرجال من تهدل أكتافهم، شقى النساء يتجذر في جلد أيديهن الخشن، الشقى غير التعاسة.. غير الحزن، غير الاكتئاب، الشقى فعل، جهد، تعب بدني، أشق لها طريقا وسط الجموع القادمة، تستطلع الخبر أو تبحث عن عزيز مفقود.

يزداد الألم سوءا عندما تخمد النار، العلاج موجع، مؤلم، يتصاعد الألم، يتلوى، والبعض ساكن إلا من تشنجات. كلما كان الحرق أسوأ كان الألم أقل وذلك بسبب الأضرار التي ألحقتها الحروق بالنهايات العصبية. لذلك قد لا تكون الحروق من الدرجة الرابعة مؤلمة كالحروق من الدرجة الثانية أو الثالثة.

من لا يصرخون هم الأكثر ضررا، أكلت النيران الجلد والعضلات ووصلت للعظم.

من يفقدون الوعي، هم الأكثر ألما.. يتصاعد الألم فيزداد التوتر والضغط، يتدفق الدم للدماغ فيسقط مغميا عليه، يغيب وعيه، منحة، استراحة، للجسد، الغيبوبة، والإغماء حيلة دفاعية.

المحروق يموت من الصدمة، الصدمة..

كم تمنيت أن أفصل التيار الكهربي..

أعرف اسم ابنها أحمد محمد السيد، أسأل عنه، لا أحد يجيب.

تترك يدي، تقترب من كل سرير.

على الأسرة في عنبر الحروق يحيطون المصاب بقفص من الحديد، كي يستروا أجسادهم، أيها المسكين؟ لماذا لم تمت؟ أيها المسكين وكأن عذابك لم يكن كافيا؟ فتأتي هنا في غرفة قذرة، وليس لك من علاج أو شفاء سوى المسكنات، أي شيء تريدين الآن، أي أمنية تتمنين؟ بأي دعاء تتمتمين؟ هل تتمنين خلاصه؟ أي حياة لرجل سيظل مشوها؟ من ينجو من الحريق؟

كثير من الإصابات في الأطراف، البعض تعرض لاختناق وإغماء من استنشاق الدخان.

الأم في مجلس سليمان الحكيم، تصيح: تأخذه ولكن لا تقسمه، أبحث عن معنى تفكر فيه الغريبة.. في جلبابها الأسود ورائحتها التي هي خليط من الدقيق والجبن واللبن والكبريت. وعيناها الغائمتان، أكلم أخوه يا بنتي، تخرج موبايل صغيرا، أنا آسفة، كيف أبحث عن اسمه، الموبايل باللغة العربية، أسأل ممرضة، تزيحني، ابعدي، أطلب من شاب يرتدي جلبابا، إن كان يستطيع البحث عن الاسم في الموبايل، يجده، يطلبه، يعطيه للأم، بصوت متوسل: محمد، نعم يا ولدي، تعالى في عربية، جهز قبر أخوك، ماتخبرش أبوك يا ولدي، قول هو بخير، أخوك بخير

كم تمنيت أن أفصل التيار الكهربي..

أعرف اسم ابنها أحمد محمد السيد، أسأل عنه، لا أحد يجيب.

تترك يدي، تقترب من كل سرير.

على الأسرة في عنبر الحروق يحيطون المصاب بقفص من الحديد، كي يستروا أجسادهم، أيها المسكين؟ لماذا لم تمت؟ أيها المسكين وكأن عذابك لم يكن كافيا؟ فتأتي هنا في غرفة قذرة، وليس لك من علاج أو شفاء سوى المسكنات، أي شيء تريدين الآن، أي أمنية تتمنين؟ بأي دعاء تتمتمين؟ هل تتمنين خلاصه؟ أي حياة لرجل سيظل مشوها؟ من ينجو من الحريق؟

كثير من الإصابات في الأطراف، البعض تعرض لاختناق وإغماء من استنشاق الدخان.

الأم في مجلس سليمان الحكيم، تصيح: تأخذه ولكن لا تقسمه، أبحث عن معنى تفكر فيه الغريبة.. في جلبابها الأسود ورائحتها التي هي خليط من الدقيق والجبن واللبن والكبريت. وعيناها الغائمتان، أكلم أخوه يا بنتي، تخرج موبايل صغيرا، أنا آسفة، كيف أبحث عن اسمه، الموبايل باللغة العربية، أسأل ممرضة، تزيحني، ابعدي، أطلب من شاب يرتدي جلبابا، إن كان يستطيع البحث عن الاسم في الموبايل، يجده، يطلبه، يعطيه للأم، بصوت متوسل: محمد، نعم يا ولدي، تعالى في عربية، جهز قبر أخوك، ماتخبرش أبوك يا ولدي، قول هو بخير، أخوك بخير
يا ولدي، هينة، قدر ولطف..

ما هذا التخريف؟ كيف قدر؟ كيف لطف؟!

تمسك ذراعي «يا بنتى، ألمه راح، اللي بيموت بيطيب»، أهزها «أنت لازم تصوتي، ابنك مات»، «طاب يا بنتي، وجعه راح يا ضناي، المهم راحته، المهم راحته، النار، النار يا ولدي فرقته»، صرخت وسقطت مغشيا عليها.

تركتها وابتعدت، هربت من المواجهة الحقيقية، بحثت عن شيء أستند إليه، عن شعور أعبر عنه، عن السخط، عن الغضب، عن الحزن، عن الخوف، كل شيء كان موجودا لكنه ثابت، لا مبالٍ، صامت يرى ولا يتحرك، أخذت أجري، أجري، كيف أترك السيدة بمفردها وأتخلى عنها، طرقات المستشفى مليئة بالأجساد، السلالم، محيط المستشفى، بدوت كبقعة متحركة، وسط سكون بارد، لم أرغب في العودة، لم أرغب في شيء، تقيأت، ظلت رائحة الشواء والشعر والجلد المحترق تنز أمام عيني، الروائح تسكن جلدي.

سلكت طريق قصر العيني، لا أتذكر أين ركنت سيارتي، أجري عكس اتجاه السيارات ولا أعرف إلى أين أذهب، كل الأماكن لها مفاتيح، وأنا لا أملك مفتاحا واحدا، المفاتيح التي لديّ صدئة ولا تتطابق مع الأبواب التي أطرقها، أردت أن أخوض تجربة، ربما لهذا لم أتحمل، وهربت، ربما لأنها تجربة، ربما لأنني لست جزءا من شيء، أن نتمكن من رؤية أنفسنا كما يرانا الآخرون.. نعمة كبرى لا يمتلكها الكثيرون، جوهرة، كنز.. بابا بداية الكذب، بداية الادعاء بداية الانتباه حتى لا تخطئ عندما تحكي الحكاية الكاذبة مرة ثانية، فوجئت باستدعاء المديرة لي، يطلب من المديرة أن تتوسط لدى ماما كي تتيح له رؤيتها، لم يمنعه أحد من زيارتي، ألتقي به في النادي يوم الجمعة وقتما يريد، هو الذي يجلس طوال الوقت حاملا تليفونه ويجري اتصالات تليفونية، أو يكلم أقاربه كي يخبرهم أنه عازمني على الغدا، وأنه سيصطحبني للسينما.

- ماذا أفعل؟ واجب. البنت مصاريفها كثيرة.

بعد جهد أصل لشقتي، أصطدم بحقيبتين كبيرتين، تخبرني الشغالة:

- البيه طلب أجهز كل ملابسه، مسافر، هو حضرتك لا تعرفين؟

أين سيذهب؟ مسافر؟ هل هي صدفة؟ أم مخطط؟

كتبت على الواتس «إلى أين ستسافر؟».

- إلى وادي النطرون.

- تبع الدير!

- مظبوط.

- فجأة؟

- لا. من فترة.

حديثه صارم، يغلق على كل محاولة لمراوغة، هل أخبره جدي برغبتي في الرحيل؟ لم يلمح لشيء، قام بكل ما هو متوقع في العزاء، حضر فتح الوصية، يتواصل معي كل يوم، لكنه اختار أن ينام هنا، وأنا بقيت مع ماما في الفيلا، لم أعلق، لم أسأله حتى لماذا لا يقيم معنا؟ واليوم حضرت لآخذ المزيد من ملابسى، فشاهدت دخان الحريق، وعدت لهنا، ولم يخطر فى بالى أن يكون هو من يقدم على الرحيل أو حتى يفكر فيه.

أين سيذهب؟ مسافر؟ هل هي صدفة؟ أم مخطط؟

كتبت على الواتس «إلى أين ستسافر؟».

- إلى وادي النطرون.

- تبع الدير!

- مظبوط.

- فجأة؟

- لا. من فترة.

حديثه صارم، يغلق على كل محاولة لمراوغة، هل أخبره جدي برغبتي في الرحيل؟ لم يلمح لشيء، قام بكل ما هو متوقع في العزاء، حضر فتح الوصية، يتواصل معي كل يوم، لكنه اختار أن ينام هنا، وأنا بقيت مع ماما في الفيلا، لم أعلق، لم أسأله حتى لماذا لا يقيم معنا؟ واليوم حضرت لآخذ المزيد من ملابسي، فشاهدت دخان الحريق، وعدت لهنا، ولم يخطر في بالي أن يكون هو من يقدم على الرحيل أو حتى يفكر فيه.

خرجت الخادمة، أغلقت الباب خلفها، وقفت وحدي، جلست على أقرب كرسي، درت ببصري، أتأمل الشقة، المفروشات، السجاد، الأنتريه، كل الأثاث جديد، البيت مرتب بطريقة تخلو من الحياة، نفذ أعمال التأثيث مهندس ديكور، كل ما بذلته من جهد هو الموافقة على اختياره.

أراد فادي أن نؤثث الشقة على ذوقنا، التابلوهات، التماثيل الصغيرة، ألوان الخداديات، المناضد... وافقت. لكني لم أختر شيئا. هل هذه تجربة؟ أم هذه هي الحياة؟

بأي تواتر يسيطر علينا ماضينا الهمجي، أنا أراقب نفسي في علاقتي، لا أندمج، لا أذوب، كأنني أمام كاميرا، تصور وتسجل كل ما أقول، ليس أنني لا أتصرف على سجيتي، ولكن أنا واعية لكل ما أفعل وما أقول. المعرفة بالسلوك لا تعني تفهمه.. لا يعني التجرد عند مراقبته.

فادي.. اللطف والطيبة والحرص على ما يريحني.. لست ناكرة للحب الذي غمرني به لكنني لم أستطع أن أتقبله أن أتجاوب معه، كل منا كان في مدار بعيد، هو غارق في الحب وأنا على الشاطئ، يصيبني بعد من رذاذ الموج، أتذكر وأنا أراقبه وهو نائم ممسكا يدي بكفيه ضاغطا بهما على صدره، أغبطه على هذه السكينة التي خربتها له.

حتى علي أنا أيضا واعية أنني أريده، ربما هناك غيرة، مشاعر، حرارة، غضب، دموع، لكن لأنه لا يمنحني ما أريد، ربما لكل هذا الجهد، أعرف أن بشخصيته جانبا لعوبا، جانبا غير منضبط عشوائي، وهو يترك لك أن تفكر في علاقتك به، معظم العاملات معه، وقعن في الاهتمام به، لن أقول حبه، جاذبيته في أنه لا يعطي أحكاما، لكن هذا في الحقيقة لأنه لا يريد أن يبذل نفسه لأحد، يعتقد من يعامله أنه موافق على موقفه ورأيه وأنه يدعمه رغم أنه قد يؤيد موقفين متناقضين، هو يفعل ذلك، إذا جاءت له شابة وقالت له إنها تحبه، لا يغضب ولا يقطع علاقته بها وينبهها أنه رجل متزوج، وأنه يحب زوجته، ويعاملها بصرامة، أو شدة تنفرها منها، هو لا يفعل ذلك، يظل يتعامل معها كأنها لم تقل شيئا، هذا بالنسبة له، لكن بالنسبة لشابة صغيرة فهذه الطريقة هي ضوء أخضر للتمادي في الإعجاب به وحبه، وتظن كل واحدة أنها الوحيدة في حياته والحقيقة أن حياته ليس بها غير نفسه، لا يريد أن تكون حوله مناطق صراع، نقاط توتر، فيترك كل من يتعامل معه يظن أنه الأقرب له وهو يخطط لكل شيء، سفره فجأة إلى لندن.. تأشيرة لندن تأخذ شهورا، عرفت من القناة، ستسافر زوجته في منحة ثلاثة شهور وهو سيدرس في أكسفورد مقررا للأديان المقارنة، يسافر برفقتها، يترك البرنامج التلفزيوني من أجلها، لا ليس من أجلها، دراسته وحصوله على شهادة من الخارج ستجعل سعره يزيد، هو يعرف طريقه جيدا وأنا التي تتخبط، وكل طرقي هشة، دون أساس، فقط خسارات متوالية.. ميل وراثي للخسارة الدائمة.

كل أمنياتي ألا أنزلق دائمًا، ولا أظل مشتتة ومبعثرة بين روابط موضوعات تقودني إلى روابط موضوعات أخرى وأخرى، أبحث على جوجل عن «الأخطاء الصغيرة التي نرتكبها وتتسبب في كوارث كبيرة» فتظهر قائمة من الأفلام الكوميدية.. نعم.. أفلام لور.. وهايدى..
لا أتذكر كلمة اسم لوريل، أكتبه على محرك البحث «جوجل» لورين فيظهر لى «صوفيا لورين».

أقاوم الرغبة في الانسياق خلف لورين الأيقونة الإيطالية، عليّ أن أركز.. أريد البحث عن اسم الثنائي الكوميدي.. أكتب هارلي.. فتظهر «هارلي كوين» الشخصية الخيالية في قصص الكومكس
لا ليست هارلي.. أتسكع قليلًا عند رابط متعلق بهارلي وهو اشتهاء المجرمين.. هو شذوذ جنسي يكون فيه الشخص منجذبًا جنسيًا نحو الأشخاص الذين قاموا بارتكاب جرائم مثل المغتصبين والقتلة واللصوص. على عكس معظم حالة الاشتهاء الأخرى، فإن اشتهاء المجرمين يحدث بشكل حصري للنساء.. لماذا تحب النساء القتلة والسفاحين؟ هل ترغب في أن تكون لها سطوتهم؟ هل ترغب في أن تعيد تقويمهم وتهذيبهم؟ الأنثى أم الأم؟ أم البحث عن الأمان؟

البرنامج التلفزيوني من اجلها، لا ليس من اجلها، دراسته وحصوله على شهادة من الخارج ستجعل سعره يزيد، هو يعرف طريقه جيدا وانا التي تتخبط، وكل طرقي هشة، دون أساس، فقط خسارات متوالية.. ميل وراثي للخسارة الدائمة.

كل أمنياتى ألا أنزلق دائمًا، ولا أظل مشتتة ومبعثرة بين روابط موضوعات تقودني إلى روابط موضوعات أخرى وأخرى، أبحث على جوجل عن «الأخطاء الصغيرة التي نرتكبها وتتسبب في كوارث كبيرة» فتظهر قائمة من الأفلام الكوميدية.. نعم.. أفلام لور.. وهايدى..
لا أتذكر كلمة اسم لوريل، أكتبه على محرك البحث «جوجل» لورين فيظهر لى «صوفيا لورين».

أقاوم الرغبة في الانسياق خلف لورين الأيقونة الإيطالية، عليّ أن أركز.. أريد البحث عن اسم الثنائي الكوميدي.. أكتب هارلي.. فتظهر «هارلي كوين» الشخصية الخيالية في قصص الكومكس
لا ليست هارلي.. أتسكع قليلًا عند رابط متعلق بهارلي وهو اشتهاء المجرمين.. هو شذوذ جنسي يكون فيه الشخص منجذبًا جنسيًا نحو الأشخاص الذين قاموا بارتكاب جرائم مثل المغتصبين والقتلة واللصوص. على عكس معظم حالة الاشتهاء الأخرى، فإن اشتهاء المجرمين يحدث بشكل حصري للنساء.. لماذا تحب النساء القتلة والسفاحين؟ هل ترغب في أن تكون لها سطوتهم؟ هل ترغب في أن تعيد تقويمهم وتهذيبهم؟ الأنثى أم الأم؟ أم البحث عن الأمان؟

لعله هارلم، لكن هارلم هو أحد أشهر أحياء نيويورك، والمركز الثقافى للأمريكيين من أصل إفريقي، لا أتراجع عن البحث، تُظهر مقاطع الفيديو الاسم الصحيح «لوريل وهايدى».. الثنائي الكوميدي الذي يمثل دور ميكانيكيين بلجيكيين وهما ينظفان طائرة من نوع F- 16 فضغط أحدهما على زر إطلاق صواريخ الطائرة فتصيب طائرة مجاورة فتنفجر الطائرة وتتسبب في أضرار بالغة لطائرة أخرى، وينقل العاملان إلى المستشفى وهما مصابان بأضرار بالغة في طبلة الأذن.

يا الله!! ماذا أريد؟ لقد نسيت. لو أني أجد في نهاية الطرقات والتشعبات والروابط العنكبوتية التي تأخذني إلى حيث لا أدري.. كوخًا به شمعة.. فطائر جبن ساخنة، أبحث عن راحة، لا عن فائدة.. أنا لا أحب طعم البروكلي.. أنا لا أحب طعم الخرشوف.. أنا
لا أحب طعم المشروم ولكنهم قالوا سيفيدني مثل كثير من الأشياء التي
لا أحبها، لكني أتعاطاها، أتفهمها، كالحكايات التي لا بد أن تنتهي، وكرة التنس التي قد لا ترتد، واللغة الاعتباطية التي تملأ فراغ الصفحة وتزيد فراغ الروح، والتجاعيد التي لا بد قادمة، كل ما حولي مضطرب مشوش، أو وظيفي، كل علاقاتي لغرض، حتى وإن كان نبيلا.. دوائر من البشر دوائر تتوالد.. أنا أوهم نفسي بأني أحب الأشياء وما دمت أرتدي هذا القناع فسأقاوم موتي لأني بالفعل ميتة.

كل الإنسانيات التي قدمتها في برامجي كانت مجرد موضوعات إعلامية تنتهي صلتي بها بمجرد انتهاء التصوير والمونتاج، ترند خلف ترند.. أين ذهبوا؟ كيف صاروا؟ أين «مريم يحيى» المتهمة بالردة عن الإسلام والمحكوم عليها بالإعدام وبالجلد؟ لديها طفل رضيع، وطفلة وضعتها في السجن.. مريم يحيى إبراهيم، ظللت أتابع قضيتها من مايو إلى آخر يوليو 2014 عندما وصلت للولايات المتحدة مع زوجها الذي يحمل الجنسية الأمريكية.. تقول إنها مسيحية لعائلة أمها بينما تدعي عائلة أمها أن ابنتها مفقودة، أين هي الآن؟ محمد رحومة أين ذهب بعد الحكم عليه بالإعدام والجلد؟ أين ذهبت كل الحالات والنماذج التي لديها مشاكل أو قضية؟ أين هم؟ اليوتوبيا تنهار ولم يعد أمامنا سوى تخيل اليوتوبيا، القدماء يفكرون في الأحسن، العالم المثالي كنقيض للعالم الذي يعيشونه، لكننا لا نرفض الواقع الذي نعيشه أننا نتماهى معه حتى أننا نخترع عالما أكثر قسوة ووحشية وسوءا.

وأين أنا؟ أنا في الغابة، أتقافز مثل ذات الرداء الأحمر، أحسب أن الضوء ممتد ولن ينحصر، لا أنتبه للظل الذي يمتد ويأكل مع كل خطوة الوقت، أتنقل من زهرة لشجرة، يغويني الذئب بحكايات كثيرة، طوال الطريق يظهر من خلف صورة، أغنية، اسم ليسألني هل تعرفين...؟ هل سمعت...؟ هل شاهدت...؟ وأنا أنسى نصائح ماما، لا. لا أنساها حرفيا، لكني أتوهم أنني قد كبرت بما يكفي، لأزاوج بين اثنين، لأحافظ على الخط الفاصل بين الواجب والرغبة، لماذا هو خط أحمر؟ يسألني الذئب.

الذئب ليس عدوي / أنا الذئب / أشاغلني، وأقول إنه الذئب، حذرتني ماما من الذئب، قالت: سيقابلك على الطريق، لم تعرف أن الذئب داخل نفسي.

ما نحتاجه هو المزيد من الفرص لنطالب بها، وننتهزها، ونتشاركها. أن نرتد إلى الهمجية.. شاهدت ارتدادات كثيرة.. ثورة يناير كانت حالة انتشاء كبير جعلت لمن لم يكن له وجود دورا.. في الأحداث الساخنة تكون اليقظة، الإثارة، الشخذ، الترقب، تجري في عرقك الحياة، وفجأة حل الخواء، شعرنا به مع انتهاء جمعات الغضب والفرح والسلام، الخواء من الانفعال لمرأى المظاهرات والتجمعات والحديث عن «الإخوان» وما سوف يفعلونه وما سوف نفعله.. وبالتدريج يظلم المسرح
ولا شيء، حتى المحاكمات والمداهمات، لا شيء، نعود للرتابة، للملل، ويكون علينا أن نرى أنفسنا ونبحث ماذا نفعل.

وأنا ماذا أفعل؟ لا أدري، هل سأنجو؟ وإلى أين سأمضي؟ أين سأكون.. أنا في حالة ترحال مقيم وأحتاج من يتفهمني، عليّ أن أفهم نفسي وأفك تشابك دوائري المرتدة، سأكتب لنفسي، يمكن أن أكتب لفادي الصديق الذي أضعته، حبيبي فادي، مبالغة، عزيزي فادي، رسمية..

صديقى العزيز فادي..

شاهدت...؟ وانا انسى نصائح ماما، لا. لا انساها حرفيا، لكني اتوهم انني قد كبرت بما يكفي، لازاوج بين اثنين، لاحافظ على الخط الفاصل بين الواجب والرغبة، لماذا هو خط أحمر؟ يسألني الذئب.

الذئب ليس عدوي / أنا الذئب / أشاغلني، وأقول إنه الذئب، حذرتني ماما من الذئب، قالت: سيقابلك على الطريق، لم تعرف أن الذئب داخل نفسي.

ما نحتاجه هو المزيد من الفرص لنطالب بها، وننتهزها، ونتشاركها. أن نرتد إلى الهمجية.. شاهدت ارتدادات كثيرة.. ثورة يناير كانت حالة انتشاء كبير جعلت لمن لم يكن له وجود دورا.. في الأحداث الساخنة تكون اليقظة، الإثارة، الشخذ، الترقب، تجري في عرقك الحياة، وفجأة حل الخواء، شعرنا به مع انتهاء جمعات الغضب والفرح والسلام، الخواء من الانفعال لمرأى المظاهرات والتجمعات والحديث عن «الإخوان» وما سوف يفعلونه وما سوف نفعله.. وبالتدريج يظلم المسرح
ولا شيء، حتى المحاكمات والمداهمات، لا شيء، نعود للرتابة، للملل، ويكون علينا أن نرى أنفسنا ونبحث ماذا نفعل.

وأنا ماذا أفعل؟ لا أدري، هل سأنجو؟ وإلى أين سأمضي؟ أين سأكون.. أنا في حالة ترحال مقيم وأحتاج من يتفهمني، عليّ أن أفهم نفسي وأفك تشابك دوائري المرتدة، سأكتب لنفسي، يمكن أن أكتب لفادي الصديق الذي أضعته، حبيبي فادي، مبالغة، عزيزي فادي، رسمية..

صديقى العزيز فادي..

أكتب لك وأنا على مفترق طرق...

تمت